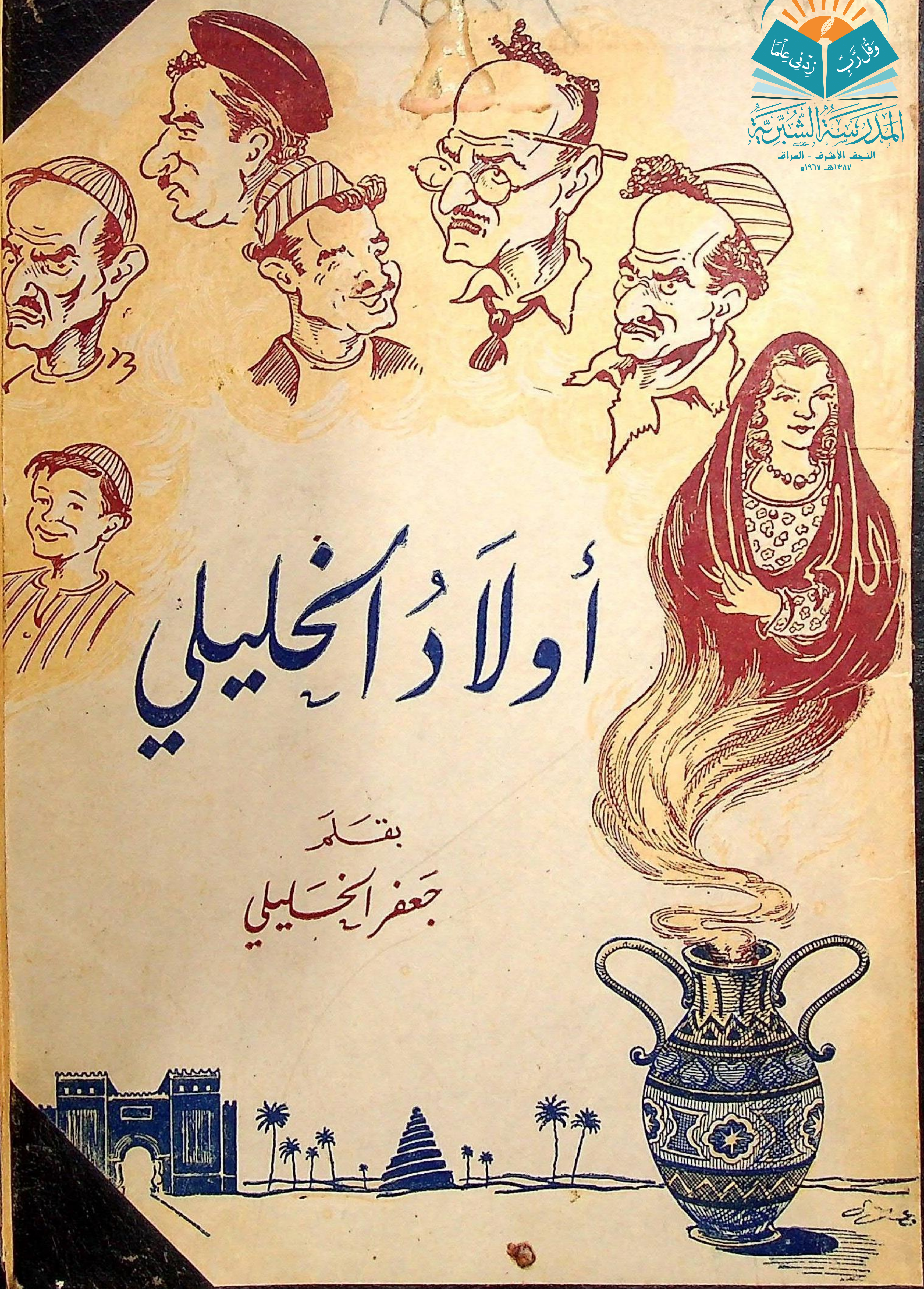


# أولاد الخليلي

بقلم

جعفر الخليلي

# أولاد الحلال



مجموعة قصص مستمدة
من صميم الحياة



مع وافر التحية والاخلاص
لسماحة العالم الجليل والاخ الوفي الكريم
السيد عباس شبر مع
الخليلي
بغداد ٢١/٤/٥٥م

بقلم

جعفر الخليلي



١٩٥٥ — ١٣٧٤
بغداد — مطبعة المعارف

# أولاد الخليلي

---

إذا صح قول القائلين : « رب أخ لم تلده أمك » فقد يصح أن يكون للمرء عدد من الامهات ، وعدد من الاولاد الذين لم تلدهم زوجته ، وعدد من الاولاد الذين لم تحتضنهم إمرأة ، وبناءً على هذه الفروض كانت لي مجموعة من أولاد اخرين هي هذه التي يضمها هذا الكتاب بين دفتيه في صورة قصص والتي سميتها ( بأولاد الخليلي ) اعترافاً مني ببنوتها واعتزازاً بنسبتها الي ونسبتي اليها .

وأنا اعترف أيضاً بظلمي لهؤلاء [ الأولاد ] حين اضعهم في مرتبة دون مرتبة أولادي الحقيقيين في الحب والنسب ، وحين اوثر عليهم أولادي الذين من لحمي ودمي ، وانه لمن الانصاف ـ لو أن العاطفة تفهم الانصاف ـ أن يكون مثل هؤلاء الأولاد ، ـ أولاد المجاز ـ احق بالعطف ، والايثار ، والاعتزاز ، من الأولاد الحقيقيين ، ذلك لأن هؤلاء

الأولاد الذين تبنيتهم واعتبرتهم أولادي [ مجازاً ] هم أجدر من أولادي الحقيقيين بتمثيل نزعتي من دنياي ، وهدفي في حياتي ، وانهم بعد ذلك يحكون جانب الخير مني ، ويصورون الجانب الجميل من نفسي ، وأشياء أخرى قد لا يقوى أولادي الحقيقيون - على رغم عنايتي بهم ، وحدبي عليهم ، وفنائي فيهم - أن يمثلوا شيئاً ولو جزئياً من أغراضي الادبية والمعنوية في حياتي الخاصة والعامة .

* * *

وليست هذه القصص كل أولادي وليست كل ما انتجت ، في عالم الكتابة ، فقد انسلخ من عمري نحو ربع قرن ، وأنا ازاول الكتابة كصحافي أصدرت جريدة الفجر الصادق ، وجريدة الراعي ، وجريدة الهاتف التي اشرف على تحريرها منذ عشرين سنة بدون انقطاع ، فكان لي في قبال بناتي الثلاث الحقيقيات ثلاث بنات مجازيات ، وكان لي أبناء آخرون ضمنتهم عشرة كتب أخرى غير هذا الكتاب وقد طبع بعضها غير مرة . وعلى رغم كون أولادي هؤلاء الذين يضمهم هذا الكتاب أحداثاً جداً وأن لكل جديد لذة ، وان الاحداث احب إلى والديهم من الكبار حتى يكبروا ، أقول على رغم هذا كله ، فان لي بين أولادي

السابقين المتقدمين ( من القصص والمقالات ) عدداً غير قليل لا يزالون يحتلون من نفسي اسمى منزلة ، ومن قلبي سويداءه ، وان فيهم الكثير ممن يستحق الانتساب إليّ كولد عزيز جدير بالحب مني ومن أصدقائي من القراء الكثيرين .

* * *

وسروري بأولادي هؤلاء أنهم كانوا السبب الاكبر في تحبيبي إلى الكثير من الناس ، ولم يعرف للآن أب ـ إلا ما ندر ـ قد حبب نفسه إلى الناس من طريق أولاده عن غير هذا الطريق .

* * *

وسروري بأولادي هؤلاء أيضاً كونهم واضحين كل الوضوح فيما يحملون من أفكار ، بعيدين كل البعد عن التعقيد والغموض ، وان فيهم ما يصلح أن يكون أكثر من الظل لعدد من الناس وأكثر من حاسبة دقيقة ، ومسجلة حاذقة مضبوطة ، لعدد من الحوادث والقضايا .

وعلى اني فخور بهؤلاء الأولاد لأنهم مني والي فاني لا انسى المثل

المعروف [ القرد في عين أمه غزال ] ومن أجل هذا وحده احتفظ بافتخاري بهم لنفسي متواضعاً واتقدم بهم إلى مجتمع القراء الذين طالما احبوا هؤلاء الاولاد من أجل عيونهم وليس من أجل عيني ، راجياً أن يأخذوا طريقهم في أداء قسم من الواجب الأدبي المفروض على أبيهم . وان يحظوا برضى القراء كما حظي اخوان لهم من قبل هذا .

بغداد الحسني

# البركة

# ـ البركة ـ

---

لقـــد ضاقت الدنيا فى عين ( مزعل الفحام ) فقد كبرت عائلته ، وازداد عدد أولاده ، وصار يحس بالضيق وهو يشتد يوماً بعد يوم ، وقد جرب قبل أن يكون فحاماً كثيراً من المهن والأعمال فلم يكن فيها موفقاً وها هو ذا قد تجاوز منتصف العقد الخامس وهو لا يزال كما بدأ العمل منذ أول يوم من شبابه لا يكاد يستر جسمه بأكثر من ثوب واحد في الشتاء وآخر في الصيف وقد علاه بسبب زواجه دين إذا استقله الناس فقد استكثره مزعل وحار كيف يوفيه ويعيده إلى أهله وقد شح رزقه وضاقت سبل المعيشة في وجهه فقد قضى سنتين وأكثر عاملاً من عمال البناء وسنتين وأكثر فلاحاً فى إحدى البساتين المجاورة لقريته وخمس سنوات وأكثر ملاحاً في نهر الفرات ينقل البضائع من مدينة إلى أخرى ثم صار بقالاً مدى أربع سنوات ومنـــذ اثنتي عشرة سنة وهو يشتغل بالفحم يجمع جذوع الأشجار وجذورها بمقتضى اتفاق خاص مع أصحاب البساتين ويضرم النار فيها فى حفر يعـــدها بنفسه وحين رزقـــه الله أولاداً بدأ يستعين بهم في إعداد هذه الحفر في البساتين التي يجري الاتفاق مع أصحابها وفي جمع جذور [ الشوك والعاقول والطرفاء ] ليلقوا بها فى الحفر ويحولوها بعد إحراقها إلى فحم فيحمله إلى القرية وإلى احدى المدن القريبة من قريته حيناً آخر ليبيعه هناك على البيوت وعلى باعة الفحم وهو عمل يكلفه كثيراً من الجهود والتعب ومع ذلك فلا

يكاد يحصل على ما يقوم باوده وأود أهله لأن [ البركة ]مفقودة بمقتضى اعتقاده .

والبركة عند مزعل كما هي عند أمثاله أمر يعود اليه النجاح فى جميع الأعمال وإلا فما معنى أن يشتغل جمع متعاونين متكاتفين ثم لا يستطيعون أن يسدوا حاجاتهم من شغلهم هذا إلا بشق الأنفس ؟ ولو لم تكن هنالك [ بركة ] لما عال واحد عشرين نفساً بمجهود قليل وعجز عشرون شخصاً عن عولة أنفسهم ؟ إن مزعل يؤمن بالبركة كما يؤمن بها عامة الشعب ويسعى منذ أول نشأته للحصول على هذه البركة بالصلاة والصيام والسعي في التجنب عن إيذاء الناس وغمط حقوقهم فى كيله وميزانه وعمله يوم كان بقالاً ، وبناءً ، وفلاحاً ، وهو يقيم ألف دليل على أن البركة حبة في الطعام إذا انتزعت يظل الانسان يأكل ويأكل دون أن يشبع . وانها قطرة في الماء إذا تبخرت يظل الانسان يشرب ويشرب دون أن يرتوي . وانها سلك دقيق فى القماش إذا انسل عجزت جميع معامل الأقمشة أن تستر جسماً أو تقيه من برد وحر وإذا ما اتفق للحياة أن تسد حاجة بدون [ البركة ] فلمدة جد قصيرة يعود الانسان بعدها جائعاً ، عاطشاً ، عارياً ....

فالبركة عند مزعل وعند أكثر الناس هي ما يجب أن يحصل عليه الانسان ليضمن نجاحه في دنياه وان ليس إلى نيل هذه البركة سبيل بغير التقرب إلى الله في صلاة متواصلة ، وأدعية غير منقطعة ، وزيارات لأضرحة الأئمة ومراقد الأولياء .

وكان مزعل يعطى كل هذه الوسائل جانباً كبيراً من نفسه لعل الله يمنحه البركة فيوفر عليه وعلى أولاده هذا المجهود ويجعله ناعماً بعض النعمة وهانئاً بعض الهناءة ولكن الزمن قد طال والذي يشرف على الخمسين يكون في قلب الخريف إن لم يكن في نهايته فمتى تحل بركة الله في عمله ؟ ومع ذلك فقد كان صدره مفعماً بالايمان وكان لهذا الايمان كثير من الفضل في صبره وفي إدخال السكينة على نفسه حتى جاءت سنة ١٩٤٢ وجاء شتاؤها القارص الذي لم يشهد نظيره الناس منذ خمسين عاماً وكانت فرصة حسنة لو ان الله يريد ان يمن على هذا الفحام بالبركة فقد ارتفع ثمن

الفحم ارتفاعاً فاحشاً وجاء اليوم الذي يستطيع المشتغلون بالفحم ان يربحوا أرباحاً مضاعفة وان يدخروا من يومهم هذا المعلوم لغدهم المجهول ما يستطيعون به التغلب على دنياهم ان تجهم وجه الدنيا لهم ذات يوم ، ولكن البركة التي كان ينشدها [ مزعل ] أبت ألا أن تظل بعيدة عنه ، نائية عن متناول يده ، فقد مرض الرجل مرضاً شديداً وشغل مرضه أهله به وطال هذا المرض حتى استنفد كل مجهود في سبيل الشفاء مما اعتاد ان يتسلفه من أصحاب مخازن الفحم وبعض الزبائن من أرباب البيوت ، ولم يعد بوسع زوجة الرجل وأولاده أن يستدينوا شيئاً إذ لكل انسان حدود معينة ، وجاه محدود ، لايمكن أن يتجاوزه ويجتاز به رصيده من تلك الثقة المحدودة وقد حدّت عناية زوجته وأولاده به من العمل في انتاج الفحم فاظلمت الدنيا البهجة الحلوة عند الآخرين – في عيني هذه العائلة – ولأول مرة يصيب الرجل شيء من اليأس .

انه قضى أكثر من ربع قرن عاملاً مجداً وداعياً مبتهلاً لينال هذه البركة من الله فاذا به يحاذر اليوم أن تكون نهايته أسوأ من بدايته ، وان يخلف لأهله شقاء ما بعده شقاء ! فما الذي يجب ان يعمل؟ وقد أوشك دور النقاهة ان يمر؟ وأين هي البركة ليقصدها رأساً ويقبض عليها بكلتي يديه قبضة لا انفكاك لها منه ؟ وكانت الزوجة قد سئمت هي الأخرى من الدنيا وقد برمت من زوجها ودعواته الحارة في طلب [ البركة ] لا بل كفرت بهذه الكلمة ، وهددت زوجها بالهروب منه والالتجاء إلى أقاربها ان هو عاد الى التحدث عن البركة . وقالت ان البركة ليست غير ( الحيلة ) . انها الوسيلة الطبيعية التي تضمن للناس انماء مواردهم وصفاء عيشهم بالطرق التي لاتقبل الجدل والنقاش ، انها وسيلة يتستر بها الذين لا يريدون أن تتوجه الانظار الى مواردهم ومصادر نعمهم .

قالت الزوجة هذا وطفرت من عينيها دمعتان كانتا مبعث استفزاز الرجل ،

وتحول الشك في نفسه الى يقين بان البركة التي كان ينشدها وينشدها غيره ربما كانت شيئاً موهوما وان العلاج بعد هذا - إذا كان هناك علاج - في نشدان الحيلة وان عليه ان يستعمل كل البقية الباقية من قواه لمعرفة البركة التي تجلت في الحبة الوهمية بين الحبوب ، وفي القطره غير المرئية من الماء ، وفي السلك المجهول من منسوج القماش ولكن كيف يهتدي الى تلك الحيلة التي تجعل أمره مستقيماً بعض الاستقامة ؟؟ انه يجب أن يستمدها من ظروفه الخاصة ومن محيطه ومما يتعلق به وإلا فهو فاشل في كل عمل يقوم به وهو إذا ترك الاشتغال بالفحم الى عمل آخر فيجب أن يتركه وهو واثق بانه منتقل الى عمل ان لم يستطع ان يكفر به عن سيئات الماضي فهو عمل يغنيه على الأقل عن الاحتياج للناس .

لقد فكر في تلك الليلة التي تلقى فيها ثورة زوجه في وجهه أكثر ما يستطيع أن يفكر ، وقلب الأمر على جميع وجوهه حتى قر قراره على شيء قال انه سينفذه في الصباح الباكر ولن يخبر به زوجه إلا بعد نجاحه ، وفي الصباح الباكر استيقظ مزعل من نومه وايقظ آله وهو في حال من الرعب مدهشة وقال انه قد رأى في الحلم سيداً جليلا مهيباً قال له انه [ السيد الخضر ] وانه ولي من أولياء الله وإمام جهله الناس وهو مدفون في نفس البيت وفي الركن الأول من مدخله وان عليه أي على [ مزعل ] أن يقوم باظهار قبره للناس فيبني له دكة ويقيم ضريحاً .

وشاع خبر حلم [ مزعل ] ومزعل رجل تقي خير لم يسمع به أحد كاذباً فاستلفت خبره الانظار وراح سكان القرية يتحدثون ويكثرون الحديث عن هذا الامام الجديد بل راحوا يفتخرون بان تصبح لقريتهم مزية بعض المدن المقدسة . وفي اليوم الثاني حدث مزعل بانه قد رأى [ الامام ] مرة أخرى بنفس الهيئة وعلى تلك الصورة التي رآها في الليلة الأولى وهو يعيد عليه القول بوجوب اقامة دكة على قبره الشريف ، وانتشر الخبر في هذا اليوم بصورة أوسع في تلك القرية

وتحدث الناس عنه أكثرحتى عم القرية جميعها ، وفي اليوم الثالث صار من الواجب أن يعجل مزعل ببناء الضريح فقد قال انه رأى الامام في المرة الثالثة وهو غضبان ثائر يهدد القرية بسحب [ البركة ] منها إن لم تعجل باقامة ضريحه . وسحب البركة أمر مهول فى نظر أهل القرية .



واستعان مزعل ببعض سكان القرية فلم يمر على هذه الاحلام المتتابعة بضعة

أيام حتى اقيم للامام الجديد ضريح واشعل فوقه عدد من الشموع التي جاءت بها احدى نساء القرية التي ما سمعت بخبر الامام الجديد حتى نذرت له ان شفي وحيدها من مرضه الذي لازمه منذ يومين فللامام عدد من هذه الشموع وقــد تحققت أمنيتها في نفس ذلك اليوم وهربت الحمى ببركة الامام وبرت المرأة بنذرها وانتشر خبر هذه المعجزة المستعجلة في القرية وكان لابد أن يكون لـكل أحــد أمنية ولـكل شخص مطلوب ، فحاول الناس أن يجربوا النذور ، وكان القسم الاكبر من تلك الاماني طبعياً محتمل الوقوع غداً أو بعد غد أو بعد ذلك بأيام . فتحققت ببركات هذا الامام الجديد تلك الأماني المعقولة الطبعية ووفى الناذرون نذورهم ومرت بضعة شهور اتصل خبر الامام الجديد بالمدن والدساكر وشاعت عنه مزايا كثيرة أهمها تحقيقه أمنيات الناس بأسرع وقت وبصورة تدل على المعجزة فهرع الناس اليه من كل حدب وصوب زرافات ووحدانا يزورون قبره ويستشفعون به في تحقيق مطاليبهم ، وتسكين آلامهم ، وشفاء أمراضهم ، وكثرت عليه النذور والهدايا وجدد مزعل بناء الضريح وأقام له قبة شامخة بيضاء وصحناً كبيراً ورواقاً زينه بالمرايا والنقوش فقد اصاب مزعل وآله خير كثير [ ببركة ] الامام الجديد .

وما مرت سنة واحدة على ظهور هذا الامام حتى ابتنى مزعل الذي صار يدعى بالشيخ مزعل اكراماً لخدمته الرسمية للامام ـ بيتاً عامراً خصص منه جناحاً كبيراً للضيوف الذين بدأوا يتقاطرون عليه من جميع الجهات . ولقد صارت لزيارة الامام آداب خاصة تلزم الزائرين بمراعاتها ، وكلف الشيخ مزعل أحد رجال الدين بأن يضع له تحية أثيرة يفتتح بها الزائر ولوجه الضريح المقدس!!! فكتب تلك التحية على لوحــة فضية بخط فني جميل وصار من المستحب أن يقول الزائر حين يدخل ضريح الامام :

« السلام عليك أيها العبد الصالح لله ولرسوله ورحمة الله وبركاته » . وحين تصل كلمة

[ وبركاته ] الأخيرة الى أذن الشيخ مزعل وزوجه وأولاده الذين عرفوا فيما بعد سر البركة . انهـا حين تصل الى آذانهم يضحكون ولكنهم يضحكون في ( عبهم ) كما يقول المثل العراقي لأن الشيخ مزعل لم يعد يؤمن إلا بهذا النوع من [ البركة ] .

---

# أبٌ وأمٌّ

غازي

# ـ ابن وأم ـ

قد تظل الأم أماً بكل طبيعة الامومة أو بأكثر طبيعتها في مختلف الأحوال والظروف . أما الأبن فقلما تبقى طبيعة البنوة فيه وقلما تبقى علاقته بأمه كما هي فيما اذا تبدلت الظروف وتنوعت الأسباب ومن هذا القليل كان ( حسن ) الذي تسمع قصته الآن :

يرجع تاريخ معرفتي ( بحسن ) الى أيام الطفولة ، الى زمن أظنني لم اتجاوز الثامنة أو التاسعة من العمر بعد ، حين كان يضمني وعدداً من الأطفال شارع لا أزال كلما صار طريقي عليه اتذكر عهوداً هنيئة آناً ، ومريرة أخرى تسبح بي ذكرياتها في عالم فسيح من الأخيلة والافكار وتذهب بي مذاهب قد يعسر علي وصفها وحصرها للسامعين ، وكانت ذكرى ( حسن ) وذكرى ( أمه ) أرسخ من كل ما يموج به الذهن من صور الماضي وأحلامه وحكاياته .

وحسن هذا كان تربي وزميلي في الشارع وفي المدرسة بل كان ألصق الزملاء بي ، وأكثرهم اتصالا بروحي ، وهو اليوم حين يلتقيني يستوقفني بشيء كثير من الشوق ، واستوقفه أنا بشيء كثير من اللهفة ليسأل كل منا الآخر عن شؤونه وأحواله وما جد له في حياته ، ولم أزل اذكر اني وأنا طفل كنت اخاصم ، وأهادن ، وأسالم ، كان ( حسن ) في كل ذلك خصماً لمن خاصمني ، وسلماً لمن سالمني ، وهو معي في كل موقف من تلك المواقف أتبع الي من ظلي . وكانت جدته لأبيه وعمته وزوج أبيه يشجعن مثل هذه الملازمة بيننا ويدفعن بالصبي الى توثيق روابط الصداقة والاتصال بي بأقصى حدود التوثيق .

ولا ادري متى أحسست بالضبط ولكني وجدتني أحس بأن المقصود من كل هذا التشجيع وحث ابنهن على ملازمتي دون سائر الاولاد هو لكي يتخذن مني عيناً على ابنهن ومراقباً تنحصر أعمالي في تتبع حركات الطفل وحركات أمه المطلقة وعدم الفسح في المجال لاتصال هذا الصبي بتلك الام المتلهفة لرؤية ولدها. فقد كن ضربن حصاراً شديداً حول هذا الصبي وحرمنه من التمتع ببنوته وحرمن أمه من التمتع بأمومتها وحلن بينها وبين ان تلقي نظرة واحدة على طفلها بحائل من رقابة شديدة منذ أن جرى طلاقها واخراجها من البيت .

وكانت أم حسن تقيم في بيت قريب من شارعنا فاتخذت النسوة جميع التدابير التي من شأنها تشريد المرأة والتشهير بها حتى اضطرت الى سكنى احدى المحلات البعيدة وحتى صارت لا تطيق المرور بشارعنا لكثرة ما لاقت واحتمال ما تلاقي من الجدة خاصة من تنكيل وتعذيب .

والجدة هذه امرأة عجوز كثيراً ما حملت هراوتها وخرجت الى الشارع فاذا ما وطأت قدماها ارض الشارع وكان في ضجيج لا يوصف من صراخ الاطفال اللاعبين ساد الجمع سكون دونه سكون الليل في المقابر، وحسبت كأن على رؤسهم الطير أو أن الارض قد زلزلت بهم زلزالا لشدة الرعب والهلع .

هذه الجدة ومن خلفها ابنتها العمة وكنتها الضرة قد ضيقن الدنيا الواسعة في عيني أم حسن الغريبة البائسة التي كانت قد قدمت العراق من ايران لزيارة ( العتبات ) فتزوج بها أبو حسن على غير رغبة من أمه وأخته وحين تم له أن يتزوج بالاخرى نزل على رغبة الزوجة الجديدة وأمه وأخته فطلق أم حسن وطردها وراح الجميع يسعون في قتل عاطفة الطفل في نفسه وتغذيته بكره امه فيما يستحضرون من قصص وأمثال وفيما يضعون من حوائل تحول بين رؤية الابن للام . ولكن الصبي ظل كما هو لا يعرف رائحة أطيب الى مشامه من رائحة أمه ، ولا صدراً أرحب في وجهه من صدر أمه الغريبة المطرودة وظلت أم حسن أماً كما يقتضي أن تكون

النواميس وهي تكاد تلتهب عاطفة وتشتعل شوقاً الى ولدها ومع كل ذلك فهي لا تلج هذه المحلة ولا تتخطى هذا الشارع إلا وهي أشد ما تكون حذراً وخشية لترى من بعيد ابنها لاعباً مع الاطفال فتدمع عيناها بضع دمعات لا ادري اهي دموع الفرح أم دموع الحزن ؟ وتهم بأن تدنو ويهم الصبي ان يدنو إذا ما لاحت منها التفاتة ثم يتذكر بطش الجدة فيشيح الصبي بوجهه عن امه وتولي هي وجهها شطر (الجدول) لتتولى غسل الثياب بالأجرة كما كانت تعمل .

ولا أذكر بالتفصيل ما كنت أقوم به من الادوار كمراقب وجاسوس ولكني اذكر تماماً انني كنت قد كسبت ثقة الطرفين اعنى ثقة الجدة والعمة والضرة من جهة وثقة (حسن) وأمه من جهة اخرى واصبحت موضع اسرار الجانبين وقد وجدت من امي تحريضاً قوياً وتشجيعاً كبيراً على اتقان تمثيل هذا الدور دور الجاسوسية وايهام اهل الصبي بأني عامل لحسابهم ، قائم بكل واجبات التجسس تحقيقاً لاهدافهم . واذكر ان ام حسن كثيراً ما كانت تأتي بالمشمش والخوخ والخيار وبعض الفواكه الى بيتنا لأتولى انا ايصال هداياها الى ابنها ، وانها كثيراً ما كانت تعين لي مكانها من احد الشوارع القريبة لكي اصحب معي ابنها اليها فيلقي بنفسه في حضنها ويوسعها شماً وتقبيلا وتضمه هي الى صدرها ملياً وتمطره بقبلاتها الحارة الممزوجة بالدموع المنهمرة ثم تطلقه على مضض فآخذه معي وأروح .

وذات مرة جاءتني الأم بكرتين من النسيج الملون وقالت ان هذه لك والأخرى لحسن فقلت لها ان امي لا ترضى بأن آخذ شيئاً من احد وطالما وبختني وزجرتني وهددتني بالاهمال من جانبها إن انا قبلت من احد حتى ولو كان من اعمامي هدية كبيرة كانت ام صغيرة .

قالت ــ ولكن ثق بأن امك سترضى وستسر ان اخذت هذه الكرة مني .

ومشت ام حسن الى امي وتحدثت معها بخصوص الكرة حديثاً فهمت منه ان قبولي لهذه الهدية امر يكاد يكون ضرورياً اتقاناً للتعمية وان علي واجباً آخر

هو ان أؤيد دعوى ( حسن ) عند اهله بأن الكرة انما هي هـــدية من ابوي انا ( لحسن ) وما كرتي هذه إلا دليل على صحة هذا المدعى .

وكثر هذا الاتصال بسببي بين الأم وابنهـــا واتقنت دور الجاسوس اللبق الذي يمثل دورين متناقضين . وصرت أفهم معنى عاطفة الامومة والبنوة بأكبر قدر ممكن لطفل في مثل سني اتيح له ان يشهد هـــذا العناق الطويل والقبلات المتبادلة بين الأم وابنهـا ويقرأ اكبر مجموعة من العواطف مرتسمة على وجهيهما ومنسكبة في دموعهما .



ولا ادري الى متى ظللت اقوم بهذا الدور دور الجاسوس الحذر الخائف من اهل زميلي ومن الأطفال الذين الاعبهم في الشارع لئلا يشوا بي عند جدة ( حسن ) وذويه . وكلما ادريه هو ان دوري قد طال وطال كثيراً .

وانقطعت ذات مرة اخبار ام حسن على خلاف عادتها فلما طال انتظار ابنها لها طلب مني ان نقصدها الى بيتها للسؤال عنها . وبيت ام حسن غرفة مستأجرة في احدى الدور الوضيعة الحقيرة التي تضم عدة غرف من تلك الدور التي يشغلها بعض النساء الايمات والغريبات او العاملات اللاتي يعشن على خدمة البيوت من غسل الثياب او طحن الحبوب او خبز العجين او خياطة القلانس والثياب المزركشة التي تباع على البدو وسكان الارياف . ومثل هذه النسوة كثير في مدينة النجف وسائر العتبات المقدسة في العراق منذ ابعد التاريخ الى هذا الحين .

وقصدنا ام حسن أنا وابنها فقيل لنا انها انتقلت منذ مدة الى مسكن آخر لخلاف وقع بينها وبين اصحاب البيت فلم نجد حيلة ونحن طفلان غير الانتظار . وانتظرنا اسبوعاً واكثر كان الطفل يذوب فيه كما تذوب الشمعة فلا يعرف لنفسه ملجأ غيري وانا لا اعرف حيلة غير الركون الى امي استنجد بها ولكن امي لا تعرف ما الذي تعمل . وذات يوم وانا في طريقي الى المدرسة فوجئت بأم حسن وهي مسجاة فوق فراشها عند مفترق الشوارع مما يلي شارعنا وبالقرب منها جرة ماء لا ازال اذكرها بشكلها وثلمتها القبيحة واتذكر كيف اجتمع عليها بعض سكان المحلة مستغربين مستفهمين عن الأسباب التي ساقت ام حسن الى هذا المصير . وقد كان وجهها اصفر كالعصفر وكانت عيناها غائرتين وجافتين ليس فيهما ذلك البريق وتلك اللمعة . وكانت تكثر من حركة رأسها ، وفهمت انها مريضة وقد ضاق بها اهل المسكن ولم يبق لها ما تستعين به على دنياها فهموا بنقلها الى ( خان ) من تلك ( الخانات ) الخيرية كما يفعل البعض بخدامهم حين يدنو منهم الموت . ولكن أم حسن وقد علمت بتصميم أهل البيت على اخراجها الى الخان توسلت اليهم بحرارة

والدموع تنهمر من عينيها ان ينقلوها الى هذا الموضع من الشارع لتكون على مقربة من بيت زوجها ولكي يكون ابنها على مرأى منها حين يروح الى المكتب وحين يعود منه وحين يلعب في الشارع فحملت والقيت حيث ارادت .

ولا اذكر شيئاً إلا أنني مضيت في طريقي الى المدرسة . وفي اليوم التالي لم أر أم حسن ولم اعرف عن مصيرها شيئاً ولكني رأيت الجدة تمسك بي على انفراد وتوصيني كثيراً بأن اتجنب المرور بالجهات الخلفية مما يلي الشمال من شارعنا على قدر الاستطاعة . وان آخذ (حسناً) معي فألعب وإياه بعيداً عن شارعنا من جهة اليمين . وقد قالت وهي تطمعني بهداياها : انني اوصيت بأن يحاك لك كيس من الحرير للدراهم جزاء نشاطك .

وراح حب الاطلاع يحملني على ولوج تلك المنطقة المحرمة وما كدت اعبر الشارع وانعطف الى الشمال قليلا ثم الى اليمين قليلا حتى رأيت ام حسن على تلك الصورة وبتلك الهيئة التي رأيتها امس ممددة مسجاة ، فعلمت ان اهل حسن هم الذين نقلوها الى هذا المكان امعاناً في ابعادها عن ابنها وامعنت فيها النظر فالتفتت لي ولم تقل شيئاً ولم يكن أحد في جوارها آنذاك غير طفلين يلعبان . أما الناس فقد كانوا يمرون عليها بدون اكتراث .

وعدت ولا ادري هل عدت في نفس اليوم أم اليوم الذي بعده . لقد عدت الى حسن لأخبره بخبر امه ومحلها ولم يكن من حسن الا أن فزع وركض . أما أنا فتريثت قليلا لأطمئن على نفسي من الوشاية ثم عدوت خلف صديقي الى حيث الأم المنبوذة ويا هول ما رأيت .

لقد رأيت حسنا يمرغ وجهه في صدر امه وينشج . لقد القى بنفسه على أمه دون أن يخشى وشاية احد او يهاب صولة الجدة او نكاية اهله به . ولقد افرط حسن في بكاه ونشيجه ورأيت عدداً كبيراً من سكان الحارة يحيطون بالمرأة من اطرافها الثلاثة وبعض النسوة كن يبكين لبكاء هذا الطفل اما هي فلم ترفع يدها

ولم تحرك ساكنا غير أنفاس كانت تصعدها باضطراب وصعوبة لأنها كانت تعالج سكرات الموت ثم انفرج الموقف بعد يوم ، لقد انفرج عن حمـــل الجنازة على اكتاف الحمالين الى المقبرة .

لقد سعوا كثيراً ليقتلوا عاطفة الطفل فى صدره فلم يفلحوا ولقد اصبح الطفل اليوم رجلا وتجاوز الاربعين وهو لا يزال يذكر امه بعاطفة مشبوبة ودمعة ساخنة وحسرات متوالية وزفرات يرسلها بمرارة وألم كلما سمع أحداً ينادي : يا أمي .



ولقد أفرط حسن في بكاه ونشيجه

قصة ـ ابن رآم

من ـ أولاد الخليلي

# من أين يؤكل الكتف

# من أين تؤكل الكتف

لم يكن مثقفاً ولكنه كان على جانب من رجحان العقل وعلى رغم كونه وليد أبوين ذوي صلة بالماضي من حيث العقيدة والايمان وعلى رغم كونه يعيش في بيت يزيد سكانه على عشرين نسمة وكلهم مؤمن بالسحر، والجن، والعفاريت، والأشباح فانه ما آمن يوماً بشيء من هذا حتى كان يصمه أبواه وأهل بيته بالمروق من الدين والتمرد على نواميسه فهو دائماً واياهم في جدل عذب هادئ، أشبه ما يكون بالسخرية والفكاهة .

فحين كانت أمه أو إحدى أختيه أو إحدى زوجات أخوته اللواتي يعشن في هذا البيت تحاول أن تصفي الرز بالمصفاة وتصب الماء الساخن الفائر كانت تمط شفتيها ثم تجمعها بانكماشة ينطلق من وسطها صوت اشبه بزقزقة فرخ العصفور في أول انطلاق صوته ! او تذهب الطاهية في هذه الزقزقة مرة ، وثانية ،وثالثة حتى يفرغ الاناء من ماء الرز الساخن ولا يبقى منه شيء . إن احداهن حين تفعل ذلك فانما تفعله لتنبه الجن الى ان ماءاً ساخناً سيسكب في البالوعة فلا ينبغي أن يغفل الجني ذلك لئلا يكوى بفوح القدر فتحل حينذاك نقمة الجن بأهل البيت .

انهن حين يفعلن هذا في اثناء تصفية الرز بعد طبخه وعند سكب المياه الساخنة في مجاري البيت وحين يلقين بالفأس أو أي شيء ثقيل آخر الليل ، انهن حين يفعلن هذا ويكون موسى حاضراً أطلق من فمه صفيراً متصلا وأعقبه بضحكة عالية متواصله . والصفير في الليل ـ في معتقد سكان هذا البيت وفي معتقد طائفة كبيرة من الناس ـ هو دعوة حثيثة للجن بالحضور لا يردها ولا يبطل مفعولها

غير التسمية باسم الله الرحمن الرحيم وتبدأ الطاهية بالبسملة وتلاوة آيات الذكر . ويشط (موسى) في صفيره الداعي للجن على سبيل السخرية حتى إذا أدرك أن أمه أو أباه أو أي واحد آخر قد امتعض أو أوشك على الامتعاض من جراء مماكساته وعدم اعتقاده بالجن سكت موسى تأدباً وانصرف الى عمله .

وعلى رغم اختلاف موسى وسكان هذا البيت في الرأي والعقيدة فليس من الهين على أبويه ابتعاده عن الدار بل انهما يكادان لا يصبران على فراقه وفراق اطفاله الصغار إن عن لهم أن يمضوا يوماً أو يومين في بيت أحد الأقرباء مدعوين بل ان هذا الأب وهذه الأم ومن خلفهما بعض أولادهما يرون البركة في عيشهم مجتمعين في دار واحدة وتحت سقف واحد سواء كثر عدد هؤلاء أم قل وغصت الدار بالأطفال وكثر الضجيج وتحول البيت الى جحيم أم لم يكن ذلك وسواء خالف (موسى) آراء أهل الدار في مآكلهم ومشاربهم وعقائدهم أم لم يخالف . ذلك لأن الواجب يقضي أن يعيش الجميع في هذا البيت الذي ضاق بهم ليضمنوا دوام البركة ودوام الرزق لهذه الشركة وليكونوا أمة واحدة يعيشون في كنف والديهم وتحت موضع أبصارهم فماذا يهمهم من (موسى) ان صفر وان استهزأ بالجن ما داموا يستطيعون أن يفسدوا دعوته ويردوا كيد الجن بالدعاء والبسملة والزقزقة . انهم يجب أن يعيشوا في بيت واحد حتى لو استلزم أن يخرج موسى من دينهم ويدخل في دين آخر .

وليس من شك في أن موسى هذا قد برم وسئم من حياة يقضيها بين طائفة ان وحد الحب والمصلحة التجارية والعمل بينه وبينهم فقد باعد الرأي والعقيدة واختلاف النظر الى الحياة كل البعد بينه وبينهم ، ولكن هكذا كان ، وهكذا فرض عليه رضى أم لم يرض وإلا كان في ابتعاده عن أهله ابتعاد عن ربحه التجاري في شركة الأب وأبنائه ثم اثارة غضب أبويه وهذا ما لا يرضاه ولا يتفق مع مصلحته الخاصة والعامة .

وهذا أول يوم انبرى الأهل فيه لمناقشة موسى في انكاره الجن والعفاريت. فقد مرّت على البيت ليلة ليلاء استيقظ فيها النائمون على أصوات الحجارة وهي تنهال من أعلا البيت وهي حجارة من نوع أشبه ما يكون بالحصا وحجر الصوان. فتصارخ الاطفال وتعالى الصياح من سكان البيت وهب حتى الجيران من نومهم فزعين وكان موسى أول من جرأ على اشعال الضوء والصعود الى سطح البيت والنزول الى أعماق السراديب ، وتفتيش المخابيء والزوايا باحثاً عن مصدر الحجارة وهو يهز رأسه قائلا : انني اقسم لكم انه عمل ليس له علاقة بالجن والشياطين والعفاريت هذا إذا كنا نعتقد بأن هنالك جناً وشياطين وعفاريت .

ـ ولكن من اين جيء بهذه الحجارة التي تشبه حجر الصوان ؟

ـ انا لا اعرف من اين جيء بها ولكني واثق بأن العمل هذا عمل انسان لاغير.

ـ ولكن انظر هذه آنية المخللات وقد القي فيها حجر من هذه الاحجار . ثم انظر ان شكلا هندسياً قد تألف من ثماني حجارات صغيرة مدورة . فمن هذا الذي وضع هذه الحجارة في آنية ( الطرشي ) ؟ ومن هذا الذي الف هذا الشكل الهندسي في وسط ساحة الدار من ثماني حجارات مدورة صغيرة اذا لم يكن هنالك جن وعفاريت ؟ ؟ .

لقد اتحدت كلمة اهل البيت والجيران وجميع من رأوا الحادث او سمعوا به على أن هنالك ارواحاً او عفاريت هي التي عملت ما عملت في تلك الليلة دون ان تكون هنالك سابقة قديمة لهذا البيت . لقد اتحد الجميع إلاموسى الذي كان يرى وجوب اشراك الشرطة في التحري عن الفاعلين ودعوة البوليس للتفتيش والتنقيب فقد كان يعتقد ان ذلك لا يتجاوز عمل بعض الاعداء والمناوئين لأبيه واخوته .

واتخذ الاهل الاحتياطات اللازمة ، وان الاحتياطات اللازمة عندهم هي اللجوء الى كتاب ( الأدعية ) والتعاويذ لتزويد البيت بالحروز ووقايته من ثورة الارواح

والجن . وهدأ البيت ولـكن اللغط والتحدث عن هجوم الجن على البيت مما شغل البيوت والمجالس اياماً طويلة .

وذات ليلة استيقظ سكان البيت مرعوبين على صوت صفيحة من صفائح النفط الفارغة وهي تتدحرج من اعالي السلم الى ساحة الدار وحين فتحت ابواب الغرف واطل منها ساكنوها الفوا احدى القدور الـكبيرة قد نصبت في وسط البيت على ثلاث أثافي من القناني والنار تشتعل تحتها وليس هنالك من شاعل وكان (موسى) اول من نزل الى ساحة الدار واول من جرؤ على الدنو من القدر ورفع غطائها فاذا ليس فيها غير قليل من الماء واذا النار المشتعلة عبـــارة عن خرق ممزقة كانت مبتلة بالنفط ! ! فمن يا ترى هذا الذي اخرج القدر من المطبخ ووضع فيه الماء ثم وضع



هذه القناني الثلاث تحتها ثم بلّ هذه الخرق بالنفط واضرم فيها النار ؟ ومن هـذا الذي الق بالصفيحة من اعلا السلم الى الاسفل ؟ من هو هذا ؟ من هو هذا الذي وضع فى كل زاويـة من زوايا الدار الاربـع جرة من جرار البيت ثم اقام على كل جرة عموداً في نحو ذراع من الارتفاع وقد شدت الى رأس العمود خرقة كما لو كان المقصود اتخاذها علماً وقد نقش على كل خرقة حرف او حرفان من الحروف الهجائية ؟ من هو هذا الذي فتح حنفية المطبخ والحمام وجعل المياه تفيض فيضاً في قاع الحمام والمطبخ ؟

ان اهل البيت جميعاً يقولون ان الجن يعملون ذلك وموسى وحده يقول ان عملا كهذا لا يعمله غير اناس لهم معنا غرض من الاغراض .

واشتركت الشرطة في التحرى وانتدب بعض الافراد منهم لمراقبة الجيران وبات البعض من الشرطة فوق سطح الدار وجيء بالذين اشتهروا بتسخير الجن ومعرفة بواطن الامور فأيدوا ان هنالك بعض الجن من الموتورين هم الذين يقومون بهذه الأعمال تشفياً .

وعبثاً راح موسى يناقشهم ويحاججهم بالمنطق : انه لو سلم جدلا بأن هنالك جناً موتورين فأية علاقة لهذه الاعلام القائمة في وسط الجرار بالانتقام ؟ ولكنهم ردوا عليه بأن الاعلام انما هي نذر شر واعلان حرب على هذا البيت . .

وقال مسخرو الجن والعارفون ببواطن الامور : ان هنالك اعمالا يجب ان يقوم بها سكان البيت كتبخير بعض العقاقير، وقراءة بعض الاوراد ، وصيام ايام خاصة وغير ذلك مما ينتظر ان يضمن الهدنة وينهي الحرب بين الجن واهل هذا البيت .

وتصدى اهل البيت لما امروا به الا موسى الذي استنكر هذا وأبى أن يقوم بشيء مما ذكر ومرت ايام وسكان البيت في وجل وخوف شديد لا يدرون متى يهاجمهم الجن وكيف سيكون مصيرهم وقد التجأ حتى الكبار الى ان يأووا الى غرفهم مبكرين ليطمئنوا من اقفال الابواب اقفالا محكماً .

ومضى اسبوعان واكثر وكاد ان يرجع الاطمئنان الى النفوس وكاد يعتقد الجميع ان الوقاية بالاوراد والادعية والصيام وتبخير العقاقير قد اعطت نتائج باهرة وصدت الجن عن مهاجمة هذا البيت او الطواف حوله وكاد يكون ذلك حجة قوية لتفنيد شكوك موسى في الجن والعفاريت، وطرق مكافحتها لو لم تصبح زوجة موسى ذات يوم وهي فاغرة الفاه تصرخ وتستغيث فبهت زوجها ومعه اطفاله على اصوات صراخها ويصل صوت الاستغاثة الى سائر الغرف ويخف سكان البيت جميعاً الي غرفة موسى فيلفون سكين المطبخ الكبيرة تلك السكين التي اعتادوا أن يقطعوا بها اللحم وقد غرزت في شق باب الغرفة الداخلي اما خزانة الثياب فقد اخرج جميع ما فيها الى وسط الغرفة دون ان يمس . وتملك الهلع والفزع جميع النفوس حتى موسى فقد اصابه شيء من الذهول والحيرة . انه مطمئن الي ان باب الغرفة كان محكم الايصاد وانه هو الذي تولى اقفاله قبل ان ينام فما معنى كل هذا ؟

وجيء بالخبير وهو الذي يتعاطي تحضير الارواح وتسخير الجن ويحسن الاتصال بهم ومخاطبتهم . فحسب، وضرب الاعداد بعضها ببعض، وزفر وصفر وعمل كل شيء مما يقتضيه المقام، وقال لهم: انني اعتقد ان المقصود من حرب الجن كله هو موسى نفسه ويجب أن يغادر موسى نفسه الى بيت آخر قبل أن تحل الطامة . ودافع موسى عن رأيه وقال انه لا يؤمن بما يقول هذا الكاهن وانه على رغم حبه للانتقال الى بيت آخر واستقلاله به فانه لا يريد أن ينتقل لأنه لا يؤمن بمثل هذه الامور .

واجتمع الأب والأم والاخوة والاخوات حول موسى وتحت تأثير ضروب من التوسلات التي لا عهد لأبن أن يتلقاها من أهله الذين يحترمهم وعشرات من من قبلات الكبار على وجهه وجبينه ومئات من قبل الأطفال على يديه ورجليه رضي موسى أن يترك دار أبيه الى دار جديدة فرشت له بأحسن الفرش والرياش .

وسكنت منذ ذلك التأريخ حركة الجن فلم يعد أحد يسمع بأن حجارة قد القيت أو صفيحة قد تدحرجت أو سكيناً قد غرزت في باب دار أو جدار . .

وقبل ايام زفت إبنة موسى لابن أحد الأقارب فاشترط موسى لابنته بيتاً لا يشاركها فيه أحد وقد كان هذا أول شروط العقد وآخرها فهو لم يطلب مالا ولا رياشاً ولا طنافس ولا ما اعتاد أن يجهز العريس به عروسه بقدر ما ألح على أن يكون لابنته مسكن مستقل . وحين نوقش في فلسفة هذا الشرط قال : ـ

« ليس كل أحد يحسن تمثيل دور الجن ليستطيع أن يخرج من البيت إذا اختلفت مشارب سكانه وآراؤهم وعقائدهم كما خرجت أنا معززاً مكرماً من بيت أبي كأني لم اكن أنا الذي وضعت القدر على النار ، وأقمت الأعلام في أفواه الجرار » .



وقال مسخر الجن : ان هنالك أعمالاً يجب أن يقوم بها أهل البيت كتبخير العقاقير وقراءة الاوراد

قصة - من أين تؤكل الكتف

من - أولاد الخليلي


بقبرون اللى بيفهموا

# يقبروني اللي بيفهموا

ـ سعيدة . . يا ست ماتيلدا

ـ سعيدة مباركة يا جارنا . . ميّل عندنا اشرب شي فنجان أهوه

ـ مرسى . .

هذه التحية وما يشبهها كانت تجري كل يوم عند اجتيازي بهو الدار وكلما التقت عيناي الست ما تيلدا داخلا أو خارجاً .

والست ماتيلدا عجوز فيما يقرب السبعين ولكن كل معالمها تدل على انها كانت على جانب كبير جداً من الجمال واذا كان جمالها هذا قد زال الآن فقد بقي لشخصيتها شيء كبير من القيمة احسب انها استمدته من عذوبة لسانها ، وأسلوب حديثها ، وثقافتها التى دل عليها انكبابها على مطالعة الكتب الأفرنسية فقامـا شوهدت المدام ماتيلدا كما يسميها النزلاء أو الست ماتيلدا كما اسميها أنا دون أن يكون للكتاب موضع بين يديها وهي تدير ـ بانسيوناً ـ بمحلة ـ عرنوص ـ من الصالحية بدمشق . ذا ثلاث غرف سكن اثنتين منه طالبان في الجامعة السورية وسكنت أنا الغرفة الثالثة التي يفصلها عن غرفة الست ماتيلدا ممرّ ضيق لا يلبث ان ينفرج عما عما يشبه البالكون كانت تقتعد الست ماتيلدا جانباً منـه فوق كرسي وثير وإلى جانبه تخت تسميه هي ـ الكنبة ـ تستقبل عليه بعض ضيوفها من الجيران والاصدقاء وكانت تساعدها على ادارة البانسيون امرأة ساذجة هي التى تتولى تنظيف غرف

النزلاء والغسيل والكي وما يلتزم به أغلب البانسيونات تجاه سكانها . وكانت تسميها هي بالبنت .

كان ذلك في سنة ١٩٣٦ ولم أكن متزوجاً بعد وكنت أعتقد ان الزواج ليس اكثر من أن تخطب المرأة ويتم الزواج . اما الطباع ، واما الأمزجة ، واما الاتجاهات ، فلم افهم منها شيئاً . شأني في ذلك شأن الشباب الذي يصمم على الشيء قبل اعمال الفكرة .

وذات يوم عدت الى البانسيون مبكراً طلباً للراحة ، وحين مررت على الست ماتيلدا من مدخل البهو فى طريقي الى غرفتي قامت في وجهي قبل أن أحييها وقالت:

ـ لقد عدت اليوم مبكراً خذ راحتك هنا قليلاً لكي تفرغ ـ البنت ـ من اعداد غرفتك وتنظيفها .

وجلست فوق ( الكنبة ) وهذه أول مرة اجلس فيها الى الست ما تيلدا مثل هذا المجلس ، فلاحت لي من وراء باب النافذة من غرفة السيدة خزانة توصل الأرض بالسقف بصفوف من الكتب المتراصة ! وقد استكثرت يومذاك على امرأة مثل هذه العناية بالكتب فقلت لها :

ـ أهذه غرفتك الخاصة يا سيدتي ؟

قالت ـ نعم .

قلت ـ وهذه الكتب ؟ أتخصك أم تخص زوجك ؟

قالت ـ بل تخصني وليس لي زوج .

قلت ـ منذ كم توفى زوجك ؟

قالت ـ انني عانس ولم أتزوج . . .

وهنا صاحت ـ للبنت ـ قائلة :

ـ اتركي يا بنت الاوضة وتعاي اعملي فنجان أهوه لجارنا . ثم قالت :

ـ وأنت ؟ أمتزوج ؟

قلت ـ انني خاطب ولن أعود من سوريا الى العراق حتى أبنى بخطيبتي .

قالت ـ ارجو أن تكونا متفاهمين متحابين وقد عرف بعضكما البعض تماماً .

قلت ـ ان هذا ما يضمنه الزواج . وليس الشرط إلا أن نكون متراضيين وقد تراضينا

ضحكت الست ماتيلدا . . ضحكت ملء شدقيها وقالت !

ـ لا يا ولدي لا . . ان بين الرضا وبين التفاهم اختلافات لا يمكن أن يتجاهلها واحد مثلك ، فليس كل رضا يؤول الى التفاهم ، وما كل موافقة تعني اتفاقاً في الأمزجة ، والطبائع ، والاتجاهات النفسية ، وقد يكون حادث تافه ، أو خيال تافه ، يفسد كل شيء ويهدم حباً راسخ الأركان ويضعضعه لمجرد وهم أو ما يشبه الأوهام .

وعادت الست ماتيلدا تضحك مرة أخرى . لقد كانت تضحك من آرائي السطحية بدون شك ، ثم جمعت نفسها وقالت :

ـ اسمعني يا ولدي اسمعني : كنت قبل ثماني وأربعين سنة بالضبط فتاة ، جميلة ، رائعة ، كما قد قال كل من رآني حينذاك ، وكنت قد اكملت التكلم والكتابة بالفرنسية ، وكانت الفرنسية يومذاك هي عنوان الثقافة الحديثة ، وكان عدد الرجال الذين يتقنونها قليلا فكيف بالنساء ؟ وكنت قد قرأت الشيء الكثير عن اهواء الرجال وتقلباتهم ، وألواناً من الخيانات التي اتصفوا بها . لقد قرأت ذلك بالفرنسية فنشأت وفي نفسي حـــذر ما بعده حذر من الرجال . وكنت يتيمة الأبوين وقد نشأت في حجر خالتي وزوجها اللذين ذهبا في تدليلي مختلف المذاهب فكان لي رأيي المستقل وصلابتي في عقيدتي .

وذات يوم من أيام الاحاد وأنا أهم بدخول الكنيسة التقيت على الباب رجلا ما كاد يلتفت الي وانا خلفه حتى انسحب الى الوراء وافسح لي في مجال الدخول

بشيء كثير من الأدب الذي يثير الالتفات ، فبادرته بابتسامة شكر تلقاها بابتسامة ملؤها الحياء .

وفي الصلاة تبادلنا النظرات مرتين أو اكثر وهي وإن كانت نظرات بريئة طاهرة ، ولكنها ـ من حيث ندري ولا ندري ـ كانت تنم عن رضا أو عما يسمى بالارتياح .

والى هنا كان كل شيء عادياً يا جارنا حتى كان يوم الأحد الثاني والثالث والرابع كانت النظرات تستمد نفوذها من نار العواطف المشبوبة فاذا بي أتأنى في خروجي من الكنيسة ، ويتأنى هو في خروجه منها ، لنكون على مقربة من بعضنا عند الباب ، وفي الشارع ، وفي السوق .

وادركت ان هناك تجاوباً نفسياً بيننا يحتاج الى الجزم والتصميم ، ولكن من أين لي هذا الجزم ولم يكن يومذاك الاجتماع المفرد والخلو به خلواً تاماً سهلاً كما هو اليوم ، وان سهل مرة فلن يسهل مرة أخرى ، والتجربة والجزم تحتاجان الى مرات من الاجتماع ثم أنه لم يكن يومذاك تلفون وغيره من الوسائل ، فلجأت الى الرسائل .

وبادرته انا برسالة اخترت الفاظها بكل حذر ، وتعمدت جهد الطاقة التورية والابهام ، بعد أن كتبت رسالتين ومزقتهما ثم حملت الرسالة بيدى لأن البريد الداخلي لم يكن معروفاً يومذاك، ولأنى لااعرف عنوان صاحبنا ، وكلما اعلم هو ان اسمه كان ( جميلا ) وقد ذكره لي فى عرض هذه المصادفات التي كنا نجتمع بها والفيتني ارود الجهات التي كان يصحبني فيها عن بعد وعن كثب ونحن خارجان من الكنيسة لعلي أجده فأسلمه الكتاب قبل حلول يوم الأحد ولكني لم أفلح ، واحتملت مرارة الصبر مدة اربعة ايام حتى حان يوم الاحد وحتى خرجنا من الكنيسة فدسست الكتاب اليه فاستقبله كما لو كان على ميعاد معه وقلت له : . «أما الجواب فأرجو أن يصل عن طريق العم ميخائيل» والعم ميخائيل هذا رجل طيب ساذج، يعمل بقالاً بالقرب من بيتنا ووصفته له .

ومنذ هذا اليوم أصبح لنا بريد منتظم وبلغ بنا الأمر ان رحنا نستخدم هذا البريد فى اليوم مرتين وقد يكون ثلاث مرات. وزال الحذر، وخف الاحتياط، ورسخت من نفسه، ورسخ من نفسي في الاعماق، فاذا بنا يستبق أحدنا الآخر في فهم المقصود، وشرح الحال فلا يكاد يقرأ لي تفسيراً لما يجول في ذهنه حتى يرد علي في ضمن ما يرد قائلا: « يقبروني اللي بيفهموا » فقد كتبت له مرة ان نفسي تحدثني انك كنت قد سعيت الى البحث عن دارى حتى وجدتها ولم تكتف بذلك بل هممت أن تطرق الباب وأن تراني . . . . فكتب يقول: « انه الوحي والالهام يا سيدتى فقد والله بحثت كما قلت عن بيتك حتى وجدته وهممت بأن اطرق الباب ولكني خشيت أن تظن خالتك وزوجها بي الظنون فأسيء اليك وأسيء الى نفسي ».

* * *

وا كثرت التحدث اليه في رسائلي عن كوامن نفسية ليس من الهين استنتاجها والتحدث بها لمجرد كلمة عابرة أو خاطرة تقع تحت العين من خواطره التي كان يحبر بها رسائله حتى لا تكاد رسالة له تخلو من تعليل هذه الظاهرة واعتبارها ضرباً من الالهام المسمى اليوم بالحاسة السادسة، ولا تكاد رسالة تخلو من تلك الجملة التي التي استعذبها هو واستعذبتها أنا حين يقول « يقبروني اللي بيفهموا » كلما كشفت له عن مكنون من مكنونات نفسه، وكلما علقت على امر لم يجر على باله .

ومشى الحب في خط واضح لاحب، واستنبطت بمقتضى الحاسة السادسة أن صاحبي يهيء نفسه لخطبتي وقد اطمأننت به فبحت له ببعض ما يجول في ذهني نحوه ولم يكن من الصعب عليه ولوج بيتنا كمدرس للآداب العربية فى الاسبوع مرة فقد كنت اشعر من ناحية القواعد العربية بضعف ربما ظل يرافقني الى هذا اليوم .

أربعة اشهر ونحن نتراسل، ونتكاشف، وننعم بهذا التفاهم الذي سيكون هو الاساس فى بناء زواجنا وحبنا الدائم، وقد قويت عندي العقيدة التي تقول اني

استطيع أن استكشف الاسرار من وراء الحجب بقوة الحاسة السادسة . فلو لم يكن ذلك صحيحاً لما قال عنى صاحبي وهو صادق فيما يقول : « يقبروني اللي بيفهموا »

ونعمنا بهذه الخلوات النسبية ـ في الطريق ، وفي البيت ،وان كان ذلك بمحضر خالتي ـ بعض النعمة .. وقلت له ذات يوم وفي فرصة انشغال خالتيعنا : ترى متى يضمنا مجلس نكون فيه اكثر انطلاقاً فى تفاهمنا ووضع قواعد زواجنا فاني لم أعد أحس بالرسائل تـكفى تعبيراً لأحاسيسنا ؟

قال : ـ لم أزل افكر وقبل أن تطلبي ذلك مني .

ومرت أيام . كتب لي يقول : «ان بيته سيكون فارغاً في الغد لأن أمه وشقيقته ستكونان غـداً في بيروت وستمكثان هناك يومين فان احببت فليكن الوقت الذي انتظرك فيهحوالي الساعة العاشرة صباحاً من بعد غد » وقد أوضح لي البيت تماماً فكان أول مجلس يجمعني واياه على انفراد تام ، وبدون رقيب من خالة أو زوج خالة .

ورحت اليه ... لقد رحت مرتعبة ، وعلى رغم اطمئناني من عدم وجودرقيب فقد ظللت ارتجف كالسعفة ، وحسبت ـ ولا اردي لماذا ـ أن كرامتي قد جرحت وقد قفزت صورة ما قرأت عن الرجال وقلة وفائهم من القصص فاذا بها ماثلة أمام عيني وقدبدا لي في أول وصولي ان الرجل الذي اقابله هو غير الرجل الذي كنت اراسلهولعبت الشكوك في نفسي ، وأرتني منه رجلا غير ما كنت اريد أنأري لمجرد خيال لا غير !!

ان رسائله كانت كلها من نمط آخر كما تقول ( حاستي السادسة ) وان هـذا الذي أراه الآن من نمط قد لا اكون عرفته من قبل . وهكذا أملت، على حاستي السادسة أن اخرج من بيته كما دخلت وبدون أية مذاكرة ، ولم تمكن من سجيته الاعتراض وكلما كان يريد هو ان يفهم سر هذا التحول الفجائى وكيف رجحت عندي كفة الشكوك على كفة الوثوق به والاطمئنان بسلوكه . واين هو

الموضع الذي جرح فيه كبريائي وأنا نفسي الذي طلبت منه مثل هذا المجلس .

وادرك صاحبي ان السر كل السر هو فى الحاسة السادسة وإلا فما الذي حدا مما بدا كما يقولون .وسمع مني في اليوم الثاني ما يجرح له كرامته بدون مبرر .. كل هذا جرى في مجلس لم يستغرق بضع دقائق من الزمن . بضع دقائق فقط . أفسامع أنت ياجارنا ؟

وانقطعت رسائله منذ اليوم التالي ، وتقدم لي خطباء ومحبون وظللت أدنو بحذرالى هذا واحجم عن استجابة طلب ذاك حتى تجاوزت عتبة الأربعين والخمسين.

* * *

وماتت خالتي، ومات زوجها ، وهاجر ـ جميل ـ الى البرازيل فلا سؤال، ولا استفسار، ولا عزاء ، ولا رثاء ، ولقدنسيته أنا الأخرى منذ اليوم الثاني تماماً فلا أعرف أهو حي أم ميت ؟

وقبل شهر جاءني جميل . لقد جاء بعد ثمانية وأربعين عاماً !! لقد جاء من البرازيل ، جاء ليقول لي انه لم يتزوج بعد للآن!! وانه لا يزال يحبني، وانه يتفقدني من حيث لا ادري . . وان هذا ليس بالأمر الجديد كما قال ، فما من أجل هذا قد جاء من البرازيل ، وانما جاء خصيصاً ليكفر بالحاسة السادسة التي امتلكها ، ويطعن بأن يكون عندي شيء منها . وجاء لأمر أهم من هذا كله .

قال : لقد جاء ليسترجع من اصداء ذهني جملته القائلة :

« يقبروني اللي بيفهموا » .

ذلك لأنني ـ كما قال ـ جرحت له كرامته ، وسحقت له قلبه ، ولم افهمه على حقيقته !؟



اسمعني يا ولدي : كنت قبل ثماني وأربعين سنة فتاة جميلة . . . .

قصة ـ يخبروني اللي يفهموا

من ـ أولاد الخليلي

والله الذی لا رب سواه

سبحانه

# والله الذي لارب سواه

ـ لايعلم كم فى الشرق من الأمهات اللواتى شقين بأبنائهن بعد زواجهم ؟ وفي كم وجه تنحصر تلك المشاكل التي تسببها الكنة لحماتها ، أو الحماة لكنتها وابنها ، أو الأبناء لأمهاتهم منذ الساعة التي يبنى هؤلاء الابناء بزوجاتهم ؟ ولكن المعلوم الواضح هو أن هذا العدد كثير وكثير جداً ، وان وجوه الشقاء وضروب المشاكل المتأتية من جراء ذلك كثيرة وكثيرة لم ندر لم اغفلها الكتاب الاجتماعيون والقصاصون ولم يخصوها بالعناية ؟

هذا مختصر ما قاله الشيخ سعيد السلمي جواباً لمن سأله : « ترى كيف يوفق المرء بين الأم والزوجة ؟

***

والشيخ سعيد السلمي شيخ وقور متزن افاد من الأيام شيئاً غير قليل من التجارب فكان موضع ثقة كثير من الناس يأتمنونه على اسرارهم ويلجؤون اليه فى محنهم ومشاكلهم العائلية ، وهو حين يروي لك قصة أو يضرب لك مثلاً أو يشير الى حادث فانما ينتزع ذلك كله من الواقع المعروف ، والمشهود ، والملموس .

قال الشيخ سعيد ( معقباً على جوابه للرجل وكان المجلس حافلا بعدد من الزائرين الذين اعتادوا ارتياد ندوة الشيخ فى ساعة معينة من الليل لشرب القهوة والتندر والافادة من حكمته وأدبه ووساطته في قضاء أشغال الناس ) لقد قال الشيخ للرجل :

ـ لا احسب انلديك امراً أهم مما لدى ناسنا هنا ، ولامشكلة اعقد من مشا كل الآخرين فيما يخص الأم وكنتها لأن امرك لم يبلغ بعد ما بلغ امر الآخرين ولم يتجاوز حدود المألوف في اغلب البيوت وعند اكثر الاسر المحافظة التى لا تريد ان تغير وتبدل في طرازحياتها شيئاً . ولـكن المشكلة هى مشكلة ابراهيم ، ذلك الشاب الذي مات منتحراً قبل بضع سنين بشربة من الحوامض المحرقة ولم يعرف أحد سر انتحاره غير الله وغيري أنا . . ! !

لقد انتحر ابراهيم مأسوفاً على شبابه وعلى مجموعة من الملـكات والمواهب التي ذهبت ادراج الرياح ولم يترك أي أثر يدل على سبب لهذا الانتحار غير انفعالات تركها حزنه على وفاة أمه التي زلت بها قدمها فسقطت في هوة مرداب عميق وماتت فقضى ابنها بعدها حياة نكدة شقية لم ينفرج له فيها فم عن ابتسامه،ولم تنم لهعين على اطمينان ، ولم تجف له دمعة حتى لحق بأمه بعد ثلاثة شهور منتحراً وخلف زوجة في ربيع العمر ، وطفلا لم يتجاوز بعد السنة الأولى . وما أسرع ما اسدل التحقيق الستار على الحادث وانتهى كل شيء .

وابراهيم هذا عرفته فى بيتي ، ـ قال الشيخ ـ كما قد يعرف ذلك كل الحاضرين أو جلهم ، لقد عرفته مرتاداً لا يتخلف عن حضور المجلس إلا قليلا لسببين مهمين أولها النزعة الأدبية المتجلية فيه والتي قد تجد لها في بعض مرتادي هذا المجلس من الأدباء منتجعاً تركن اليه ، وثانيهما قرب داره منا، وعلاقة اهله بأهلنا ، وقدتزوج ابراهيم ، تزوج بالفتاة التي اختارتها أمه له ، وكان يصبو الى فتاة اخرى لم ترق عين الأم ولم تقع من نفسها موقع القبول فما زالت بابنها حتى حملته أن ينزل على ارادتها ، وتمت الخطبة ، ومشيت أنا فى الخاطبين كما لو كنت أباً أو عماً أو أحد الذين لهم بعض الحول والطول في اسرة ابراهيم وبيته ، ثم زفت الفتاة ولا تسألوا عما ترك هذا الزفاف من أثر على الأم التي لم يكن شيء أشهى لها من رؤية ابنها الوحيد من الذكور عريساً ، وعريساً لفتاة جاءت كما ارادت هي من حيث بيتها

وجمالها وعفتها . وكانت قد نذرت وهي الام المحافظة أو قل القديسة التي غالت في كيفية صيامها وصلاتها وتأدية النوافل من الطقوس . لقد نذرت لله أن ترقص ليلة زفاف ابنها رقصة تضمن حرارة حبها لها المغفرة من الله ، ويستميح العذر لها فيها كونها لا تدري كيف تعلن سرورها وحبورها في مثل هذا اليوم .

ورقصت الأم ولم تكن تعرف الاعراب عن مقتضيات الرقص بقدر معرفتها الاعراب عن عاطفة الأمومة فأجادت دورها كأم تريد أن تعلن الناس بأنها فرحة غاية الفرح ، مسرورة غاية السرور ، وصفقت لها النسوة من أسرتها وذويها وأهل محلتها تصفيقاً حاراً اشعرنها فيه بأنهن الأخريات فرحات لفرحها ، مسرورات بزواج ابنها ، مرحات بهذه الرقصات التي ضمنت العاطفة جودتها أضعاف ما يضمن الفن للراقصات المتفننات .

ووالله لقد عجز الناس عن تصوير سعادة أم ابراهيم ، وعجز الناس من كثرة ما رووا عن هذه السعادة التى تلمسوها طافحة على وجه هذه المرأة وحركاتها وسكناتها منذ أول يوم الخطبة الى نهاية ( السبعة ) ، أو إن شئت فقل الى نهاية شهر العسل .

اما بعد ذلك ، اما بعد ذلك فقد بدأ عهد جديد ، عهد لا يمكن أن يمر ببال أحد ولا سيما اذا كان ممن شهد السعادة وهي تظلل هذا البيت بأفيائها .

لقد بدأ يخيم على البيت شيء هو دون هذا الذي يسمونه بسوء التفاهم ثم لم يلبث أن صار ضرباً من سوء التفاهم بين الكنّة التي لم تألف بعد كيفية مداراة أم الزوج ، وبين الحماة التي اصبحت تتخيل أن ابنها الذي كان كله لها قد استأثرت به زوجته دونها ، وان بين حيرة الكنّة فى كيفية جلب الرضا لهذه الأم وحيرة الأم فى كيفية رد ابنها اليها ـ كله أو بعضه ـ نشأت مشادة تبعتها مشادة اخرى . وكلما مر يوم ازدادت هذه المشادات تعقداً حتى لقد كرهت الزوجة الأم ، وكرهت الأم الكنّة ، وانتقلت الخصومة الى ابراهيم فشارك هو الآخر في هذه المعارك .

الـكلامية غير مرة . وبلغ من جزع الجميع وسأمهم مما هم فيه ان استنجدوا بى أنا ، وبلغ من استفحال الخصومة ان شارك اهل الزوجة ابنتهم وزوجها وامها في هذه المعارك الـكلامية التى تجاوزفيها الهجوم حدود العتاب،واللوم، والتعنيف والاستهجان ، والاستهزاء المر ، وكنت في كل ذلك اشير على الأم وعلى الابن بالانفصـال ، لقد كنت ارجح للابن أن يخرج بزوجته الى بيت آخر وارجح للأم التمسك بهذا الحل كتدبير اساسي لحل المشكلة ولـكني لم أوفق حتى بلغ من تأزم الحال أن شعر ابراهيم بأن لا مناص له حقاً بغير الابتعاد عن طريق القسر والسخط بعد أن تعــذر أن يتم لهم ذلك عن طريق الصفاء والرضا . وحمل الزوج زوجته ذات يوم على اثر معركة عنيفة من تلك المعارك التي تهز الاعصاب وخرج بها الى بيت أهلها واتخذ من أحد جوانبه مسكناً له ولزوجته ريثما يتهيأ له مسكن مستقل،وترك البيت لأمه ولأخته الصغرى ، إذ كانت الـكبرى قد تزوجت من ابن عمها قبل زواج اخيها بمدة طويلة . وكنت اريد ان تمر على هذا الانفصـال ايام احمل بعدها الابن وزوجته الى دار الأم شفيعاً لهما طالبا منها شمولهما برحمتها ورضاها لا سيما وقد بعدا عنها فهما لا ينشدان شيئاً غير عفوها وغير مغفرتها ، وكنت اريد أن اصحبهما مرة أخرى بعد ذلك الى دار الأم وهما يحمـلان هدية مناسبة واعود لأشفع لهما عندها مرة واثنتين وثلاث بأن تباركهما وتعلن رضاها عنهما ، بل لقد هيأت نفسى لأعمل ذلك مرات حتى استوثق من رضاها تماماً وحتى اجعل هذا الانفصال امراً طبيعياً واخلق جواً جديداً من الاطمئنان يظلل الجميع بالسكينة ، والحب ، والاحترام ، ولـكني لم اكد أرى الوقت مناسباً لمثل هذه المساعي حتى سمعت ان الأم قد سقطت في سرداب البيت من النافذة التي كانت قد انهارت وتهدمت حواجزها وكانت الأم المسكينة قد اوصت أحد ارحامها باصلاح هذه النافذة ولـكنه تخلف عدة ايام فزلت بهـا القـدم وهي تحاول أن تعبر الى الجانب الثانى من البيت كما اعتادت أن تفعل ذلك كلمـا

اقتضت لها حاجة ،فاذا بها في وسط السرداب وقد دق منها العنق، وصعدت روحها الى بارئها .

وشيعت جنازة الأم فبكى عليها جميع من عرفها من أهلها ومن غير اهلها الذين يعرفون عن تهجدها وصلاتها وتقواها الشيء الكثير وجفت كل الدموع حتى دموع ابنتها الكبيرة والبنت الصغيرة اللتين لمستا من عطف أمها وحدبها عليها ما لم يلمسه أحد من الأولاد ، نعم لقد جفت جميع الدموع أو اوشكت أن تجف على الأقل إلا دموع ابراهيم . فلقد ظل يبكي ما شاء الله ان يبكي ، وظل يندب أمه ليالي وأياماً ، بل لقد كاد يترك عمله ويلازم قبر أمه الى وقت متأخر من الليل آسفاً على ما فرط في حقها حين خرج من البيت وهي غاضبة عليه وعلى زوجته ! !

وقيل لي ان عليّ واجباً نحو ابراهيم الاديب، وابراهيم الجار، وابراهيم الذي ألف مجلسي فلم يتخل عنه في اكثر الاحيان وأنا الذي مشيت فى خطبته ، ومشيت فى اصلاح ذات البين فيما حدث له مع امه ، ومشيت فى جنازة امه كما لو كنت أنا المعزى، فلم لم استدعه الي ؟ وأسمعه بعض ما استحضر من العظات ؟ لعله يهدأ بعض الهدوء ،ويستريح بعض الاستراحة،وينسى شبح أمه بعض النسيان ؟ وهكذا فعلت وكنت أنا وإياه نتناول طعام الغداء في بيتي . ولقد سمع مني ابرع القصص وابرع الأمثلة في مثل هذه المناسبة ولكنه كان يبلل لقمته التي يتناولها بفيض دموعه ولم أجد لكل ذلك من أثر ولا بعض أثر فى أحواله ! !

وحين رآني مستمراً في عظاتي قال : ـ

ـ أتريد الواقع ؟

ـ قلت نعم .

ـ قال الواقع انني لايقر لي قرار دون أن انتحر فألحق بأمي لأعتذر لها هناك .

ـ قلت صدقني ان امك لا تحتاج الى الاعتذار لأنها أم ولأنها قد غفرت لك خطيئتك خصوصاً وانك لم تخطيء وحدك هذه الخطيئة وانما الذين يخطئون مع امهاتهم في مثل هذا الحال كثير عندنا ، فهي مشكلة المجتمع وليست مشكلة الفرد كما تخال .

قال ـ أأنت متأكد من ان الأم القتيلة تغفر ذنب ابنها القاتل ؟

قلت ـ افصح ؟

قال ـ اسمع . . . لقد بلغني ان امي قد نالت من اهل زوجتي بكلام مقذع ما كدت اسمعه حتى قصدت بيتها وعيناي تقدحان بالشرر من الغضب وألفيتها وسط الدار ولم تكن اختي الصغرى هناك فقلت: اريد أن افضحك امام الناس ليعرفوا اين موضع التقوى منك ؟ أفأنت التي تقولين عن أهل زوجتي كيت وكيت ؟

قالت ـ وقد احست بي الشر .

قالت ( والله الذي لا رب سواه ) لم اقل ذلك ، ولم اسمع بمثل ما تقوله إلا في هذه الساعة . لقد قالت ذلك وهي تتقهقر الى الوراء خوفاً من وثبتي عليها ، وعلى اني لم اكن معتاداً على مسها بشتيمة أو ضربة من قبل فقد بلغ الغضب مني مبلغاً هيأني لأن اضرب وان اقسو!! ولكني ما كدت ادنو اليها وهي تتقهقر حتى رأيتها تهوى في السرداب من فوهته المفتوحة .

هنالك وجمت ، وعراني شيء لا اطيق وصفه من الشرود والذهـــول ولم أدر ما الذي يجب ان أعمل ، وكلما رأيتني افعله هو انى اعود القهقرى الى بيت زوجتي وانا لا اعرف من مصير أمي شيئاً ، ثم إذا بالناعين في اليوم الثانى ينعون الي امي بسقوطها في السرداب من جراء زلة قدمها في اثناء عبورها الى الجانب الثانى من البيت ، ومنذ ذلك اليوم وصوتها وهي تقسم ( والله الذي لا رب سواه ) يمـلأ اذنى ، وشبحها وهو يتقهقر الى الوراء مذعوراً ماثلا أمام عيني .

قال الشيخ سعيد :

لم يكن بين هذا الاعتراف الذي ادلى به ابراهيم وبين رؤيتى له ممدداً في دكة المغتسل إلا اسبوع ، فقد ظل ضميره يوبخه كما لو كان هو القاتل حقاً ويريه في شبح أمه قتيلة مظلومة يجب ان ينتقم لها لتطمئن نفسه فعمد الى شربة من حامض الفنيك انهى بها آلامه وأوجاعه ، وكفر بها عن ذنوبه وسيئاته .



قالت ذلك وهي تتقهقر الى الوراء خوفاً من وثبتي عليها ...

قصة ـ والله الذي لارب سواه

من ـ أولاد الخليلي

# ثمن الحرية

# ثمن الحريـة

---

لم نحسن تقدير المسافة ،ولا تقــدير الزمن حين خرجنا من قرية ( جباع ) اللبنانية بمقدار قليل من المتاع متسلقين هذا الجبل العظيم الشامخ ، ميممين ضريح قديس قيل عنه انه ولي من اولياء الله اسمه (صافي) .يمنح زواره البركة ،ويرجعهم بعد عناء صعود هذا الجبل مسرورين ، آمنين ،مطمئنين اذا لم يكن بفعل ما يخلفه في النفس من ايمان ، فبفعل تلك المناظر المبهجة التي يجمعهــا جبل ( صافي ) من جميع الجبهات وينثرها تحت العيون والاقدام حول وديانه وعلى سفوحه في الوان زاهية جميلة .

وكنت قد احسست بالجوع والتعب معاً . ومن قبل كان الامام المرحوم الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء قد أحس بمثل هذا وهو يتسلق الجبل فأثرت عنه كلمة لا يزال يذكرها كل من يهم بارتقاء هذا الطود العظيم او يمر اسم ( صافي ) الولي على باله اما الكلمة فهي « يا صافى : ما أكثر اتعابك وأقلّ ثوابك » ومع كل ذلك فقد بلغنا « صافياً » بعد جهد عظيم وبعد ان استنفدنا آخر ما كان معنا من زاد وأدرك الرفاق اني غير قادر على العــودة ـ ولو لأقرب محل مأهول ـ وغير صابر على الجوع ولو لساعات معدودة ،فراحوا يعالجون القضية بشيء كبير من الاهتمام ،ولم يمر بعض زمن حتى لاح لنا من بعيد رجل يتسلق الصخور الوعرة في منتصف من الجبل مستعيناً بهراوة في طريق ملتوية يخشى القرد فيهــا من الانزلاق وامامه جدي يدفع بــه الى الامام صعداً وكان من البعد بحيث أن

الصوت لا يصل الى اذنيه لولا هذه الأصـداء التي تجعل الصوت بين الجبال ضخماً نخماً ، قوياً ، فانبرى أحد الرفاق ينادي :

ـ وليك يا بورضه . . هوه يا بورضى . . ارض الله عليك هوه يا بورضى . . .

وبعد هنيهة جاء الجواب ممططاً وقد ردده الصدى فزاده مطاً ومداً :

ـ أيوه . . . أيوه . . . أيوه

ـ وليك أرّب صوبنا أرّب « قرّب »

ـ مبأدر . . مبأدر . . « أي ما أقدر » والعنزة شو بعمل فيها ؟ .

ـ مبيصير . . من شان الله أرّب أرّب ، وليك أرّب .

وبعد تبادل اصوات استمرت عدة دقائق حول « أرب . . ومبأدر . . بيصير ومبيصير » ترك أبو رضى جديه ـ ولا ندري أين ـ واتجه الينا في طريق حجبتها عنا الجنادل وبعد ساعة كان الرجل عندنا في « صافي » .

ولم يطل الحديث كثيراً ، ولم يلاق الرفاق صعوبـة في افهام الرجل بأني ضيف غريب ، وأني جائع وتعبان ، وان الواجب يقضي عليه القيام بفروض الضيافة عاجلاً وسرعان ما تم الاتفاق على انتقالنا جميعاً الى بيته الذي لم يـكن رآه إلا القليل من الناس والذي قال عنه هو : انه على مسافة خمس دقائق فقط .

* * *

وقمنا يتقدمنا أبو رضى ـ وقد ناولني هراوته مبالغة في الاكرام ـ ونحن من خلفه صاعدون مع القمم الشامخة . ومنحدرون مع الشعاب الملتوية . فلا نكاد نجتاز صخرة من هذه الصخور الناتئة الجبارة الضاربة فى العلاء حتى نكون عـلى شفة احدى الثغرات الضاربة في العمق الى اقصى ما يمتد اليه البصر، ونحن بين هذا الصعود والهبوط،والتسلق والانحدار . والانعطاف والالتواء ، وجلون خائفون من عثرة قد لا تقال فتذهب بنا الى حيث لا ندري نحن ولا يدري غيرنا ، فهي

شعاب ـ على أغلب الظن ـ لم يطرقها انسان قبل ابي رضى ، وأغوار لم يشهدها حيوان إلا نادراً لتعذر الوصول اليها . ولقد أبيت الاستمرار في المشي . وألححت على الرفاق بالعودة ولـكن طريق العودة ـ كما قالوا ـ ربما كان أصعب مما بقي من الطريق فضلا عن اننا على وشك أن نبلغ البيت كما يؤكد أبو رضى .

* * *

ومرت ساعتان بالضبط تنسى الأعمار ولا تنسيان ، أوشك فيهما كل واحد منا أن يسقط من عل في فم هوة من هذه الهوات الفاغرة الأفواه . وان يدق عنقه في زلة واحدة من زلات هذه الأقدام الخائرة المنهوكة . والطريق يزداد تعقداً ووعورة يعسر معها ارتياده حتى على « هواة » الرياضة والتسلق الذين استطاعوا أن يضربوا في عرض جبال الألب وطولها .

ترى ما الذي جاء بأبي رضى الى هنا ؟ ولم اختار بيته في هذا الجانب المنعزل النائي في بقعة من الجفاف واليبس ، وفقدان الماء مما لا يطمع فيها الطائر القانع ، والراهب الناسك ؟ لم كل هذا المجهود ؟ ولم كل هذا الغلو في الابتعاد عن الناس ؟

تلك افكار جالت في نفسي واسئلة مرت على بالي فكنت ابحث عن فرصة مناسبة تجلو لي هذا الغموض ، وتكشف لي هذا السر .

* * *

وكان الى جانبي رفيق يلازمني اكثر من الآخرين فوجهت اليه السؤال فلم يجبني بأكثر من أن أبا رضى يسكن هنا منذ خلق ، وان ليس في سكناه هنا من بأس فهو بعيد المنال من اللصوص ومن الحيوانات المفترسة ، وان العيشة في الخلاء محبوبة مرغوبة ، وانها اضمن للسعادة وراحة البال من المدن ، وراح هذا الرفيق يفيض في وصف حياة العزلة والترهب في المساكن ويعزو اختيار أبي رضى هـــذه البقعة

الوعرة النائيـــة لسكناه لمجرد فلسفة النسك والزهد التي طالما تتملك كثيراً من النفوس .

وكنا هنا قد انعطفنا حول رابية كبيرة ، قوامهـــا صخرة صلدة واحدة من الصوان فاذا بنباح الكلاب يملأ الآذان واذا بأبي رضا يلقي ببضع كلمات وحروف كان لها فعل السحر على هذه الكلاب النابحة فتنسحب فى هرير واطيء ما لبث أن اختفى، وهي ثلاثة كلاب عالية ، ملبدة ، كثيرة الشعرمن نوع يدّل بريق عينيه على الشراسة والاستئساد ، وإذا بنا أمام دار أبي رضى .

* * *

ودار أبي رضى مؤلفة من ثلاث حجرات قد نحتت في الجبـل نحتاً ويظهر انها كانت كهفاً كبيراً من قبل فعالجه البناؤون وجعلوا منه داراً كاملة المرافق وافية بالحاجات !! والى جانبها حظيرة للمعزى ،وقد دخل نصفها في بطن الجبل و توغل فيه بينما تطلع النصف الآخر للسماء وحسر عن سقفه . وبجوار هذه الحظيرة قن واسع للدجاج،ثم حوضان كبيران للماء . وقد خص احدهما بالدجاج والكلاب والماشية ، وخص الثاني بأهل الدار انفسهم ، وكان قد بنى الحوضان بحيث لا تبقى قطرة من المطر والسيل المنحدر من قمة الجبل دون أن تسيل اليهما،فاذا ما امتلأ فسح في المجال للماء أن يمر فى ميزاب صخري ثم ينحدر الى الوادي هادراً مزمجراً بعد أن تأخذ الدار كفايتها السنوية منه . والداراشبه بقلعة حصينة منها بشيء آخر ولعلها أمنع وأبعد منالا من قلاع القرون الوسطى لتعذر الوصول اليها ، وهي كما علمت من هذه البقعة الجرداء الخالية من كل شيء عدا الصخور وعدا بعض النباتات الضئيلة القليلة المنتشرة هنا وهناك على بعد ميل واكثر من هذه الدار وان شئت فقل من هـذه القلعة المنيعة .

* * *

وأسرة أبي رضى تتألف من زوج وابنتين وابن هو اكبر أولاده.ومن قطيع

من المعزى لا يتجاوز ثلاثين رأساً . وبضع دجاجات وثلاثة كلاب ينزل ابورضى في كل مدة بمنتوجها ـ عدا الـكلاب طبعاً ـ الى اقرب سوق اليه مستعيناً ببعض المأجورين فيبيع السمن واللبن والشعر والبيض والفراخ ويعود من السوق مثقلا بما يحتاج اليه من الحبوب والبقول والقماش وكلما يستطيع ادخاره للحـاجة والعوز .

* * *

وقد اعتاد ابو رضى في سنيه الأخيرة أن يمر بضريح ( صافي ) فيرعاه ويعنى به فيفيد من بعض النذور وقد يعود بعض الايام الى داره بشيء غير قليل من الطعام والنقود والشموع . أما في هذه المرة فلا يدري ماذا سيكون نصيبه من هؤلاء الضيوف الذين صحبوه الى البيت ، وهو أمر لعله الاول من نوعه: أن يصحبه زوار الى بيته ويستضيفوه .

* * *

وجلسنا نتحدث عن أسباب إيغال أبي رضى في البعد عن الناس واختياره هذه الدار النائية من هذا المكان الأجرد فقال أبو رضى :

« لم أكن انا الذي اخترت السكنى في هذه البقعة النائية بل اني لم اكن حينذاك قد ولدت يوم جاء أبي ببعض البنائين والعمال لينحتوا له من هذا الجبل بيتاً كاملا يغنيه عن سكنى القرى والارياف . وقد نقـــل أمي وهي حامل بي ونقل عمتي العانس وأختاً لي صغيرة وجد هذا الـكلب الرابض أمام البيت . وكان والدي شاباً يتدفق فتوة ونشاطاً حتى لقد كان يضرب بقوته وبطشه المثل ، وكان يجيد أنواع الرياضات من ركوب الخيل والسباحة والرمي والصيد اجادة جعلت منه قـــدوة ( للاباظايات ) في هذا القطر الواسع . وكان اسمه قد شغل الرقم الأول من سجل الفارين من التجنيد منذ خمس سنوات واكثر . ولـكن من ذا الذي يستطيع أن يرى أبي فضلا عن أن يقبض عليه ؟ ومن ذا الذي يقدر أن يحتك به فضلا عن أن يسحبه الى المدينة ؟ . وهو حيناً هنا ، وحيناً هناك ، وآونة في هذه القرية ، وأخرى

في غيرها ؟ والجند في مطاردة دائمة له ، واقتفاء مستمر لآثاره ، ولـكن بدون جدوى وبلا فائدة . وكان أبي يعلم انه لو أتيح لهم وقبضوا عليه لكان ذلك آخر عهده بسوريا ولبنان . فقد قل الذين جندوا يومذاك ورجعوا الى اوطانهم بل قل الذين عرف عن اخبارهم شيء بعد تجنيدهم . وأبي هذا ملتهب العاطفة شديد الحب لبلاده ، كثير الشغف بوديانها ، وجبالها ، وزيتونها ، وسنديانها لذلك راح يتفلت من الجندية بكل سهولة ويضحك من مطارديه ملء شدقيه .

* * *

وأخيراً عقد لأبي على أمي وبنى بها ، وحملت بأختي الـكبرى وهو لا يزال طريد الجيش ، ومحط عيون مراقبيه وحساده ، ولقد ألهب زواجه هذا عاطفته اكثر واكثر من قبل ، وقيده الحب بملازمة زوجه وجعل منه رجلا قليل الحذر قليل الاكتراث بمعقبيه ومطارديه حتى داهمه الجند ذات ليلة وهو يهم بالخروج من الدار فسيق الى بيروت مخفوراً وترك أمي حاملا بي وراح .

* * *

ومرت أيام كان والدي بعدهـا أحد الذين ركبوا الباخرة من بيروت الى الى اسطنبول ليتم من هنالك توزيعهم على المناطق العثمانية الشاسعة كجنود لا يعرف أحد من اخبارهم شيئاً ، ولـكن أبي الذي يعرف الحرية وقيمتها ، والذي جادت عليه الطبيعة بكثير من المواهب الجسدية والنفسية ، شق عليه هذا الرضوخ وهذه الاستكانة وهو يملك ما يملك من القوى والمواهب ، فما كاد يجن الليل وتمضي على حركة الباخرة ساعة وبعض الساعة حتى عمد الى ضلع خشبي من اضلاع احد المراحيض فاقتلعه من الباخرة ورمى به في البحر ثم القى بنفسه على أثره وراح يسبح حتى بلغ الخشبة واستعان بها ، وكان الريح معاكساً ، والبحر مائجاً فلم يستطع ان يبلغ

الشاطيء إلا بعد عشر ساعات عانى فيها الكثير من الجهد والتعب والخور وهو البطل القوي النشيط .

* * *

وعاد أبي الى زوجه بعد غياب شهرين فكان أول ما عمل هو أن جشم طائفة من العمال صعود هذا الجبل الأشم لينحتوا له هـذا البيت على بعد عشرين ميلا من اقرب قرية مأهولة .

والذي سمع أبي وتحدث اليه سمع وصفاً لم يسمعه أحد من قبل عن الحرية ، ورأى في كل حركة من حركاته تمسكا عجيباً بهذه الحرية الموصوفة ، فقد فضل أن يعيش في هذه البقعة الوعرة النائية ، وفي أفق محدود من الافكار هرباً من تلك البدلة العسكرية وقيود التدريب والتعليم القاسي يومذاك .

وألفت أمي وعمتي هذه الحياة بالتدريج ، وفضلتاها ـ على مرور الزمن ـ على أي نوع آخر من حياة المدن الرفيهة على رغم انهما لم تكونا تعرفان مرارة الجندية ولم تعرفا تماماً ثمن الحرية كما كان يعرفها الجندي على العهد العثماني .

* * *

وعثرت أمي ذات يوم بحجارة فسقطت وكانت حاملا وحين همت بالقيام زلت قدمها فسقطت مرة أخرى واذا بها تتدحرج الى مسافة كلف انتشالها مجهوداً كبيراً من لدن أبي، وعمتي، وأختي، وكلفها هي سقوط جنينها وكسر عظم الفخذ من رجلها اليمنى ، وظلت تعاني مخلفات سقوط الجنين وكسر الرجل مدة تجاوزت بضعة شهور قامت بعدها من السرير عرجاء مشوهة ! !

وأصيبت عمتي ذات مرة بالتيفوئيد فقضت اكثر من شهرين في مرض نغص على أهل البيت حياتهم ! !

وفي ذات ليلة وأبي يعود الى بيته قبيل الغروب خيل اليه ان رجلا يقتفي أثره ويتعقب خطواته ليهتدي الى بيته وجالت في ذهنه خواطر موحشة وأباح لخياله أن

يتصور اهتمام الجندية به اهتماماً يحملهم على ملاحقته حتى في هذه الشعاب الملتوية ووراء هذه الصخور الشامخة فانحرف عن طريق البيت وبالغ في الانحراف وغابت الشمس وهو في صعود ونزول لا يعرف لها نهاية ، وأدرك انه لن يطيق الوصول الى بيته في هذه الليلة فقضى الليل لائذاً في كهف من تلك الكهوف محتمياً بالجنادل ، وكانت ليلة نابغية لم يغمض فيها لأمي ولعمتي في بيتها جفن لشدة انتظارهما لعودة أبي ووجلهما عليه ، وكانت ليلة ليلاء لأبي الذي انهكه التعب والخوف حذراً من التعقيب .

ومثل ذلك كثير وكثير ، ومع ذلك فقد كانت الحياة هنا وفي هذه الصومعة المنعزلة عن الناس هنيئة ، سعيدة ، رفيهة،مادامت الحرية تظلل هذا البيت ،ومادام الأب يذهب ويجيء ،ويجيء ويذهب ،كما تشاء نفسه،وليس كما يشاء ضابطه التركي حين يقول له قف ،أو سر كما شاء الضابط أن يقف الجندي أو يسير .

* * *

لقد كانت الحياة في هذه البقعة هنيئة حلوة طيبة حتى عند الكلاب وحتى عند المعزى وحتى عند الدجاج ،ومتى عرف الانسان معنى الحرية كما ينبغي أن يعرف احسن استثمارها على قدر ما يتسنى له ذلك فلا يجيب أي داع غير داعي نفسه الحبيبة .

قال أبو رضى : وحين يتم لكم الآن أن تدوروا حول تلك الصخرة الجبارة الهائلة فستجدون قبر ابي هناك ، والى جانبه قبر عمتي وأختي الكبيرة . وعند قدم أبي دفن الكلب الذي افترس ذئبين من الذئاب التي هاجمت المعزى ذات ليلة من ليالي الشتاء الباردة » .

* * *

بعد سنتين مررت « بجبع » مصطافاً وسألت عن أبي رضى فقيل لي انه مات

وانه دفن الى جنب أبيه ، وعمته ، وأخته ، وجد كلابهم الاول، اما الذي خلفه في داره فهو (رضى) وقد يموت (رضى)هذا وهو لا يعرف سر جده ، ولا يعرف سبب اختيار هذا البيت مسكناً في مثل هذه البقعة الوعرة النائية ، أو قد تحدث بعض الحوادث التي تطوح بساكني هذه الصومعة جميعاً الى القبور او الى جهات اخرى، فتمحو كل الذكريات، وتميت كل الخواطر ، اما الشيء الوحيد الذي سيبقى رمزاً للحرية ، فهو هذه الدار التى يفنى اهلها وتفنى الجندية ،وهي باقية خالدة تحت ظلال هذا الطود الأشم كرمز من رموز الحرية .

---



عمد الى ضلع خشبي رمى به فى البحر ثم التقى بنفسه على أثره

قصة – ثمن الحرية

من – أولاد الخايلي

# أهي الثقافة أم البيئة ؟

# أهي الثقافة أم البيئة ؟

كنا ثلاثة فى إحدى عربات القطار المقبل على (بغداد) ، أما الاثنان فقد جاءامن (البصرة ) وأما أنا فقد ركبت (من الحلة ) ، وما كدت آخذ مكاني في العربة حتى ألفيت الرفيقين فى مناقشة لعلها بدأت منذ ساعة وأكثر وقد تكون منذ حركة القطار من البصرة .

لقد كانت مناقشتهما تدور حول البيئة وتأثيرها والثقافة وقيمتها كعامل ذي فعالية في الحياة ، فهذا يقول : ان الثقافة لا تستطيع أن تغالب البيئة فتغير وتبدل من الاتجاه والأخلاق تغييراً وتبديلا نهائيين ، وذاك يقول : ان الثقافة كل شيء في وجود المرء وكينونته حتى لتخرج الانسان اخراجاً آخر ليس للبيئه فيه أي أثر أو تحكم .

وطالت المناقشة حتى قطع بنا القطار مرحلة كبيرة من الطريق وأقبلنا على (المحمودية ) اما المسافة بين المحمودية وبغداد فقد قطعناها مصغين الى القصة التالية التي ساقها أحد الرفيقين المتناقشين دليلا على ما يقول :

« تحابا وهما في عمر البرعم لم يتفتح بعد ، وكلما نمت قابلياتهما الذهنية نما حبهما وازداد تدانيهما ، وفهم أحدهما الآخر فهم الزوجين العاشقين اللذين تعلقت سعادة احدهما بقرب الآخر ، وزاد هذا الفهم كونهما قريبين من حيث النسب، ومن حيث السكنى ، ومن حيث التجانس ، وأهم من ذلك من حيث الدرس والثقافة ، وان

حباً ينمو على هذه القواعد والركائز لا يمكن أن تنفصم عراه ولا يمكن أن يختل توازنه لاسيما والنشأة واحدة ، والعادات والاخلاق متفقة ، والفهم للامور واحداً ، وهما وإن لم يكونا خطيبين ولكنهما كانا اكثر من ذلك في مفهوم ارحامهما وأقربائهما وكان الجميع يتوقع زواجهما حين يحين وقت الزواج ، بل لم يكن أحد من معارفهما يرى انسب من بعضهما للآخر زوجاً لاتحادهما في مخالفة الجميع .

لم يكن هنالك من مانع يحول بين هذا الزواج ما دام هناك التناسب، والتجانس والثقافة ، والحب الذي هو كل شيء في كينونة الزواج وناموسه ، فتزوجا .

* * *

وسأل أحدهما الآخر عن شهر العسل وتاريخه وموضعه من الشهور فلم يعرفا عن ذلك شيئاً فقد مرت عليهما سنة واكثر لم يميزا فيها شهر العسل ولم يعرفا وقتاً أشد حلاوة من الآخر ليختص بالعسل من دون الشهور . وكان فهمهما للحياة يختلف عن فهم المحيطين بهما من اكثر السكان الذين اعتادوا أن يعالجوا الحب وغير الحب بالتمائم والأدعية والطلاسم فقد كانا لا يؤمنان بهذه الوسائل ولا يعترفان بمفعول السحر ، هذا لو كانا قد أحسا بالحاجة ، فكيف وهما زوجان سعيدان يحب أحدهما الآخر حباً قد يقارب العبادة . ومرت السنة الثانية وهما أسعد ما يكونان لولا فترات خفيفة كان يحس فيها الزوج بقلق زوجته ويقرأ في وجهها علامات تدل على انها تعاني في دخيلة نفسها أمراً من الأمور ، وتحاول أن تعالج في ذهنها مشكلة من المشاكل ، وليس اكتشاف شيء من مثل هذا على زوجين متحابين بالأمر الصعب المستعصي لذلك سرعان ما تكاشفا وعرف الزوج كل شيء .

* * *

لقد عرف أن زوجته قد استبطأت ميعاد الحمل ، وانها لم تنظر الى هذا البطء بنظر الارتياح وهي تخشى أن تمر السنة الثالثة بل تخشى أن تمر السنون كلها على

هذه الوتيرة فلا تحمل ولا تلد ! !

قال الزوج ـ وهبي انك لم تلدى في السنة المقبلة ولا في العمر كله ؟

قالت ـ وأنت ؟

قال ـ أنا ؟ أنا لا أريد أولاداً.

قالت ـ ولـكن هذا لا يكون . . . .

قال ـ اذا كنت انا المعني بالامر فالله يشهد انني لم افكر بأولاد ولا أحسبني مفكراً فيهم وعندي أن من الخير أن لا يـكون لنا أولاد ، لأن وجود الاولاد سيقلق راحتنا وينغص عيشنا، ويحدد حريتنا ، فلا يدعنا نذهب حيث نشاء ، ونقيم حيث نريد . ولو تأملت قليلا لالفيت أن شيئاً كثيراً من سعادتنا الحاضرة مدين لخلونا من الاولاد ، ولست اعني انني أكره الاولاد حين يجيئون ، ولـكنني أحب من أعماق قلبي أن لا يجيئوا فاذا جاءوا جاءوا أهلا . لأن عاطفة الابوة تبدأ عندي من هناك أي من حين مجيئهم وليس قبل الولادة . وما دمنا بغير أولاد فنحن أسعد حالاً واهدأ بالا وأقل كلفة فى حياتنا ، اما إذا كنت أنت التي تريدين فذلك أمر آخر أرجو أن أوفق الى تغيير رغبتك ورأيك فيه .

قالت ـ لست انا المريدة وكل خشيتي ان تـكون لك بالاولاد علاقـــة وانت ساكت على مضض .

واقسم لها بأنه لم يقل ما قال مراعاة لها ، وتسكيناً لقلقها ،وانما قاله وهو صادق فى اعرابه عن دخيلة نفسه .

* * *

وتمت السنة الثالثة فكثرت فيها تلك الفترات التي تدع الزوجة تغوص فى بحر من التأملات والحسرات فلا يكاد الزوج يقنعها ويقسم لهـــا بأغلظ الايمان عن رأيه فى الاولاد وما تكاد تطمئن اليه حتى تصطدم بالبيئة والعادات وأخلاق المحيط فتستعرض القضايا التي اسفرت عن عزوف الازواج عن زوجاتهم بسبب الاولاد

وعما آل اليه هذا العزوف وفتور الحب من الزواج بامرأة ثانية وثالثة ولكنها تعود فتتذكر ان زوجها رجل يحبها، ويفهم مقتضيات الحياة وطبيعتها، فلا يمكن أن يقدم محب فاهم على الزواج بامرأة اخرى ويفجعها في حبها .

وكثرت هذه الفترات في السنة الرابعة وصارت إذا أعرضت عن هذا التفكير فان الناس لا يعرضون عنه ، انهم يوصونها بأن تتخذ لنفسها التدابير قبل ان يفلت زوجها من يدها ، انهم يقولون لها ان الرجال غير مؤتمنين على حبهم ، فهم يحبون الزوجة من اجل اولادها !! فاذا عقمت فلن يكون لها نصيب من نفس الرجل وان كانت من الحور العين وان عليها أن تتأمل لترى كم فى هـذا المحيط من الذين عاشوا او رضوا ان يعيشوا بدون اولاد .

انها فى محيط كل من فيه ـ إلا من ندر ـ شاهد على ان الحب لم يدم بين الزوجين بدون اولاد ، فلا تدري كيف توفق بين يمين زوجها او فهمها له وبين ما تسمع من الناس باذنيها وما ترى بعينيها .

وعرف الرجل ان زوجته إن قنعت فلن يتركها المحيط ان تقنع وهي على رغم فهمها لزوجها فهماً طيباً فان عوامل المحيط والبيئة وما تسمع وما ترى لأقوى من هذا الفهم وأبعد أثراً ، فمشى حينذاك بها الى الأطباء وعرف بعد فحوص طبية كثيرة ان السبب في عدم الحمل ناشىء منها وليس منه وان علاجها امر غير مقطوع به ولربما آب بالاخفاق، ومع ذلك فقد جربت المرأة مختلف الوصفات ولازمت العلاج حتى يئست فكانت لها وقفات محزنة ، وفترات طالت على مرور الزمن تخلفت في نفسها آلاماً اذا تجاهلتها وتناستها اسبوعاً فانها لتحز في نفسها اياماً طويلة واسابيع عديدة .

* * *

وملّ الزوج حديث الاولاد والزواج بامرأة ثانية ، وسئم كثرة ما قدم لزوجه من ايمان وعهود وهو الآخر مهما بلغ شأنه ونال من الثقافة القسط الوافر

فلم يسلم من تأثير المحيط والبيئة التي تقف من الزوجة موقفاً غير مأمون الجانب لمجرد الملل او عدم الحمل او اي شيء آخر . والفى نفسه وقد مرت على زواجه بضع سنين فاتراً بعض الفتور، ومصغياً لنداءات نفسية لاعهد له بها وبامثالها لو لم ير من زوجه هذا التخوف المستمر ولو لم يسمع منها قولها ( اخاف ان تتزوج ، اخاف ان تتزوج ) ولو لم ير بعينيه آلاف المتزوجين الجامعين بين الضرائر .

لقد اصبح يسمع ذلك اكثر من ذي قبل حتى خيل اليه ان الامر الطبيعي هو فيما يقول الناس ويعمل الناس ، الناس الذين يعيش بينهم هنا وهناك وليس فيما يراه هو ويعمل به هو .

وبدأ يشعر على مرورا لزمن بشيء من الشفقة نحو زوجته ، ومتى تحول الحب الى شفقة ، خشى عليه ان يأذن بالزوال، ومع ذلك فهو حين يستعرض الماضي الجميل المفعم بالحب الذي بدأ اول ما بدأ وهو صغير يلعب مع البنات والاطفال ، كان حين يستعرض ذلك يثور على المحيط ثورة جامحة فيخص زوجته بشيء كثير من العناية والرعاية الخالصة .

* * *

وازداد حرص الزوجة على زوجها ، وكثر خوفها حين أحست بقلقه هو الآخر وعدم استقراره فاستجابت لدعوة لداتها وأقاربها ومقتضيات بيئتها ولجأت الى نافثي السحر، وكتاب التمائم والتعاويذ طلباً للحمل والولادة ، ولم تمكن قبل ذلك تؤمن بالسحر ولم تصدق أن ثمة اثراً لشيء غير ذي علاقة بالمادة في تحريك شيء أو تبديل أحوال ، ولكن اليأس وكثرة ما القي في روعها خيلا لها ان الحق ربما كان مع اكثرية المحيط وإلا فلم يلجأ الجميع الى السحر ؟ إذا لم يكن فى السحر بعض المفعول على الأقل؟ وان أبيت فقل انها وجدت نفسها تفعل ذلك بدون أن تدري متأثرة بالمحيط الذي تعيش فيه .

وحملت عدداً كبيراً من التمائم والتعاويذ والقت بطائفة كبيرة من البخور في

المجامر وحفظت عن ظهرقلب اسماء كثيرة لزعماء الجن والملائكة من (شنطوب) الى (طنطائيل) و(دردائيل) لتتلوها في اليوم عشرات المرات واكثر كلما رأت من زوجها شبه إعراض او سأم او فتور بسبب عدم حملها .

ومر زمن آخر لم يفد معها هذا اللون من العلاج بعد أن طافت بعدد كبير من مهرة السحرة كما يفعل الكثير من النساء. فالتجأت تجرب وصفات العجائز ، وراحت تركب بعض العقاقير لتؤلف منها دواء تشرب بعضه وتزرق بعضه فى الرحم وجربت ضروباً كثيرة ترك بعضها فيها اثاراً كبيرة من أعراض عجيبة غريبة كانتفاخ في البطن، وهزال في الجسم ، ونزيف كاد يذهب بها الى الموت العاجل لو لم يتداركها الأطباء حتى اضطرت الى الرضوخ لحكم الأقدار واستسلمت .

وسمعت ذات يوم ان قريباً لها قد خطب له امرأة ثانية وكانت تعرفه عابداً لزوجته حريصاً عليها ، معتزاً بمحبته اياها . وكانت كل حجته في هذه الخطبة انه يريد صبياً وان زوجته هذه لا تلد إلا بناتاً ! !

لقد سمعت الزوجة هذا وكانت قد لحظت من زوجها بعض الفتور الذي كان يغيب ويظهر بين آونة وأخرى فبعث ذلك في نفسها الحماس للبحث عن علاج جديد ، ودواء له الاثر البليغ في الحمل ، فالقت بنفسها في حضن احدى العجائز المعروفة بمثل هذه المعالجات على رغم عدم ايمانها من قبل بهؤلاء العجائز ووصفاتهن .

وكانت وصفة حوت كمية ذات نسبة كبيرة من السم ما كادت تستعملها حتى أحست بما يشبه النار وقد شبت فى رحمها فصاحت ، وكان الوقت بعد منتصف الليل والحصول على أطباء في مثل هذا الوقت في مثل مدينتها كان صعباً ومع ذلك فقد نهض الزوج من فراشه مرعوباً واتخذ كل تدبير لاحضار الطبيب في مثل تلك الساعة ، واجتمع الارحام والاقارب ، وظهرت على الزوجة اعراض التسمم بأجلى صورها وبأشد ما تكون ايلاماً وتعذيباً .

ووصل الطبيب قبيل الفجر وكانت المرأة في صراع عنيف مع الموت لم تفد

معه الاسعافات ولا المعالجات إذ لم تمر نصف ساعة حتى كانت روحها التي تبحث عن الاولاد ابقاء على الزوج قد فارقت هذا الزوج فراقاً لا لقاء بعده ولا أمل، وكلما سمع منها قبيل موتها وزوجها غائب يجد في طلب الطبيب قولها وهي تبكي وتهذي :

« قولوا لزوجي أن لا يتزوج بأخرى فسألدله توأماً من الصبيان » ؟



ومن زمن آخر طافت بعدد كبير من مهرة السحرة كما يفعل بعض النساء

قصة ـ أهي الثقافة أم البيئة

من ـ أولاد الخليلي

# زَواجٌ بالإكراه

# زواج بالاكراه

خطب وعقد كما يخطب ويعقد اكثر الناس هنا ، دون أن يرى خطيبته ، فهو وليد أبوين محافظين تزوجا على هذه الصوره ، وليس لولدهما أن يتزوج بنحو آخر وإن تغايرت نشأته ونشأتهما واختلف عمله وعملهما ، فقد نشأ هو نشأة عصرية وتثقف ثقافة عالية انتهت به الى التخرج من الكلية العسكرية ، ثم زينت كتفاه بالنجوم اللامعة ، ولو منح الحرية فى اختيار شريكة حياته الجديرة لما صعب عليه العثور عليها بفضل ثقافته ونجومه الزاهرة فوق كتفيه ، فكيف وهو شاب جادت عليه الطبيعة بشيء غير قليل من الوسامة والوجاهة ، ولكنه أسير رغبة أبويه ، وان عليه أن يرعى حرمة هذه الرغبة ، وإلا كان عاقاً متمرداً لم يؤد حق الأبوين اللذين فرض الله طاعتهما فى عنق كل مسلم وأوصاه بهما خيراً . والذي زاده تمسكا بهذا المبدأ، هو ما تلقاه من ثقافته العسكرية التي تبدأ دروسها بالطاعة وتنتهي بالطاعة، فأصبح لا يحيد عن رأي والديه حتى فيما يتعلق بذاته وبما يعنيه نفسه دون غيره .

وقال والداه : يجب أن يتزوج ، وان الزواج أمر طبيعي يجب أن يوافق عليه فوافق ، وقالا : لنخطب له الفتاة التي تعجبنا ، بيد أن الخطبة على هذه الصورة غير طبيعية فلا يجوز أن يوافق عليها ، ولكنه كان لا يستطيع أن يرد مثل هذه المحاولة منهما ،ولا يطيق أن يفهم أبويه بأن الخطبة لا يمكن أن تتم وأهم ركن فيها مجهول ، وأي ركن أهم من عدم معرفة الخطيبة خطيبها ؟ وعدم معرفة الخطيب خطيبته ؟ أى شيء أهم من عدم رؤية أحدهما الآخر ؟ فوافق مكرهاً .

انه لا يطيق أن يقنع أبويه لأن المحيط الذي انبت أبويه سيقف في وجهه وسيثبت له بالبراهين الوجدانية خطأه ، ألم يتزوج جده بجدته ؟ وأبوه بأمه ؟ وأعمامه بزوجاتهم دون أن يروا زوجاتهم ؟ فما الذي حدث من كل هذا ؟ .

انه لا يطيق أن يجادل ، لأنه خلق في احضان أناس محافظين ، وتخرج من مدرسة كانت الطاعة فيها شرط النجاح الأول ، وكلما استطاع أن يعمل ، هو أن يناقش بعض المناقشة على قدر ما تسمح به تربيته وبيئته ثم سلم أمره لله وانتظر الحظ ، وويل للانسان إذا ساء حظه في دنيا الزواج .

وجاءت أمه تبشر بعثورها على الفتاة التي تليق أن تكون كنتها وتليق أن تكون زوجاً لابنها الضابط المؤدب الجميل ، انهـا فتاة تحكي الحورية الفاتنة ، عينان دعجاوان ، وخدان أسيلان ، وشفتان قرمزيتان ، وأنف دقيق ، وبشرة وردية ، وكل ما يحب ويهوى من الجمال فهي معتدلة القد ، كستنائية الشعر ، ولكن ابنها قال انه يريدها : طويلة ، طويلة فارعة . فقالت : وهي كذلك طويلة كما تحب ، ولكني وصفتها بالاعتدال من باب التجوز ، وحين قال لها انه يحب الشعر الأسود ، قالت وان شعرها أسود ، أسود فاحم ، وانها لم تحسن وصفها حين قالت ان شعرها كستنائي اللون ، وهكذا كلما قال شيئاً ردت عليه بما يشتهي ، وسواء قال شيئاً أم لم يقل فقد تزوج اكثر الناس هنا على هذه الطريقة ويجب أن يتزوج هو الآخر كذلك .

وخطبت الفتاة وعقد عليها ، وهي الأخرى ليس لها أي رأي في زواجها فهي لم تر الخطيب ، ولعلها لم تسمع به ، وليس من حقها أن تطلب رؤيته ، وليس من حقها أن تسأل عنه ، فقد كتب عليها أن تزف الى زوجها بمجرد موافقة أبويها على زواجها ، وكثير من هؤلاء الفتيات لا يعرفن أمر زواجهن إلا ساعة يشرع بتجهيزهن أو ساعة يزففن الى ازواجهن .

وكانت الفتاة من عائلة كريمة ، ولكنها فقيرة تساهلت في كل شيء لكي يتم

الزواج لتزيح به عن كاهلها ثقل هذه البنت ونفقاتها . وقد ضرب المثل بهـذا التساهل وتحدث عنه كل من سمع به من معارف هذه الأسرة ، وظن انه كل شيء في سعادة الزوجين ، وزفت البنت الى زوجها دون أن يحدث شيء مما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال من طلبات وشروط ودلال عند ذهاب العروس الى الحمام وعند خروجها من البيت الى بيت العريس ، وعند تخطيها عتبة الباب ، ورقصت أم العريس واخواته ليلة الزفاف ، ورقصة الأم في عرف الناس هنـا ليلة الزفاف دليل على السعادة التي بدأوا يلمسونها . ولقد كان الأب والأم والأسرة جميعاً مسرورين، وفي منتهى درجات السرور ، اما العريس فقد كان الرجل الوحيد الذي تتقاذفه الامواج من جانب الى جانب ، انه لا يدري ماذا يخبىء له القدر ؟ ان امه تقول انه سيبنى بحورية ضلت طريقها الى الجنة فولجت هـذا البيت عفواً بينما التجارب الـكثيرة تحذره من الوقوع في الشرك .

ودخل حجلة العروس ورفع الملاءة الخفيفة عن وجه عروسه كما يفعل كل عريس في هذا المحيط المحافظ وكان قلبه يدق ، يدق بافراط حتى ليكاد أن ينخلع من محله لفرط سرعته ، ولم يكد يقع نظره على زوجـه إلا وأحس بدقات قلبه تهبط وتتضاءل لحد خشي أن يقف القلب عن الحركة فجأة فيسقط جثة هامدة .

لقد فجع بآماله . انه لم يلف الزوجة التي اطنب المطنبون في وصفها وادرك انه واقع فيما كان يخشى منه .

لقد جوّز ان تكون زوجه هذه جميلة في عيون الناس ، وجوز أن تكون مستوفية كل شروط الجمال ، ولـكنه لم يجوز ولن يجوز لنفسه تقليد الآخرين في رأيهم ، فالجمال عنده مختلف باختلاف المقاييس ولكل نفس مقياسها ، وان ما يبدو في عين هذا جميلا حسناً ، قد يكون في عين الآخر قبيحاً سيئاً وبالعكس ، لقد كان يحاذر ان يقع فيما وقع غيره وقد وقع المحضور فما العمل غير الاستسلام ؟

وقام بمراسيم الزواج في هـذه الليلة مكرها ، والمراسيم العامة هي ان يتناول

الشمعة من يد العروس ويقبلها في جبينها ، ويقف ليصلي ركعتين يدعو فيهما لنفسه واهله ، ومحبيه ، فان كل هذا مما يضمن السعادة الزوجية الابدية في عرف هذا المحيط ، خصوصاً إذا تولت غسل يديه ورجليه ـ وغسل يدي العروس ورجليها في هذه الليلة ـ امرأة بخيتة ، معروفة بالخير ، وقد مد يديه ورجليه مع العروس وتصدت لها امرأة اجتمعت فيها كل شروط السعادة ، لعله يسعد من هذه الناحية بعد أن اخفق من النواحي الاخرى .

وحين خرج من غرفته تقدمت أمه اليه تهنئه وتسأله رأيه في زوجه فقطب وقال : سامحك الله يا أماه ولم يزد .

مرت خمس سنوات ضاق الزوج ذرعاً بنفسه وضاقت الزوجة ذرعاً بنفسها ، فهي تعلم أن زواجها قد فشل ، وان زوجها لينتهز كل فرصة تمر ليعلن طلاقها في الوقت المناسب وقد شعر والداه بغلطتهما ، وعلما انهما أساءا الى ابنهما والى بنت الناس بهذا الزواج الذي لم يراعيا فيه أول قواعده وشروطه ، وهو ترك بعض الحرية على الأقل للخطيبين في أمر زواجهما . لقد ادرك الابوان غلطتهما فراحا يحدان من نفوذهما بعض الحد ويشعران ابنهما من طريق مباشر أو غير مباشر بأنهما تاركاه لشأنه ، ولكن الزوج ما هم مرة بالطلاق إلا واخفق ، ذلك لأن الزوجة كانت تجد بكل ما اوتيت من قوة لتحول بينه وبين الطلاق ، فهي ساعية طول النهار في خدمة ابويه ، وساهرة طول الليل على راحته ، وجادة كل الجد لتجعل من ابنتيها دميتين جميلتين في حركاتها ، ونظافتها ، واناقتها ، لتحلوا في عين ابيهما ولتجعل من كل هذه الطرق طريقاً تحبب منه نفسها الى زوجها والحق انها كانت طرقاً مجدية في تأخير الطلاق ولكنها غير مجدية للتحبيب ، ولم يكن هذا الذي كانت تعمله من اجل نفسها ، ولم يكن هذا استيثاراً منها بزوجها ولا حباً به وغيرة عليه ، بل هي اكثر منه برماً ، وسأماً ، وشقاء في هذا الزواج الفاشل منذ أن عرفت ان زوجها لم يألفها ولم يمل اليها ، ولكنها كانت تفعل ذلك من اجل اهلها فهي تخاف ان طلقت أن تكون

عبئاً ثقيلا على اهلها وهم فقراء وقد اصبحت لها ابنتان اذا خليت هي من الأذى فلن يخلو الطفلان من الايذاء والعبث ، وليس من الهين عليها تركها في بيت ابيهما ان طلقت ، ولا سيما اذا تزوج ابوهما حين يتم الطلاق منها ، فكيف تسعد البنتان في غير حضنها ، وكيف تطيقان ان تعيشا في ظل زوج أب يصفو كل كدر من الطبيعة ولا تصفو طبيعتها نحو ابناء ضرتها الموهومة .

ولما كان لكل شيء نهاية فقد بلغت الزوجة نهاية المسعى ولم تترك وسيلة دون ان تتمسك بها في سبيل بقائها عند زوجها ولو كخادمة خوفاً من المصير الذي ستصير اليه بعد الطلاق من ذل وعار وعدم احتمال اهليا اياها ، ولم يترك زوجها هو الآخر اي مسعى من المساعي التي تقضي على فكرة الطـــلاق واقصائها من ذهنه دون اللجوء اليها فلم يوفق ، لأنه هو الآخر كان قد بلغ النهاية من سلم الصبر ، وتمّ الطلاق وحملت الزوج طفلتيها معها الى بيت اهلها واسدل الستار على الحادث كأن لم يتزوج احد لم يولد احد ، ولم يكن ثمة شيء .

* * *

وزفت للرجل امرأة جديدة ، وعلى رغم انقطاع صلة زوجه المطلقة به وعدم وجود اي رابطة تربطها به فقد احست هذه المرأة المطلقة بالنار تشب في قلبها ، فلا الماء البارد الذى تبل به صدرها من آن لآخر ، ولا المثلجات التي تلجأ اليها في كل ساعة ، ولا الآهات التي تصعدها من اعماق قلبها او الخوف ؟؟ ولا اي شيء مما يجري على البال بقادر على اخماد هذه النار المؤججة في قلبها ، ولم يكن ذلك من غيرة ، ولم يكن ذلك حباً لزوجها ، وانما هو الخوف ، الخوف على ابنتيها ان يكتب عليهما ان تكونا ذات يوم تحت رحمة هذه الزوجة ، على ان زوجها يوم طلقها قد سمح لهـا بأن تصحب ابنتيها معها وتستبقيهما عندها ما شاءت وما شاء الله بدون معارضـة منه او مداخلة فعلام هذا الاهتمام منها بعد ؟ وفيم كل هذا الهم والغم والخوف ؟؟

ولكن المرأة إذا خافت صعب أن يجد الاطمئنان الى قلبها طريقاً .

وشعرت المرأة في بيت أهلها بما كانت تشعر به فى بيت زوجها من صدوف ولكنه صدوف ناشىء من فقرهم أو ناشىء من احتقارهم اياها باعتبارها كانت زوجة غير ناجحة ، وقد ألحقت بهم من طلاقها بعض العار، او هو ناشيء من عبء ابنتيها واقلاقهما بعض راحة أهل البيت ، أو ناشيء من كل هذا معاً فاندفعت تبالغ في خدمة أهلها من جميع النواحي والجهات ، وتضاعف جهودها في السهر على راحتهم لتضمن لنفسها حياة راكدة ولا نقول هانئة ، وسارت مع اهلها كما كانت تسير مع زوجها وأبويه لتلاطف الجو على قدر ما تستطيع .

***

ولكل شيء نهاية كما قلنا من قبل وقد طفح الكأس منها ومن أهلها وادركت انه ما من شيء قد ساء ، ورنق ، ومر ، إلا بسبب هاتين الطفلتين وانه لولاهما لقلت على الأقل نفورة أهلها ، ولتحملوها بشيء من الغضاضة الصامتة ، فتأملت قليلا ثم حملت ابنتيها وهي في سورة من الغضب الجامح على اثر شجار عنيف حدث بينها وبين اهلها بسبب هاتين الطفلتين ، لقد حملتهما الى بيت ابيهما وفتحت باب البيت ثم ألقت بهما في الدار وردت عليهما الباب فلم تسمع إلا صرخة الطفلة الصغيرة التي حاولت أن تتعلق بأمها فحال الباب بينها وبين ذلك ، ولا يعرف الى كم ظلت الطفلتان تبكيان لأنهما لم تألفا أباهما بعد ولم تميلا اليه ، والى كم ظلت الأم تبكي لأنها لا تقوى على فراق ابنتيها . . . ! ! ؟

وفى ذات يوم ، وقد بلغ الشوق من الأم الى ابنتيها مبلغه العظيم ، فلم تجد غير ان تلتجيء الى جارتها يوم كانت زوجة ، وأم اطفال ، وطلبت المعونة من هذه الجارة أن تستدعي لها طفلتيها لتراهما وهي عندها فانها لا تطيق كل هذه الجفوة الاضطرارية وسرعان ما لبت الجارة طلب الأم ولكنها رجت هي الأخرى منها أن تخفي نفسها في احدى الغرف لتنظر الى ابنتيها من بعيد ودون ان تقرب منهما اذلك لأن

عودتها اليهـا وقد كادتا تنسيانها بعد هذه الفرقة قد تستلزم زمناً آخر لترتاضا على فراقها من جديد ، فوقفت الأم وراء النافذة والتفت بعباءتها ، ولم تخرج منها غير عينيها وبدأت تستعرض ابنتيها وهما واقفتان !! كأنهما يتيمتان دون ان تستطيع هذه الأم أن تعمل شيئاً اللهم إلا ان تجهش وان تسيل كلها دموعاً كالمطر ؟



ولكنها رجت منها أن تخفي نفسها في احدى الغرف لتنظر الى ابنتيها من بعيد

قصة ـ زواج بالاكراه

من ـ أولاد الخليلي

# أين تصنع المعروف

# أين تضع المعروف

ليس المعروف أن تجود بما لديك من مال ، وان تسخو بما تقدر عليه من مساع وأعمال، وانما المعروف هو أن تعرف مع من يجب ان تصنع ذلك واين ينبغي أن تمد يدك بالمعونة ؟ ومتى ؟ وإلا انقلبت تلك الحسنات الى سيئات وعادت على المتكرم المتفضل ، بالوبال والدمار .

كانوا جماعة وهم في زيارة صديق وقد تناول مجلسهم مختلف الأحاديث حتى جرّت المناسبة الى ذكر هذه الألوف المؤلفة من الشحاذين والمكدين والفقراء الذين يجوبون الشوارع ويطرقون البيوت استجداء للطعام والدراهم ، ويفترشون الشوارع والأسواق والمحلات العامة ليستثيروا نخوة المستطرقين ويهيجوا عواطفهم ويستلفتوا انظارهم الى ما يعانون من بؤس وشقاء تدل عليه سحنتهم الصفراء المكروبة ، وهزالهم وعاهاتهم وما هم فيه من عوز تحكيه ثيابهم الممزقة البالية .

واختلفت الجماعة في الرأي عن هـــذه الزمرة التي تعج بها مدن الشرق بصورة، خاصة واعتبرها البعض صوراً لا تستحق الشفقة لما قد انكشف من امرها، أما الآخرون فقد انكروا على رفاقهم هذه العقيدة ،وقالوا ان الانسان لا يرضى لنفسه مثل هذه الذلة ، لو لم يكن معوزاً حقاً، وانه ما كان ليقدم على تمثيل أشق الأدوار التي يستلزم بعضهـا ادامة البكاء والعويل ، والندبة لو لم تكن هنالك من الآلام التي تستوجب كل ذلك وتضطر الانسان اضطراراً الى البكاء والعويل والاستغاثة .

وطال هذا الاختلاف واستدل كل طرف بحكاية مما يعرف في تأييد رأيه فروى صاحب البيت القصة التالية :

قال : ـ « كنت شاباً وعلى ابواب العشرين، وكنا نقيم في قضاء (الشامية) وكانت الشامية يومذاك قرية صغيرة تسمى بأم البعرور وقد كنت الابن الوحيد بين ثماني بنات، فكان أبواي يحبوانني بشيء كثير من العطف والحنان، وكان أبي يدير حانوتاً لبيع بعض الحاجات والمؤون كالقهوة والتبغ والسكر والشاي وغير ذلك وكنت أنا أساعده في عمله، وكان أبواي شديدي الرغبة في زواجي ولكني كنت أفضل ان لا اقدم على الزواج قبل اطمئناني من استقلالي بالعمل، لاسيما وقد بدأ ابي يدلف نحو الشيخوخة، ولقد تمكنت من رأسي هذه الفكرة، فكرة الاستقلال بالعمل وفتح حانوت باسمي، فلم يكن بد من تدبير مبلغ يكفي ليكون رأس مال للعمل الذي يجب أن ابدأه في البلد، فاندفع ابي الى تهيئة المبلغ بكل جد واجتهاد، وقد كانت لأمي بقية من حلي باعها، وكان لديه مبلغ هو بمثابة الاعتبار والسند الذي يدعم به عمله عند الحاجة فأضافه الى ثمن الحلي ثم استدان من بعض الاصدقاء والارحام ما امكن ان يستدين . واستأجر لي دكانا بالقرب من دكانه، وسلمني ما جمع اوراقاً مالية ملفوفة في منديل كبير دسسته في صدري بين الجلد والقباء كما كان يفعل الكثير حينذاك ثم استقللت سفينة من هذه السفن الشراعية التي كانت هي الواسطة الوحيدة في ايام الاحتلال الانكليزي للعراق وما قبله بين مدن العراق النهرية وبين الشامية، والهندية، والسدة . وسرت ميمما بغداد .

وفي (سدة الهندية) وانا اهم بمغادرة السفينة سقط هذا المنديل الذي كان يحوي كل الذخيرة التي اعددتها للمستقبل في النهر، فصحت : دراهمي... وصفقت تصفيقة الخاسر، ولم يلبث ان تحفز احد الملاحين الى النهر وقبل ان يغوص المنديل الى الاعماق امسك به وجاء يسعى الي . . ! !

ترى ما الذي كان يكون ؟ لو ان هذا المنديل قد انغمر في الماء قبل ان يلحق

به هذا الملاح وينتشله من وسط التيار ؟ وما الذي كان يحل بأبي وأمي وبي انا من جراء هـذه الواقعة ؟ وبماذا كان يستطيع ابي أن يواجه الذين استدان منهم بعض هذه المبالغ . . . !

تصورت كل هذا في لمحة خاطفة فاذا بي امام مستقبل مظلم محفوف بالشقاء والذلة، ومشوب بالـكدر، يكتنفني انا وابي وامي واخواتي الثمان لو كان هذا المبلغ قد انجرف مع التيار وصار في بطن الغيب ، فحمدت الله وشكرته على نعمته ونفحت الملاح بهبة نقدية على سبيل المـكافأة ، ورحت كلما صعدت مصعداً او هبطت مهبطاً اضع يدي على صدري اتحسس بها موضع (الدراهم ) الملفوفة بالمنديل زيادة في الحيطة ومبالغة في الحذر .

وفي ثاني يوم من وصولي الى بغـــداد وحينما كنت اجوب السوق المحيط بخان ( دلّه ) لفت نظري عند مدخل السوق مما يلي احد الأزقة رجـــل استقبل الجدار كمن يريد ان يخفي وجهه حياء ، وقد اطرق نصف اطراقة ، وغطى ما قد يمكن ان يبين من وجهه براحة احدى يديه، وقد وقفت الى جانبه امرأة هي الاخرى لا يكاد يبين منها شيء فقد غـطت القبعة والعباءة هيكلها من اعلا قمـــة الرأس الى اخمص قدميها واطراف أصابعها . وكانت على رأس الرجل عمامة من تلك الانواع المطرزة بالخيوط الحريرية الصفراء والتي اعتاد التجار ان يلبسوها كشمار خاص بهم في بغداد وفي بعض الحواضر حينذاك ، وهي المسماة( بالـكشيدة ) وكانت فوق كتفيه عباءة صفراء فاخرة ومن النوع الـكرماني الذي لا يرتديه إلا المتأنقون فلا تـكاد تقع العين على هذا الرجل والمرأة اللذين سرعان ما يثيران حب الاستطلاع في نفس المار حتى تتسمر رجلاه فلا يقوى على التخطي شبراً واحداً قبل ان يعرف من هذا الرجل ؟ ومن هذه المرأة ؟ ولم يقفان هـذا الموقف الغريب ؟ وما هو شأنهما ؟ ومنذ كم وهما على هذه الـكيفية ؟ .

وألفيتني اقف منهما عن كثب وعيناي تتلصصان لتستطلعا وجوه المارة لعل

فيهم من يستطيع أن يكشف لي سر هذين الواقفين ، ولم يطل بي المقام ولم يحوجني الموقف للسؤال ، إذ ما كادت عيناي تدوران بعض الدوران ، ولم تكد حدقتاها تستقران في هذه النقطة من الجـــدار الذي استقبلها حتى مر من هناك شخص مروراً خاطفاً ، وفي نغمة حزينة وبصوت أقرب الى الهمس قرب مني والقى في اذني وهو يعبر الزقاق الى السوق هذه الكلمات : ـ لقد ألقاها بنبرة مؤثرة ، وبحرارة لا يمكن ان تنبعث إلا عن قلب حي مفعم بالعاطفة والايمان وها هي ذي كلمـــاته تفعل في نفسي فعل النار في الهشيم واكثر ـ فقد قال لي وهو يشير الى الرجل :

« انه تاجر وقد كان من كبار التجار فأفلس بين عشية وضحاها وهذه زوجته وليس لوجهيهما من جلد لمقابلة الناس والشكوى اليهم » ! !

لقد قال ذلك بشيء كثير من اللباقة والقوة وهو يعبر السوق في عجلة وخفة .

***

أرأيت كيف تتطاير الشرارة من الحديدة المحمومة المتلظية حين ينزل عليها الجداد بالمطرقة ضربة اثر ضربة ؟

هكذا رأيتني وقد أحسست بوجودي يلتهب من جميع الأطراف . انه حال لا يشبهه حال، لا سيما وانا وحيد ابوي من البنين وقد اعماني الدلال عن رؤيـــة الشقاء ملء العين والقلب ، وبعدت الراحة بيني وبين التاعبين المنكودين فلم أعرف بعد ما هو الشقاء ؟ وما هو لون العذاب ؟ وجالت في نفسي افكار لن تجول إلا في نفوس الشباب حين تجمح بهم العواطف فيندفعون بدون توان وبلا تأمل وبدون تفكير في شيء اسمه المستقبل .

وبأسرع من لمح البصر ، قلت لنفسي : لم لم اخرج المنديل وادفع بما فيه كله من المبالغ الى هذا التاجر الذي افلس ولم يطق ان يواجه الناس وجهاً لوجه ؟ لم لا أمد يدي الى المبلغ واناوله للرجل وأعود كأنني قد فقدت المال في ( سدة الهندية ) وفي أعماق النهر ؟ .

انني ان فعلت ذلك فسأدخل السعادة من جديد على عائلة ربما كانت احق مني بالحياة وقدقيل : « ارحموا عزيزقوم ذل » وأية ذلة اكبر من هذه الذلةالتي تستدعي حتى الزوجة ان تقف الى جانب زوجها منكسرة النفس حقيرة بائسة .

ودنوت من الرجل ، ووضعت في يده المدلاة الصرة كلها ، وقلت له :

ـ « ارجو ان تستعين بها على تدبير شؤونك » ومضيت .

وظللت في الخان الذي اقيم فيه اياما انتظر الوقوع على بعض المعارف الذين يؤمون بغداد من جهاتنا لعلي استعين بهم على العودة الى بلدى فقد كنت استدنت من صاحب الخان مبلغاً لا يجوز أن اترك بغداد قبل ايفائه .

وذات يوم وأنا اعبر ( الشورجة ) واذا بى الاقي التاجر المفلس وزوجته على تلك الحال التي رأيتهما قبل ايام عند مدخل سوق التجار ؟ والتي حملتني على ان افرغ في ايديهما كلما املك تحت سورة عنيفة من سورات العاطفة، ولمحت بالقرب منه الرجل الذى كان قد دنا مني قبل أيام و همس في اذني بتلك الكلمات التي اضرمت في نفسي نيران الشفقة حتى اندفعت الى ان اجود بكل ما املك دون ان احسب لمستقبلي الحساب المطلوب...!! ها انا ذا امام لص يعرف كيف يسرق المال بدون كلفة ، وبدون عناء ، فلا تسألوا عما حل بي من جراء مواجهة الحقيقة السافرة، ولا تسألوا عما وقع لي بعد ذلك ؟ وانما ارجو ان تقولوا لي هل كان الذى قمت به نحو هذا الرجل والمرأة من الصنع في شيء ؟ وهل مثل هذا جدير بأن يكون ضرباً من ضروب الاحسان ، ووجهاً من وجوه المعروف ؟ » .



فلا تكاد تقع عين المار على هذا الرجل والمرأة حتى تتسمر قدماه

قصة – أين تضع المعروف

من – أولاد الخليلي

# ابو علي

# أبو علي ..
# يابو علي

---

وأبو علي هذا رجل مرح ، فكه ، خصه الله بكثير من الصفاة التي تجعل منه رجلا طيعاً ، ليناً ، بارد الطبع ، هادىء الاعصاب ، اما إذا نام فقدتستحيل كل هذه الصفات الى استسلام عجيب للنوم وشيء من حدّة المزاج اذا ما أريد ايقاظه . لذلك فكل أهل البيت يتحاشون ايقاظه من نومه، فهم يسعون - اذا ما اضطروا الى ايقاظه لامر من الأمور- بشيء كثير من التوئدة ،والرفق ،ودلك ظهره ،ونخذيه دلكاً يجعل دورة الدم تسرع اكثر من المعتاد فيتحرك رويداً رويداً ثم يتثاءب ويظل يتقلب من اليمين الى الشمال أو من الشمال الى اليمين ثم يطلقها آهة طويلة ويفتح عينيه ولربما فعل كل هذا حتى يوشك أن يهب من فراشه فاذا به يعود لينام ملء عينيه من جديد .

وجاء شهر رمضان ، وشهر رمضان - كما ينبغي أن - يكون شهر الطاعة،والرحمة والسمر، والحلاوة ،تموت فيه الحزازات عندما يفهم الصائمون قدره،أو تنام نوم ابي علي الى اجل ،وتكثر الزيارات بين الأسر والارحام والاصدقاء ، ويتناسى الصائمون مشقة النهار فيما يتعاطون ليلا من لذائذ المأكولات وأطايب الفكاهات وتستحيل أغلب الافران الى معامل لصنع (الزلابية) و(البقلاوة) و(شعر البنات)،وهذه الاصناف الثلاثة من ابرز خصائص هذا الشهر التي تزيد حلاوته في الافواه ، فاذا صلى الناس صلاة

المغرب وفطروا وانتهت صلاة العشاء وفرغ البعض من تلاوة بعض الأدعية اتجهت كل طائفة لتأخذ نصيبها مما تميل اليه ، ومما يمتزج بروحهـــا . وابو علي مع كل هؤلاء في الطليعة ، يؤدي الصلاة على أتم وجه ، ويطوى الأرض فيزور في ساعتين وأقل من ذلك نحوعشرة بيوت واكثر، ويأكل في كل مكان- يتاح له أن يأكل فيه- اضعاف واحد في مثل حجمه ،ووزنه،وعمره،ويطلقها تجشئة، وثانية ،وثالثة يرن صداها في الآذان فاذا ما عاد الى بيته التي بنفسه في فراشه وراح يغط في نوم كنوم أهل الكهف . .

وشهر رمضان - كما قلنا - شهر المرح واللذة والسرور، ولكنه عند كثير من الناس شهر الغضب والخصومة ، وأبو علي المرح الفكه لا يسلم من تيار هذا الغضب خصوصاً إذا حان وقت السحور وهمت زوجته بايقاظه ، واذا كان الجزع من العطش والجوع ينسي بعض الناس حرمة رمضان فيبلغ به ان يكون شرساً بالنهار أوشبه شرس فان الشراسة لا تعدم طريقها الى نفس هذا الرجل الظريف حين يريدون ايقاظه ليلاً ليتناول السحور .!!

ويستحيل هـــذا الدعوب الفكه الى رجل غضوب ، متمرد ، هائج ، عندما تدنو منه زوجه لايقاظه .

ولقد ألف الجيران جميعاً صوت امرأته وألفوا نبرتها ، إذ يسمع أغلب البيوت صوتها عابراً من فوق السطوح على رغم هدوئه ورقته وهي تناديه : « ابو علي ، يابو علي - ابو علي يابو علي » وتظل تناديه حتى يتنحنح ،وفي هذه الاثناء يجب أن تبتعد المرأة عنه بعض البعد لتأمن شر الركلة والضربة والشتائم التي لم يدر من أين يجيء بها فقد يصبها في قوالب عجيبة غريبة ويستعير لهـا من الالفاظ والمعاني ما يثير الضحك لو أن الموقف كان موقف ضحك ، وابو علي يعلم انه في كل هذا يخالف نواميس شهر رمضان وطقوسه التي تطلب منه أن يكون عاطفياً ،مرحاً ،سموحا اذا كان مجبولا على الخشونة . فكيف به وقد خلقه الله لطيفاً رقيقاً حلو الحديث

والشمائل فضلا عن انه مؤمن بالله ورسوله ، ومن شروط المؤمن أن يكون هشاً بشاً .

لقد كان يعلم بما ينبغي أن يكون عليه لكي يتقبل الله صومه منه فسعى بكل ما فى وسعه ليكون خفيف النوم سريع الانتباه بمجرد سماع بطن القدر يحك ليفرغ من آخر حبة عالقة به من الرز ، فقد قيل له ان كثيراً من النائمين لا يحتاجون الى منبه لايقاظهم ، إذ لا يكاد يرتفع صوت القدر وهو يحك كما هي عادة البيوت عند افراغ الطعام من القدور إلا ويهب هؤلاء فاذا بهم حول المائدة بلا أقل كلفة وزحمة . ولكن ابا علي لم يفلح ، وسعى أن يستيقظ على أصوات الطبول التي تدور في الأزقة ، تلك الطبول المصحوبة بتلك الاصوات الجهورية التي تنادي : « يالنائمين اگعدوا ، ساعة بالسبعة إلا ربع اگعدوا » فلم يوفق ، وجرب كثيراً من الوسائل كاستعمال منبه قوي من ساعة كبيرة وضعها على مسافة عشرين سنتمتراً وأقل من ذلك فلم يجده شيئاً .

نعم انه كان ينتبه ، ولكنه كان يحس بثقل لا قبل له بدفعه إلا بطريق النوم فاذا حاول أحد أن يحول بينه وبين النوم هاجت أعصابه ، وتغير مزاجه ، فيندفع الى ازالة هذا الذي يريد أن يحرمه من لذة نومه بكل وسيلة تخطر على باله من لكم ورفس ، وشتم قد يتجاوز الحد ويكون مقذعاً ثم ينام ...!!

وفي الصباح يذكر كل ما مر عليه بشيء كثير من الندم فيخجل ويتأفف ويود لو ان الأرض قد ابتلعته ، وقد سبب له هذا المزاج ان يصوم اكثر من نصف الشهر بدون سحور فيقضي بعض ذلك النهار غاضباً ، حانقاً ، هائجاً ، بحيث قلما تسلمت زوجه واولاده من اذاه . .

ومع ذلك فقد كان بين ابى علي والكثير من الصائمين بعض الفرق ، والفرق هذا هو أن مجرد الصوم هنا ولا سيما عند البعض من طبقة الباعة وأرباب الحوانيت يخرجهم على القواعد المرعية فى المعاملات اليومية فاذا بالوجوه متجهمة مكفهرة كالحة ، واذا بالألسن تنطلق في كثير من الأحيان من عقال الآداب والمجاملة

فتكون اشبه بالمناشير منها باللحم والأعصاب كل ذلك لأنهم صائمون ! ! وان لهم على الله منّة في صومهم يجب أن يذكرها لهم الله بالشكر والثناء ... ! !

أما ابو علي ، فيختلف عن هذه الطائفة في الاسباب والعلل فهو لم يهج إلا لأنه يشكو مرضاً عصبياً يتركز كله في نومه ويقظته المزعجة ، وإذا لم يشأ اولئك المانون على الله بصومهم أن يعترفوا بعيوبهم هذه فان أبا علي سرعان مايثوب الى رشده ويقر بأنه مريض وان صومه وصلاته وعبادته قد تذهب من جراء مرضه هـذا هباء بدون جدوى وانه يعترف بأن مثل هذا المزاج مما يخل بحرمة شهر رمضان فرمضان لم يأت إلا للمغفرة ، والرحمة ، وحب الخير ، وان من علائم هذا هو الانطلاق والبشر والتسامح ، واين هو من هذا الانطلاق والبشر والتسامح ؟ لذلك لم يقصر في طلب العلاج حتى عند الاطباء وحتى عند كتاب الأدعية والمنجمين وحتى عند من يزعم الالمام بعلم النفس فلم يفد من ذلك شيئاً ولم يستقم أمره .

وذات يوم من ايام رمضان عاد أبو علي من السوق الى بيته ولم يكن قد تناول طعام السحور في الليلة البارحة ولا التي قبلها عاد الى البيت فلم يلف زوجه حاضرة فهاج . وكان من هياجه انه استقبلها عند الباب وقد جاءت من زيارة أمها فقال لها: انت طالق . وما كان من المرأة إلا ان انزلت البرقع على وجهها ، ثم اشاحت عنه وانسلت عائدة الى بيت أمها وما كان من اولادها إلا أن وقفوا واجمين لا يدرون ما الذي يجب ان يفعلوا .

ولقد اصبحت المرأة طالقاً بكلمة واحدة سواء كان مبعثها مزاج أبي علي الخاص أو الغضب الذي يبيحه بعض الناس لأنفسهم بحجة صومهم ، فالمرأة طالق ويجب على الرجل أن يعيد زوجه اليه من طريق الشرع حين يدرك خطأه ، وقد ادركه في التو وحمد الله ان جاءت الطلقة واحدة ، وإلا فقد كان يكون الطلاق خلعياً حينذاك . وكانت الزوجة تعلم انها ليست أول امرأة يطلق عليها الزوج كلمة واحدة فتبين . بل ان لها من النظيرات عدداً كبيراً ولا سيما في شهر رمضان

المبارك الذي قد تبلغ الشراسة بالبعض من الصائمين حداً اهون على الشريعة فيه الخروج من الدين ولا مثل هذا التجاوز . لقد كانت الزوجة تعلم بشيء كثير من هذا ، فعادت الى زوجها حين رجعنها ، وظل الزوج يفكر في نفسه طويلا ليهتدي الى علاج شاف يقفه عند حده، وأخيراً هب مرة واحدة كما هب ارخميدس صائحاً لقد وجدتها ، لقد وجدتها .

قالت الزوجة ـ وما الذي وجدت ؟

قال ـ العلاج .. فلن تجديني بعد هذا إلا وأنا أخف الناس نوماً ، وادفأهم فماً ، واحلاهم كلاماً ، فاذا ما حان وقت السحور فتعالي بقليل من مسحوق النشوق (البرنوطي) القوي ،وذريه في انفي ، وانفخي فيه ليصعد الى أعلى المنخرين ثم سجلي نتائج هذا الاكتشاف . . .

وكان كما قال ، فلا تكاد الزوجة تضع السعوط في انف الرجل وتنفخ فيه إلا ويبدأ العطاس عطسة بعد اخرى فينتصب الرجل قائماً ويسرع الى الحنفية ليغسل آخر ما علق بأنفه من ( البرنوطي ) ثم يجلس حول مائدة السحور وهو يضحك .

وعلى مرور الايام لم تعد به حاجة ماسة الى البرنوطي، وحسب المرأة ان تدنو من زوجها لتناديه ( أبو علي ، يابو علي ) فيهب وهو فى خوف من النشوق مجيباً بغاية السرعة بلي. بلي. بلي. بلي . . حتى لقد صار موضوع ندائه وجوابه موضوع فكاهة لابنه الصغير الذي راح يناديه كلما رآه يهم بالنوم وهو يشير اليه بعلبة البرنوطي قائلا : « ابو علي يابو علي » فيجيبه الأب على سبيل المزاح : ( بلي . بلي . بلي . بلي ) .



عاد الى البيت من السوق فلم يلف زوجته حاضرة فهاج . . .

قصة ـ أبو علي يابو علي

**من ـ أولاد الخليلي**

# لکشمی

# لكي تنسى

---

قال الزوج ـ : احسب ان فى هذا الكفاية : أن يكون لنا ثلاثة بنين كثمرة للزواج السعيد ، فان الزمان قد تغير ، وان التربية الحديثة صارت تكلف كثيراً من النفقات والعناية والاهتمام ، بحيث ان المال وحده لا يمكن ان يقوم بمهمة التربية ، وان هنالك أموراً تتطلب من الأبوين تضحية كبيرة من الوقت والتدبير لكي ينشأ الأولاد نشأة طيبة مباركة .

قالت الزوجة ـ ولكني اريد ان تكون لنا ذكرى طيبة من اولادنا نختم بها عهد الزواج ، انني أريد بنتاً ، بنتاً أنهي بها عمل الولادة واتخذ منها رمزاً لزواجنا السعيد ، خصوصاً واننا لا نتكلف كثيراً اذا كان أولادنا اربعة ، إذ ليس الفرق كبيراً بين الثلاثة والاربعة .

قال الزوج ـ ولكن من يضمن لنا ان يكون رابع أولادنا بنتاً ؟ ثم لم لم نجعل الاولاد الثلاثة كلهم ذكرى هذا الزواج ؟ ولماذا نختم عمل الولادة بالبنت ولا نختمه بصبينا الثالث الصغير ؟

قالت الزوجة ـ : هي رغبة لا تستطيع أن تقلل من قيمتها فى نفسي بالمنطق ، وهي أمنية لا يعرف أهميتها أحد إلا الذين يتتبعون ويدرسون أماني المرأة التي يكون كل أولادها بنيناً وليس بينهم بنت واحدة ، انني أرجو من الله أن يمن عليّ ببنت املأ بها فراغ نفسى ثم لنعمل بعد ذلك على تحديد الولادة والوقوف بها

على رأس هذه البنت التى ارجو ان تـكون لطيفة خفيفة ، خصوصاً وان البنت ألصق بأمها منها بأبيها وهي على خـــلاف جبـلة البنين ، وان نفسي لتهفو الى بنت تلصق بي وتـكون الذكرى الشذية العاطرة لهذا الزواج السعيد ...!!

قال الزوج ـ فاذا اسفر الحمل الرابع عن ولد فما العمل ؟

قالت ـ ارجو ان لا يكون كذلك .

قال ـ فاذا كان ؟

قالت ـ أسأل الله أن لا يكون . . ! !

* **

ومضت سنة وبضعة شهور على هذه المحاورة بين الزوجين حملت فيها الزوجة ، ثم وضعت حملها فاذا هو بنت كما أحبت ، وإذا هي جميلة كما توقعت ،أو اكثر مما توقعت ، وراحت الأم تغدق عليها كثيراً من الرعاية والعناية ، ووجد الأب فيها سلوة جديدة لم يجدها في بنيه من قبل ، فراح هو الآخر يستلطفها ويستخفهـــا ويعطيها من نفسه منزلة خاصة واعتبرها خاتمة الذكريات السعيدة لزواجه واتخذ الابوان كل الطرق الطبية والفنية لايقاف الولادة فوقفت حيث شاءا .

* * *

وكان الابوان يحسنان تربية بنيهما ويتقنان أساليب التنشئة اللازمة للولد والبنت اتقاناً قد يكون جيداً فراحا يهيئان كل اللوازم لهذه البنت كما قد هيئاها للبنين الثلاثة من قبل واكثر ، ذلك لأن البنت الوحيدة بين الاولاد تكون أثيرة عند أمها وعند أمها وأبيها معاً على الغالب ؟ ثم لأنها صارت الخاتمة الطيبة ، وصارت كصيغة منتهى الجموع ، وقد سميت ( خالصة ) مراعاة للمعنى الشعبي العراقي الذي يعني بالخالص ( النهاية ) ، ولم يشأ الابوان أن يسمياها ( نهاية ) حباً بالتفرد ، وتيمناً بمعنى الخلاص ، الخلاص من كل شائبة ،ومن كل هم ،وغم ،ومحنة ، فأعدا لها دمى

مختلفة الاشكال والصور والانواع ، وأعدا لها كما يقتضى لبنت يريدان لها التهذيب والأدب من لوازم لهذه الدمى ولنفسها حسب السنين ، فما تخطو خطوة حتى تتسع مع خطوتها دائرة ألعابها ومقتضيات هذه الالعاب من مطبخ صغير وأواني للمطبخ ،ودواليب،وخزانة ألبسة صغيرة من التنك أو ( الفايبر ) ، وأسرة للدمى الصغيرة ،وبيوت من الخشب والورق ، الى غير ذلك مما يمكن أن يجعل من ( خالصة ) بنتاً ذات قابلية فى حياتها العملية ، وما كادت تتجاوز السادسة وتبدأ المرحلة الاولى من الدراسة الأولية حتى استلفتت اليها الانظار في مواهبها الجسمية والذهنية وما حباها به الله من خصال كانت بحق خير ذكرى للحياة الزوجية السعيدة .

* * *

وكانت لهذا البيت خادمة شابة ظهر منها أثر من خيانة الأمانة فى المأكول والملبوس ، ولكنه أثر لم يثر اهتمام البيت ، وقد تقبلوا ذلك منها على أساس الجهل الذي يجب ان يعالج بنوع خاص من الاعراض حتى تتولى الايام اصلاحه بنفسها ، ويظهر ان الفتاة كانت مجرمة بالوراثة ، والجريمة بالوراثة أشد انواع الجرائم واخطرها ، وآخرها في مرتبة امكان الاصلاح والمعالجة ، فمدت يدها ذات يوم وبمعونة أخ لها من خارج البيت فى سرقة خطيرة تنبّه لها أهل البيت ويئسوا من اصلاحها فكان جزاؤها الطرد .

* * *

ومرت على طرد الخادمة سنة لم يستقر فيها قرارها وليس ذلك عن ندم أو تقريع للنفس ، وانما لم يستقر قرارها لكثرة ما قلّبت من وجوه وافكار لكي تنتقم من هذا البيت الذى لم يتسع لها فيه أن تقيم اكثرمما اقامت وهي تسرق وتنقل ماتسرق الى امها وأخيها ، وقد استعرضت الخادمة كما تقول هي نفسها جميع انواع

الانتقام فلم تجدها صالحة او لم تجد الطريق الى تنفيذها هينة ميسورة !!

* * *

وبعد سنة ، وبعد سنة كاملة مرت الخادمة قبيل الغروب على بيت ( خالصة ) فالفت البنت على الباب تستعرض المارة وتنشد السلوان فيما تستعرض ، فاذا بالفكرة ، فكرة الانتقام تقفز من ذهن الخادمة الى عينيها ولسانها فتستحيل كلها دموعاً وعواطف حب ومودة تحبو بها ( خالصة ) وتستدرجها وتمشي بها لتعبر الشارع وتتنزه وتسألها عن حالها ، وحال اهلها ، وعن ألعابها ، ودماها ، وما زاد فيها وما نقص منها .

وأنست ( خالصة ) بالخادمة ، وذكرت أيامها السالفة ، وانها طالما لاعبتها وشاركتها في كثير من العابها من تهيئة ملابس ( الدمى ) ، وغسل اوانيها الصغيرة ومشاطرتها كثيراً من خواطرها العذبة الجميلة ، فاستعادت برؤيتها اياها كثيراً من الذكريات الحلوة وتبعتها اليفة غير مذعورة ، ورافقتها مأنوسة غير ضائرة ، حتى اذا دنت من نهر دجلة وفي موقع يتجنبه السباحون الماهرون لخطورته عمدت الخادمة الى ظهر البنت وبدفعة من الدفعات القوية المشبعة بروح الانتقام ألقت بالبنت في النهر متخذة من الظلام الذى كان قد عم في تلك الساعة ستراً لها ولزمت طريقها الى بيتها وولت وهي أكثر ما تكون هدوءاً لأنها عرفت اية ذكرى مريرة ستخلف في القلوب بدلا من تلك الذكرى الحلوة العذبة التي كانت تخلفها ( خالصة ) لو كتب لها أن تعيش !!

* * *

ومرت ايام وأهل البنت والأصدقاء والمعارف في بحث متواصل عن (خالصة) ، واهتدى التحقيق – الذي قامت به الشرطة – الى ( الخادمة ) وقبض عليها ، واعترفت ودلت على موقع الجريمة ، وكان شعر الطفلة قد التف حول جذور بعض الأشجار في قاع النهر فاستخرجت الجثة من النهر ضحية لأفظع أنواع الانتقام !!

ودارت الام بعينيها الى أطرافها ، لقد وجدت فى كل ركن ، وفي كل زاوية وفي كل مكان ، أثراً ( لخالصة ) ولقد كانت تريد فيما مر أن تكون ( خالصة ) الذكرى السعيدة لهذه الدنيا المفعمة بالأماني والآمال، دنيا الزوجية والاطفال، فاذا بكل شيء هنا يذكرها بخالصة ، واذا بخالصة تصبح بين عشية وضحاها ذكرى مريرة قاسية تبيد الذكريات وتفنى وهي راسخة رسوخ العقيـــدة في رأس المؤمن .

وان العبرة والعظة ، وفلسفة الآلام ، والقصص المفجعة ، لتلح على الأم وتكثر من إلحاحها عليها بأن تنسى،ولكن كيف تصغي وتصيخ الى هذه العبر والمواعظ؟ وكيف تستطيع أن تنسى؟ وهذه الدمية التي اقتعدت ذلك الكرسي الصغير تذكرها بأن الذى أقعدها لم يكن غير ( خالصة ) ، وهـــذه الكراسي الصغيرة المصفوفة فى الحديقة الصغيرة التي تحوط بالبيت المصنوع من الورق ، والسلك الدقيق الممتد بين أشجار هذه الحديقة كأنه سلك كهربائى مدّ لاضائة تلك الاشجار المصطنعة تشير الى أن خواطر وافكاراً ،وتصورات،ونوازع نفسية ظاهرة كانت تجول فى نفس تلك الطفلة وتطوف بهذا المغنى من البيت والحديقة ، وان ملابس البنت وآثارها من اربطة،وشرائط،وازرار ،ودفاتر،وأقلام لتذكر الأم بدنيا عاجة بالذكريات ، مفعمة بالقصص والاخبار عن ابنتها- كيف كانت تلبس ؟ وكيف كانت تعمل؟ وكيف كانت تحكي – فتستسلم الأم للبكاء وتبكى ما شاء الله أن تبكي .

لقد كانت تريد من ابنتها أن تكون ذكرى أمل عذب وأمنيات حلوة فكانت ذكرى ألم مرير وشقاء حالك .

* * *

وأم خالصة عاقلة ، ولكن العقل شيء والعاطفة شيء آخر ، وأي عاقـــل

استطاع أن يعيش بعقله لتستطيع الأم، ولا سيما أم كهذه، أن تعيش بعقلها فتسد طريق الدموع والآهات ؟ وكلما تستطيع الأم العاقلة أن تعمل ، هو أن تبحث عن احدى الوسائل التي تنسيها فجيعتها بعض النسيان ، وتخفف عنها آلامها بعض التخفيف ، حتى اذا مرت الايام وتوالت تكفل طول الزمن ان يزيد حجاب النسيان كثافة و أن يبعد الذكرى المريرة عن العين والخاطر كل البعد .

وقد عملت أم خالصة ذلك فراحت تجمع كل آثار الصبية من هنا وهناك في كيس، كبير وتقلع من الحيطان كل أثر من صورة، ومسمار، وسلك فتلقي به في وسط الكيس ، ثم حمل الكيس الى حيث ارادت أن تنسى ، لقد حمل الكيس الى ذلك الموقع السحيق من النهر ، الموقع الذي انفرجت مياهه فابتلعت ( خالصة ) الطفلة النقية الطاهرة .

والقى الكيس في اليم بمشهد من الأم لتدفن في النهر آخر ذكريات تلك البنت الجميلة الحلوة ، وعادت الأم وهي تحسب انها ستنسى كل شيء من ( خالصة ) ومن أمر ( خالصة ) انها ستدنو من السلوان يوماً بعد يوم ، بعد أن دفنت تلك المجموعة من الذكريات الحلوة العذبة في اعماق الغيب ، كما دفنت ( خالصة ) ، ولكن ما كاد يبتلع النهر ذلك العالم الزاخر بالأماني والاحلام من تلك الدمى ، التي كانت تلبسها خالصة في ايام العيد ، والايام الاعتيادية وكلما كانت قد أعدته والعيدان ، والثياب ، والمناديل ، والاحذية للمدرسة من حقيبة ودفاتر وأقلام .

أجل ما كاد يبتلع النهر ذلك الكيس ويرتد طرف الأم حتى انتصب أمام عينيها شبح أشد ايلاماً على نفسها من تلك الاشباح ، لقد تراءى لها شبح ابنتها في وسط النهر وهي تتسلم هذه اللعب والملابس والدمى فتحتضنها بشيء كثير من المرارة والألم .

لقد أرادت الأم أن تنسى حين لجأت الى القاء هذه الآثار في النهر فاذا بها

تنعكس عن ذكريات لاذعة ، ووخزات مبرحة ، وشبح لا يغـدو ولا يتزحزح ، شبح يقول لها ان ابنتها قد غاصت هنا وغاصت معها آثارها .

يا ويلها لقد عملت كل شيء لكي تنسى ، فاذا بها عملت كل شيء لكي تذكر ! ! ؟



دنت من نهر دجلة وبدفعة من الدفعات القوية المشبعة بروح الانتقام

قصة ـ لكي تنسى

من ـ أولاد الخليلي

# أيتهما أحق بالزواج

# أيتهما أحق بالزواج

لم كل هذا العناد والصرامة يا أم أحمد ؟ انها خطيئة لن تغتفر ان تظلي حائلة بين البنت ونصيبها .

قالت ـ وأي عناد ؟ واية صرامة ؟ لقد قلت لكن انني لن ازوج ابنتي الصغرى قبل الكبرى ؛ وهذا ما يفعله الجميع ليس في مدينة البصرة وحدها بل وفي جميع مدن العراق .

فقالت احداهن ـ أبائعة لحم انت يا أم احمد لكي تحتفظي بقسم من الجيد تعرضينه على الانظار ثم تبيعين الردئ، مدسوساً فى طياته ومخلوطاً به ؟

فمطت أم احمد شفتيها فيما يشبه حالة المستهزئ، وقالت :

ـ ما اظلمكن وابعدكن عن الحقيقة ؟ ! أفمثل مريم هذه البنت المهذبة المؤدبة تكون لحماً رديئاً لا يمكن ان يباع إلا بجانب اختها الصغرى ( بهية ) ؟

أما والله لو كانت غيركن التي قالت هذا القول لما وطأت لي قدم موضعا من بيتها بعد اليوم . . .

فردت عليها صاحبتها معتذرة ، وساندتها بقية النسوة ورحن يحبكن الاعتذار وينمقنه ثم يوجهنه توجيهاً حسناً مطريات مريم بأحسن الصفات ، وناسبات لها كل ما افتقدته من زينة وملاحة وجاذبية اختصت بها اختها الصغرى ( بهية ) .

قالت الأم ـ فاذا كنتن تعرفن كل هذه المزايا لمريم ، فلم لا تخطبنها لفتاكن؟ ولم تقصرن الخطبة على بهية وهي الأخت الصغرى ولا تخصصن بهـا مريم وهي البنت الكبرى الكاملة الانوثة ؟

قالت أم الفتى ـ ولكنها القسمه ( إجچي بالقسمة يا أم احمد ) ولا ينبغي أن أن تردي النصيب بمثل هذا الرد .

قالت ـ ليست هذه أول خطبة تقدم بها الخاطبون الى بهية وردوا مني ومن أبيها بالرفض ، ألا فليعلم الجميع انني لن ازوج ابنتي الصغرى قبل الكبرى ولا أخدش لمريم عزة نفسها في أية حالة من الأحوال .

* * *

والحق انها لم تكن أول خطبة تقدم بها الخاطبون الى ام احمد لطلب يد ابنتها الصغرى ، بل سبق هؤلاء عدد غير قليل من الرجال والنساء ساعين بكل مجهودهم ، ومتذرعين بمختلف الوسائل ، وكان بين اولئك الخاطبين المهندس ، والصيدلي ، والتاجر ، والموظف ، يحفزهم الى ذلك ما امتازت به بهية من ملامح جذابة وجمال مطبوع ، ومعاني تتجلى في قسمات وجهها المشرق .

ولم تكن مريم بالقبيحة ، ولا بالدميمة ليرغب عنها الخاطبون ولكن وجود بهية الجميلة الى جانب مريم ليصد الانظار عن مريم شاءت أم احمد أم لم تشأ ، ولو تزوجت بهية لما عدمت مريم على أغلب الظن خاطباً يتقدم اليها ، ولكن هكذا شاءت الظروف أن تصبح كل واحدة للاخرى بمثابة حجر عثرة في طريق الزواج ، وقد ركب الأم العناد جرياً على العرف المتبع في عدم تزويج البنت الصغرى قبل الكبرى فصممت الأم ـ وطالما صمم قبلها المئات من امثالها من الامهات ـ لقد صممت الأم على ان لا تزوج بهية قبل مريم حتى ولو كان الخاطب هو السوبرمان والجنتامن والگودمن ، وكل مركبات هذه (المان) المحبوبة

* * *

ويئس الواقمون في حب ( بهيـة ) ، وسئم المنتظرون لعرس مريم ، ليتم لهم الظفر بأختها ، ومل الخاطبون من كثرة الذهاب والأياب ، وقد مر اكثر من عشرين سنة وهم يخطبون ويلتمسون بشتى الوسائل والأسباب اقناع أم احمد فلم

يفلحوا ، وقد تجاوزت البنت الكبرى الاربعين واوشكت الصغرى ان تتجاوزها وأم احمد حيث كانت لا تحيد عن موقفها ، ولا تعدل عن رأيها ، وقول أم احمد ورأيها هو الفصل قبل ان يموت زوجها ابو احمد فكيف وقد مات منذ عدة سنوات ! ؟

* * *

ولكن ما بال هذه الشخصية ، شخصية أم احمد التي كان يذوب امامها أقوى الشخصيات ، ما بالها بدأت تضعف في الايام الاخيرة حتى صارت لا تقوى على أن تقول لاحدى ابنتيها ان تسكت لتسكت ، ـ كما كانت تفعل اولا ـ وتقول لها ان تقوم فتقوم كما كانت تصدع بالأمر من قبل ، وبدأت الدنيا تضيق في عينيها من جراء ما تسبب لها ابنتاها من ازعاج وأذى ، وهيـاج عصبي ، وثورة جامحة كثيراً ما حملتها على الصراخ في وجه ابنتيها والدعاء عليهما بالويل والثبور وذلك لكثرة ما كان يحدث بين الأختين من اختلاف ونزاع لأتفه الامور ولأبسط الحوادث، بل لربما بلغ الجزع بالأم ان تمنت من الله أن يأخذها اليه لتستريح ولكنها سرعان ما تندم حين تذكر ان تمنّيها هذا سيكون وبالا وشقاء لابنها العزيز احمد ولابنتيها مريم وبهية فتستغفر الله وتستعين وتسأله الهناء للجميع .

واطردت أيام الجزع الذي يسببه نزاع الاختين باطراد الايام وتعدى الازعاج حدود بيت ام احمد الى بيوت الاسرة فاستدعى الاختلاف بين البنتين الى تدخل الاسرة لحل النزاع وتهدئة الخاطر غير مرة ، وبدت الدنيا كالجحيم في عيون سكان هذا البيت وحتى في عيني احمد الذي يدرس الطب بعيداً عن أهله ببغداد

ولقد أحس حتى البعيد فضلا عن القريب من الجيران والاصدقاء بأن الوضع في بيت ام احمد غير طبيعي وان الحالة تزداد وخامة من يوم لآخر ، وانها اكثر من كونها اختلافاً بين ام وابنتين أو بين اختين كانتا قبل بضع سنوات واكثر مثلا أعلى للوئام والوفاق والمحبة والمودة .

وفى هذه السنة عاد احمد الى اهله من بغداد ، عاد ليقضى عطلته السنوية في البصرة كما هي عادته ، ولم يكد يمر اسبوع عليه حتى رأى ان الانسجام بين أختيه اكثر مما يسمى مفقوداً ، وهو وإن لم ينل بعد شهادة الطب ، ولكن فهم مثل هذه الأعراض ليس فوق مقدوره ، فهو يستطيع أن يشخص بسهولة ان بهية تعاني مرضاً عصبياً يشتد حيناً ، ويخف حيناً آخر ولا يبعد أن يكون هذا المرض قد لازمها منذ زمن طويل دون ان يلتفت الى ذلك أحد .

وقوى الشك في نفس احمد حين سمع بهية تتحدث الى نفسها قائلة :

ـ انني سأتزوج بالرغم من مريم ، وسأحرمها حتى حضور حفلة العرس ، وإذا مانعت أمي زواجي فسأطردها هي الأخرى من حفلة العرس . . ثم انفجرت باكية . حتى ذهبت كل الوسائل لتهدئتها عبثاً .

لقد سمع احمد ذلك وسمع اشياء أخرى اشبه بالهذيان ، ورأى غضباً في غير محله وهياجاً يكاد ينقلب الى ثورة جامحة مخوفة ، فقرر أن يستعين بأحد الاطباء الاخصائيين بالامراض العصبية ، وفي أقل من بضعة أيام علم الاصدقاء والأقرباء ان بهية تعانى مرضاً عصبياً دورياً ، وان هذا المرض قد ابتدأ منذ زمن طويل في شكل ضجر ، ثم غضب ونزاع ، دون أن يتبينه أحد ، ثم ما لبث أن ظهر واختفى ، واشتد وخف ، حتى استقر على حالة لمحها أخوها اول من لمح .

وقال الطبيب الاختصاصى وهو يخاطب أم احمد :

قال ـ انه العرف الفاسد الذي تمسكت به ياأم احمد والذي اوحى اليك ان البنت الصغرى لا ينبغي أن تتزوج قبل الكبرى ، وان الكبت ـ كبت الغرائز ان تأخذ مجراها الطبيعي فى الحياة ـ هو الذي حوّل محبة الاختين الى عداوة ، وهو الذي جعل مريم تمتليء حسداً لبهية التي خصت بعدد من المزايا ، وجعل بهية تمتليء حقداً على مريم التي حال وجودها دون التمتع بنصيبها من الحياة الزوجية .

انها العرف والكبت اللذان حطما منك تلك الشخصية القوية الفعالة التي كنت تتمتعين بها ، وان من الكبت ما يخلق ألف مشكلة ومشكلة .

* * *

واعترفت أم احمد بالخطأ ، ورضيت أن تقدم ابنتها بهية لأول خاطب يتناسب شأنه وشأن بنتها بدون أي قيد أو شرط ، ولكن من ذا الذي يتقـــدم الى خطبة بهية ؟!!

ان احداً لا يتقدم الى خطبة بهية ، لا لأنهـا قد تخطت الاربعين وجاوزت السن التي يحلو معها الزواج فهي لا تزال كفلقة القمر ، بل لأن بهية لا تزال على رغم ما احيطت به من عناية وحسن معالجة ، ان بهية لا تزال في كل يوم تجلس حيث يحلو لها المجلس وتكرر بشيء من الغضب المزوج بالضحك مرة وبالبكاء اخرى قولها :

« سأطرد مريم شر طردة من حفلة زواجي ، وسألحق أمي بهـا وكل من تسول له نفسه أن يقف حجر عثرة في سبيل الزواج »

وحين يقولون لها وهم يحاولون تهدئة خاطرها : انها ستتزوج وان ليس هنالك من يحول بينها بعد وبين الزواج ، انهم حين يقولون لهـا ذلك بناء على وصية الطبيب ونصيحته ، تدس وجهها وتبكي ما شاء الله أن تبكي قائلة :

ـ لا . لا . لا . ان البنت الكبرى أحق بالزواج من الصغرى ؟



لا . لا . لا . ان البنت الكبرى أحق من الصغرى بالزواج

قصة ـ أيتهما أحق بالزواج

من ـ أولاد الخليلي

# مِنَ الدَّساكِرِ إلى العاصِمَة

# من الدساكر الى العاصمة

نزل الزوجان بجوارنا قبل بضع سنوات فكنا معهما ، أو كانا معنا كما يكون بعض الانكليز مع بعض ، أو كما هم عليه معظم سكان بغداد اليوم يجاور الرجل منهم الرجل طوال عمره دون أن يكلم أحدهما الآخر ، ولم يكن ذلك من طبعنا ولكننا لم نكن في البلد يوم نزل الزوجان في هذا البيت المتصل ببيتنا تماماً لنبارك لهما منزلهما ولنتخذ من هذه المباركة مناسبة للتعارف ، وحين عدنا من مصيفنا ألفينا انفسنا نجاور هذين الزوجين كما لو كانا بعيدين عنا وعلى غاية ما يتصور من البعد ، فلكم يصادف ان يلتقي أحدنا الآخر عند الخروج من الدار أو الدخول اليها أو عند محطة الباص ، أو فى محل آخر من المدينة ، فكان ذلك لا يزيد على التقاء الغرباء : رفع يد بالسلام عن بعد ، وتمتمة أو تحريك شفاه يظن ان معناه التصبيح بالخير ، او التمسية بالخير ، على أن الذي بعّد بيننا التقارب ليس هذا العرف المدنى الجديد وحده ، وانما لهذا الحياء البادي على هذا الجار والذي يرافق اكثر سكان القرى والدساكر ، وهذه الاشاحة المنبعثة عن الخجل اثره العميق فى في هذا الابتعاد ، فكانت تحياته الخفيفة السريعة التي يرسلها كلما التقاني والتقى جاراً آخر ليؤيد لحد بعيد تمكن روح الانكماش على النفس ومحاولة الانزواء التي كثيراً ما تبدو على القرويين الذين يؤمون المدن فيكبرون فيها كل شيء ،

والذين يجدون انفسهم وقد انتقلوا مرة واحدة من مدينة صغيرة الى عاصمة كبيرة كبغداد ، التي لم يسبق لهم أن رأوا منها هذه المشاهد الخلابة، والمناظر المدهشة، وإذا كانوا قد رأوا شيئاً منها فهم لم يروه من قبل عن كثب وبكل هذه السعة ، فكان لابد أن يمشوا بحذر وحياء ، ويتكلموا بحـــذر وحياء ، ويتعاملوا بحذر وحياء ، ويعجبوا من كل شيء فيها . ويبدو هذا الحذر والحياء والاعجاب في كل حركة من حركاتهم ، حتى لقد ندر من سمع لهذا الجار وزوجه صوتاً ، بل نـــدر من شاهدها خارج الدار بعد الساعة السابعة مساء !!

* * *

وصح تفرس الجيران بهـــذا الجار، فلم يـكن الرجل غير بائع ادوات سيارات في إحدى دساكر الفرات ، وهو لم ير بغداد إلا حين تستدعيه مصلحته الخاصة فيمكث هنا يوماً أو بعض يوم ، ويعود الى بلده وقد تملكته هيبة بغداد وعظمتها فاذا به يشعر بحقارة بلده وحقارة سكانها،وحقارة نفسه شعوراً لا ينفرد به وحده وانما هو شعور أغلب سكان هذه البلدان الصغيرة حين يتاح لهم أن يشهدوا البلد الـكبير ويقارنوا شوارع بلدانهم بشوارعه،وأبنيتهم بأبنيته، وثروتهم بثروته، حتى لقد اصيب بشيء من الذهول والتردد حين استدعته احدى شركات بيع السيارات لينتقل الى بغداد العاصمة وليشتغل في ادارة فرع من فروعها ، فقد ظن انه ليس اهلا لمثل هذه الثقة ، بل ليس اهلا ليعيش هنا ويكون واحداً من سكان بغداد وانه ربما أخفق فى منافسة زملائه ، ولا يعلم الى كم ظل في هذا التردد متخوفاً من بغداد ، العظيمة في كل شيء ،ولـكنه قبل الاقتراح وانتقل من بلده النائي الى الى هذا البلد الوسيع الرحيب ، فاذا به يـكاد يغوص في الأرض من شدة الخجل والخوف من الاخفاق ، فهو يكبر كل شيء ،ويعجب بكل شيء ،ويحذر من كل شيء وان له في كل حركة صفحة تقرأ فيها الطيبة ونقاوة الضمير وسماحة الخلق التي

تقرؤهـــا في ألواح معظم القرويين أو أشباه القرويين من سكان الدساكر والمدن الصغيرة .

ولم تكن زوجه إلا صورة طبق الأصل من زوجها : صفحة من حياء ، وصورة نقية للوداعة والطيبة،ولو لم يرها الجيران ـ هي والفتاة القروية الصغيرة التي صحبتها من بلدتها لتخدمهم ـ خارجة حيناً من الدار ، وداخلة حيناً ، لماصدقوا أن في البيت امرأة .

* * *

وطرقت المرأة ذات مساء بيتنا ، وهي تكاد تذوب خجلا ، وقالت انها قد اضاعت مفتاح البيت وهى في السوق فكان لا بد لها أن تنتظر مجيء زوجها ليفتح الباب بمفتاحه وقد فضلت أن تقضي مدة الانتظار هنا ريثما يعود زوجهـا الذي تنتظره الفتاة الخادمة على دكة الباب ، فكان هذا اول تاريخ معرفتنا بها ، ومنه عرفنا عن هذا الجار الوديع الطيب كلما كنا نود ان نعرف عن الناس من دماثة خلق، وطيب سريرة،ونقاوة ضمير ، واقبلنا نعتذر لجارتنا وزوجها عن تفريطنا في حقوق الجار ، وأسفنا على ضياع هذه الفترة من العمر دون أن نستطيع التمتع بمزايا جيراننا ، وحين رزقت جارتنا بنتاً قدم لها كل واحد من أفراد عائلتنا حتى الصغار منهم هدية مناسبة للمولودفكانت هذه الهدايا سبباً آخر من أسباب توثيق الصداقة والمحبة بيننا ، كما كانت البنت المولودة ، سبباً آخر لشد أواصر الزوجية وترسيخ السعادة في هـــذا البيت وتفاني الزوجين بعضهما في بعض ، حتى لقد لمس كل منا سعادة الزوجين بكل حواسه ، فالرجل لا يكاد ينتهي من عمله حتى يعود الى البيت واذا ما عاد عكف على بعض شؤون الدار ينظمها ويرتبهـــا كما يحلو له ولزوجه ، ويملأ البيت حبوراً وسروراً ، ثم بدأنا نسمع صوت الزوجين يغنيان ترنيمة حلوة لابنتيهما ثم تحولت الترانيم بعد أيام الى اغنيات، فرحنا نسمع

صوت الزوج وهو يقلد بعض نجوم السينما المصرية ، فيقرأ قطعة من هنا وقطعة من هناك ، وصار الراديو الذي لم نسمعه من قبل يرتل شيئاً غير القرآن الكريم ، لقد صار راديو هـذا الجار يشق عنان السماء بالقطع الموسيقية وأطوار الغناء .! !

* * *

ومرت الايام ، وبمرور الايام ، صار الرجل ينسى ماضيه ويبعد عن حياته القروية أو شبه القروية يوماً فيوماً ليدنو بروحه من حياة العاصمة الصاخبة ، العاجة باللهو، والطرب،والغناء ،والعبث ، فكان كواحد حرم من الأكل زماناً ، ثم اطلق له العنان ليأكل ما يشاء في أي وقت يشاء ، وصار جارنا حين يمر على أحد معارفه وجيرانه ، يمر بشيء كثير من الاعتداد بالنفس ، فلا خجل، ولا حياء ولا أي شيء مما كان سابقاً ، فهو حين يحاول السلام اليوم لا يزيد على أن يرفع يده الى الاعلى بشيء كثير من عدم المبالاة والجرأة ، واختفى ذلك الحياء وبدأت تلك الوداعة ــ التي كنا نلمسها ــ تؤدي هنا امتحانها ، وتسجل درجات تطورها على محك هذه المدنية الزائفة .

* * *

ومرت ايام أخر فاذا به لا يعود الى البيت إلا في ساعة متأخرة ، ويكثر هذا التأخر في أغلب الليالي حتى يتجاوز الحد ، وتظل هـذه المرأة بانتظاره الساعات الطوال سهرانة قلقة ، فاذا جاءها ، جاءها في نصف وعي وقد عمل السكر فيه عمله ، فكانت هي الاخرى تؤدي امتحاناً وتختبر مبلغ متانتها وقوة اخلاقها مع شدة الفارق بين الحالين .

ترى كيف يتغير الانسان ويتبدل بهذه الصورة وعلى هذه الكيفية ؟ كيف

يرضى لنفسه بهذا التردي أو هذا النسيان أو التناسي لتلك النشأة الساذجة البريئة فيطلّق كل شيء كأن لم يكن ولم يخطر ببال ؟؟

لقد سمعنا ذات ليلة نشيجاً وبكاء يقطّع نياط القلب من جارتنا ، وسمعنا جارنا يعربد ويصيح ويقول فيما يقول : انه قد ضاق ذرعاً بهذه الزوجة لأنها لا تصلح ان تكون زوجاً له ، فهو يريد زوجة عصرية تعرف كيف تعيش ، أماالسباب والشتائم التي انحدر اليها فكانت من البحور التي لا تحد .

لقد سمعنا ذلك لأنه كان يصيح به ملء شدقيه ، فلم ندر ماذا يقصد بالمرأة العصرية ، فلقد كنا نعرف زوجه مثلا صالحاً للزوجة الصالحة من حيث قيامها بالواجب ، وإذا لم نلاحظ عليها تطوراً اخلاقياً ، فقد لاحظنا عليها تطوراً عجيباً من حيث إلمامها بما يقتضي لأمثالها من لوازم الخياطة والطبخ والترتيب والعناية بطفلتها واستشارة القابلات في حملها وكيفية مداراته ، نعم انها كانت لا تزال حيية ، وكان المحك يقول انها لا تتغير ولن تتغير من هذه الناحية ، وانها كانت أمية لاتقرأ ولا تكتب ، ولكنها كانت امرأة تقوم بكل ما ينتظر منها زوج كزوجها وأحسن من زوجها .

* * *

وعبثاً رحنا نستفسر من الزوجة في اليوم التالي عن بكائها ونشيجها ، فقد انكرت كل شيء وقالت : ان صراخ زوجها لم يكن غير دعابة بحتة ، وانكرت انها كانت باكية . . . !

* * *

ومرت أيام ، وزاد يقيننا بتغير طباع الزوج هذا التغير الذي كثيراً ما يلازم اولئك الذين ينتقلون فجأة من محيط صغير الى محيط كبير أو الذين لا يزالون اغرارا لم ينضجوا بعد فينغمسون في الملاهي ، وينجرفون في تيارات

اللذائذ ، فهم اينما اتجهوا من سماع راديو،الى مشاهدة فلم للسينما ، الى استعراض المراقص وحضور دور التمثيل، فلا يرون فيها إلا مشجعاً على وجوب تغيير ما بأنفسهم ووجوب حدوث هذا التغيير على جناح النرعة ، فلا يحسون إلا وهم منغمسون في هذه اللذائذ الى شحمة الاذن ، وهم يجدون فى انفسهم شعوراً بحاجة ماسة الى ان تكون زوجاتهم كهؤلاء المغنيات اللاتى يسمعونهن من الراديو ويشاهدونهن على الشاشة ،وعلى خشبة المراقص ، وان المقاييس مفقودة عند هؤلاء، والحساب مغلوط ، والتوجيه معدوم ، فتنشأ المشكلة ، ويحل الخصام بين الزوجين وينهدم البيت ، وتنهار الأسرة .

وتكرر سماعنا عربدة الجار وغضبه وصيحاته المزعجة ، لسبب أم لغير سبب بل سمعنا أصوات سياط تلعب على الجلد ، ولكنا لم نعد نسمع صوت بكاء المرأة ولا نشيجها منذ تلك الليلة . وحاولنا أن نكاشف الجار بالامر وننصحه حرصاً على صحة الزوجة وهي حامل يخشى عليها من الهم فضلا عن السياط ، ودعونا الرجل لتناول العشاء عندنا ، ونحن على يقين لو أن زوجه تعرف الغاية من هذه الدعوة لحالت بيننا وبينها ، ولسعت متوسلة ألا نفعل ولا نحاول ، وبأسلوب غاية فى الرقة والبعد عن اللوم والتعنيف ، لفتنا نظره الى واجبه نحو زوجته ، وقضينا معه ساعة أو اكثر فى هذا الحديث ، وحين ودعناه ، ودعناه ونحن مفعمون بالأمل واثقون كل الوثوق من تأثير تلك النصائح فى نفسه .

* * *

وفي تلك الليلة نفسها ، وبعد خروج الرجل من بيتنا ، وقبيل الساعة الثانية عشرة ، طرق بابنا طرقاً عنيفاً ، وحين فتحنا الباب ، الفينا انفسنا أمام الفتاة القروية التي تخدم في بيت جارنا وهي ترتجف كالسعفة في وجه العواصف الهوجاء ، وتتمتم

كما يتمتم الاخرس ، ولولة تقول : ادركونا فقد ركل سيدي زوجه في بطنها فسقطت جثة هامدة !

* * *

وهنا أطرق محدثي كمن أصيب برجة عصفت بصبره ، فقلت له : والنتيجة ؟

قال ـ : لقد كانت نفس النتيجة التي ينتهي اليها هولاء الذين يخطىء معهم التوجيه ، أو يخطؤون هم حساب انفسهم ، فلا يعرفون كيف يوجهون انفسهم حتى تؤول حياتهم الزوجية الى نكد وشقاء ، وهكذا كان ، فقد ماتت الزوجة وسكن منزلهم هذه المرة جار جديد يبدو عليه انه مستحدث النعمة ، لا يبعد ان تكون نتيجته كنتيجة جارنا الاول بدون أية زيادة أو نقصان ؟



لقد سمعنا أصوات السياط تلهب على الجلد ولكننا لم نسمع بكاء المرأة

قصة – من الدساكر الى العاصمة

من – أولاد الخليلي

# الهارب

# الهـــارب

---

هاهي ذي السنة الخامسة عشرة تمر وعبداللطيف الحلاق هارب من وجه العدالة وان خمس عشرة سنة من عمر يقضيه الانسان بالتخفي والتشرد إنما هو ضرب من شقاء تختلف وجوهه والوانه . واذا تنوعت وجوه الشقاء واختلفت الوانه ، كان مريراً لا يطاق ولا يحتمل ، ولقد كان شقاء عبداللطيف الحلاق مريراً حقاً ،وكان لا يطاق ولا يحتمل ،.فقد قضى زمناً طويلا وهو يشتغل عاملا من عمال البناء ينقل الطين والحجارة من جهة الى جهة في احدى القرى النائية ، وكان يعمل وهو في أشد حالات الخوف من ان يعرفه أحد فيخبر عنه الشرطة .

وتزيا بمختلف الازياء ، فلبس اليشماغ والعقال ، والكوفية ، والچراوية ، وتستر بمختلف الصور ، وأطلق لحيته مدة من الزمن حتى غدت كثة غرثى ، عطشانة للماء والصابون لكثرة ما علق بها من وسخ ، وهو يعمل في احدى السفن الشراعية التي تعمل في دجلة بين العمارة والبصرة .

ولا يكاد يأمن بعض الناس حتى يجلس اليهم فيبكي بكاء الثكلى في عبرات تشجي القساة الجبابرة لما يلقى من شقاء التشرد ،ويعاني من ألم الخوف، وهو لو تأمل لما وجد جريمته التي هرب بسببها لتتجاوز عقوبتهـــا بضع سنين لو استعملت المحكمة معه اقسى فروض القانون ، واقسى العقوبات ، ولكنه الخوف ، الخوف من السجن ، والخوف من القضاء ليفعل هذا واكثر من هذا في عدد كبير من النفوس التي تشبه نفس عبداللطيف الحلاق .

وكيفما كان فقد قضى عبداللطيف الحلاق هذا العمر المديد الطويل بأتعس

وأمر وأشد وجلا وخوفاً من أي عمر آخر يقضيه الانسان في السجن وفي سجن تجاوز ضيقه الحدود .

***

لم يكن عبداللطيف قبل خمس عشرة سنة إلا شاباً مفتول العضلات كثير الاعتداد بنفسه في ميدان المصارعة ، وفي طليعة هواة الرياضة ، وعلى انه كان يمتهن الحلاقة ، وكان يعمل كحلاق متواضع في زاويـــة من زوايا سوق الديوانية منذ الصباح الباكر الى ساعة متأخرة من الليل ، فلم تكن تفوته فرصة المبـــاريات الرياضية ولا سيما المصارعة الكثيرة الشيوع يومذاك ، ولا يفوته حضور السباق الرياضي في اية جهة من جهات العراق فكان يقصدها للمشاركة أو المشاهدة اشباعاً لهوايته .

وكان عبداللطيف معتزاً بقوته بحيث لا يستطيع أحد أن يخدش له كرامة أو يشير اليه عاتباً أو هازئاً ، حتى لقد بدرت ذات مرة من احد الزبائن وهو جالس على كرسي الحلاقة عنده وتحت متناول يده وكان هذا الزبون ضخم الجثة ثقيـــل الوزن يمتلىء به الكرسي امتلاء . أقول لقد بدرت من هذا الزبون ذات مرة كلمة عدها عبداللطيف الحلاق مزرية به ، نابية في حقه ، فلم يكن إلا أن وضع المقص والمشط جانباً وحمل الكرسي والزبون فيه وبكل تؤدة ووقار افرغ الرجل من الكرسي خارج الدكان ، كما لو كان يفرغ الماء من الجرة أو يلقي الاقذار من صفيحه الزبل ...!!

واشتهر عبداللطيف بين هواة الرياضة بنوع خاص من المصارعة وهو النوع المألوف في العراق قديماً كأن يمسك أحد المصارعين من أي موضع يقع تحت يديه ولم يزل به حتى يلقيه على الارض وعلى ظهره وان كل القاء لا تمس فيه الارض ظهر السقيط لا يعتبر غلبة، وانما الفوز كل الفوز لمن يستطيع ان يلقي خصمه على الارض على أن يمس ظهره سطحها فيقع وهو مظهور .

وبلغ عبداللطيف ان مصارعاً كركوكياً قد وصل الى بغداد منذ أسابيع وقد

نازل عدداً غير قليل من اترابه فألقى بهم الارض وفاز عليهم فوزاً مبيناً ، فحدثته نفسه أن يزور بغداد ويرى بعينيه طراز مصارعة هذا الشاب (الكركوكلي) ويوازن بين قوته وقوة البطل عن كثب ، حتى إذا آمن من نفسه وتوسم الفوز على خصمه نازله وصارعه ليكسب بذلك البطولة التي طالما يحدث نفسه بها وينتظرها يوما بعد يوم

وترك عبداللطيف دكانه بيد صبي من الصبيان ، وقد أوصاه بأن يقول لزبائنه الذين يسألون عنه انه ذهب في شغل مستعجل وسيعود قريباً ، كما اوصاه بأن يتولى اغلاق الدكان وفتحه صبحاً ومساء بمعونة أحد المجاورين طوال مدة غيابه ومضى . ،

ووصل الى بغداد وسأل عن المصارع (الكركوكلي) حتى عرف مقره ووازن بين القوتين من أول نظرة ، فتحقق لديه انه الغالب لا محالة ان كتب له ان يصارع هذا البطل ، فتقدم اليه ودعاه الى المصارعة ، ولبى الكركوكلي الطلب ، وتعين الوقت المناسب من عصر اليوم التالي في ( الزورخانة ) والزورخانة محل خاص كان يجري فيه هواة الرياضة يومذاك تمارينهم الرياضية اشباعاً للهواية ، أو معالجة لبعض الامراض وازدحم الهواة ومن يهمهم الأمر في الموعد المضروب ، ونزل المتباريان الى ساحة الزورخانة كما لو كانا ديكين منتفشين يحاول كل واحد منهما ان يتخذ له من خصمه ممسكا تكون له فيه النهاية ، وجالا جولات متعددة تحسس فيها خصمه بضعفه ، بل اوشك يعتقد بفوز عبداللطيف اذا لم يتوق ويتخذ له منه الحيطة الكافية ، فراح يراوغه وقد كان (الكركوكي) يحسن اساليب المراوغة لحد كان يثير سخرية المتفرجين ويحملهم على الضحك من عبداللطيف ، وكان هذا الضحك داعياً لاثارة الحنق في صدر عبداللطيف خصوصا حينما هم مرة ان يطبق يديه على خصر البطل الكركوكلي فاذا به يحتضن الهواء ، وإذا بيديه تخرجان خاليتين لما بدا على خصمه من خفة ومراوغة فنية لم يتخلص بها من عبد اللطيف فحسب وانما أثار ضحكا متواصلا وسخرية مازجها صفير من بعض الجالسين ، ذلك الصفير الذي لا يطلقونه إلا مبالغــة في الاستهزاء ، فتلقى عبداللطيف هــذا الصفير وهــذه الضحكات الرنانة بشيء من

الغضب والحنق الذي لم تسبق له به سابقة من قبل ، واذا به وهو تحت سورة ذلك الغضب يندفع كالهزبر الهائج الذي يتقادح الشرر من عينيه ، واذا به يصبح قوة عمياء فقدت كل شيء من وعيها ، فيوجه لخصمه على غير انتظار وعلى خـلاف الاصول الرياضية ضربة قويـة ويتبعها بثانية وثالثة واذا بالخصم يسقط جثة هامدة في وسط الزورخانة !! ويهب الجميع في وجه عبداللطيف ليمسكوا به فيماف البسته ويفر من معقبيه وهو نصف عريان . . .

ويصل الى الديوانية ، ولم يكد يقبل على بيته ، حتى يعرف أن الشرطة قد سبقته اليه باحثة وقد اكثرت السؤال من جيرانه ومعارفه عنه . فعاد ادراجه ثم اوغل في القرى والارياف ، ثم لم يعرف بعد ذلك عن نفسه إلا انه رجل مشرد هرب من وجه العدالة لأنه قتل شخصا بريئا !! لقد قتله ولم يكن يريد قتله ، وانما كان يريد ان يري المتفرجين ان خصمه احقر من ان يستطيع اثارة سخريتهم به فلم يشعر إلا وخصمه يسقط ميتا تحت تلك اللكمات .

خمس عشرة سنة من عمر التشريد ، وتشريد كهذا مشوب بالخوف والرهبة التي تسلب المرء لذة نومه ، ولذة اكله ، ولذة عمله ، التي تدعه في كل يوم ، بل وفي كل ساعة ، يتصور الموت على قاب قوسين منه أو ادنى ، ولطالما يحمله على التفكير ليلا ونهاراً وكلما خلا الى نفسه .. ترى ما الذي يعمل لو اكتشف امره وظهر انه لم يكن ( كاظا ) وان ( كاظا ) لم يكن إلا الاسم المستعار الذي اطلقه على نفسه منذ ان رد على عقبيه ناكصا من الديوانية ؟

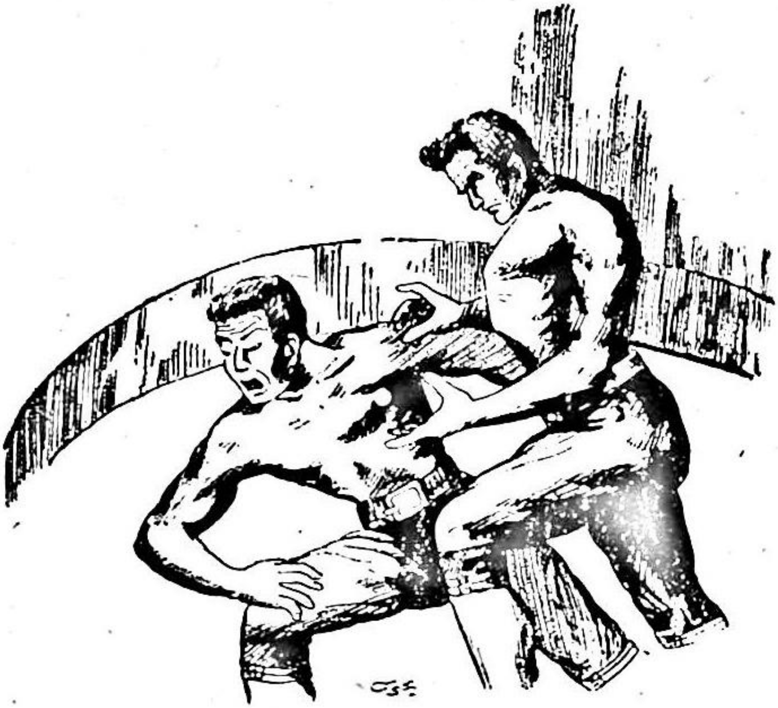
ان خمس عشرة سنة تمر بهذه الصورة لعمر مديد في مقياس زمانه وحسابه وكل ساعة منه تعادل يوما بل شهراً واكثر لطولها وطول شقائها المرير ، وفي ذات يوم وهو يمر بسوق العمارة ، وقد كان يتأبط عدداً من الأرغفة وصرة من المتاع والزاد وهو في طريقه الى السفينة الراسية عند الكحلاء ، إذا بشرطيين وقد دخلا السوق لتعقيب احد الجناة الفارين وهما يفجان الناس ويركضان لحاقا بالفار ، وما كاد يراهما

عبداللطيف حتى القى بالمتاع والخبز وغدا يبحث عن طريق للخلاص بين تلك الجموع التي يغص بها سوق العمارة في مثل تلك الساعة ، فقد ظن ان امره قد انكشف وان الشرطة انما تركض لكي تقبض عليه ، وفي وسط هذا الارتباك ومحاولته الافلات والخروج من السوق ، أثار شكوك الناس والشرطة حوله ، فاندفع الناس ركضا وراءه حتى قبضوا عليه وسيق الى المركز .

وتيقظت فتوّة عبداللطيف ، وبدأ يحس برجولته تدنو منه سريعا ، واستنكر مافيه في أقل من بضع ثوان ، ولام نفسه على مثل هذا الجبن والخوف والصبر على هذا الذل والتشرد ، وكثيراً ما يتحول السأم والجزع بالانسان الى شجاعة تستلفت النظر أو قل كثيراً ما يخاف الانسان الامر حتى إذا وقع فيه آمن واطمأن فاستحال خوفه شجاعة وجرأة . وقد قيل في الامثال : « إذا خفت أمراً فقع فيه » وهاهو ذا قد وقع الآن بين يدي الشرطة فعلام يخاف ولم لا يعترف ويعرف المحققين بنفسه ؟ وهكذا كان .

لقد قص على المحقق كل قصته منذ اول يوم غرامه وولعه بالرياضة الى حين ارتكابه جريمة القتل ، ثم تشرده طوال هذه المدة ومعاناته شدائد التشرد وويلاته

وارسل عبداللطيف مخفوراً من العمارة الى بغداد ، وهناك بحث المحقق عن تاريخ الجريمة وحادثة البطل الكركوكي الذي سقط في ميدان الزورخانه ميتاً قبل خمس عشرة سنة ، فاذا بالكركوكي حي يرزق ، واذا بالقضية لم تكن اكثر من رجة عصبية انتابت الكركوكي في حينه على اثر تلك اللكمات التي كالها له عبداللطيف فغاب بسببها عن الوعي بضع ساعات ، ثم خرج من المستشفى بعد يومين معافا كأن لم يكن هناك شيء ! ! ؟



وجالا جولات متعددة تحسس فيهـــا خصمه بضعفه

قصة ـ الهارب

من ـ أولاد الجليلي

# المنذور

# المنـــذور

في الشمال من بلاد الهند في مقاطعة التبت قرية من بعض سكانها زوجان مرّ على زواجهما اكثر من خمس عشرة سنة دون أن يرزقهما الله طفلا يكون ثمرة زواجهما ، فتوسلا الى ذلك بشتى الوسائل ، وماذا نظن أن تكون وسائل التبتيين غير الدعاء والتمائم والنذور ، سواء كان هـذا الدعاء والنذر مأثوراً أم لم يكن ، وسواء كان شرعياً أو غير شرعي ؟ فالزوجان عبارة عن آذان مصغية لكل اقتراح يحتمل أن يؤدي الى الحمل والولادة ، حتى كاد اليأس يصرفهما عن كل محاولة بعد ذلك الفشل لو لم تتقدم اليهما أخيراً عجوز قيل عنها أنها ذاقت حلو الحياة ومرها ، وقتلت الأيام تجربة واختباراً ، فأشارت عليهما بأن يفعلا ما فعلت هي يوم ضن عليها الدهر بمولود فنذرت لله إن هو منّ عليها بالمولود لتحملنّـه صبياً الى المدينة المنورة وتتركه هناك نائماً وتعود من حيث جاءت الى بيتها !! وقد تقبل الله نذرها فرزقها صبياً وبرّت بوعدها وانتهى كل شيء !!

وسألها الزوجان :ـ وأين الصبي هو الآن ؟

فأشاحت العجوز بوجهها عنهما ولم يشهدا منها غير قطرات من الدموع المتساقطة.

* * *

قالت الزوجة لزوجها :ـ لم لا نفعل كما فعلت هـذه العجوز ؟ فننذر لله إن هو منّ علينا بمولود لنحملنّـه صبياً بعد الفطام الى مـــدينة النجف ونتركه سائباً في

الشوارع وتعود ، و( النجف ) ـ كما تعلم ـ اقرب الينا من ( المدينة ) ، وهي مرقد ابن عم الرسول ، وزوج البتول ، ولعل لنا فيها من طلبة العلم من التبّتيين من من نستطيع ان نستفهم منه خبر طفلنا بعد تركه هناك ؟

لقد أطرق الزوج قليلا، ثم رفع رأسه وقال :ـ لا مانع لدي من التعهد لله بمثل هذا على شرط أن يكون المولود صبياً ، وهكذا قررا أن ينزعا آخر سهم من جعبة امانيهما في طلب المولود ، وان عاطفة الزوجين وهما عقيمان لا تشبه عاطفتهما وهما أبوان. فكان من السهل عليهما عقد بمثل هذا النذر ، ولو كانا قد التفتا الى المعاني المنسابة في دموع تلك العجوز لأحجما ولتمهلا زماناً على الأقل .

مرّ على نذرهما عامان، وما كادا يستقبلان العام الثالث إلا وكان في حضن الأم صبي كحّل الله به عيني والديه ، ذلك هو ( بيزي ) المنذور ،

ولد ( بيزي ) المنذور ، وكيفما كان حال أبويه وشظف عيشهما ، فان له من حبهما ، وعطفهما ، وحنوهما عليه النصيب الوافي في دوره الابتدائي ، أما المستقبل؟ فمن ذا الذي يعرف ماذا يخبيء له المستقبل ؟

ان ( بيزي ) هو الولد الوحيد الذي منّ الله به على هذين الأبوين بعد أن كاد اليأس يقتلهما فلم لا يحمل على الاكتاف في سوق القريـــة ؟ وفي المزرعة ، وعلى ظهور الثيران ؟ أما اسمه فما احلاه في فم الجدة ، وفي فم الأم ، وفي أفواه الاقرباء، وهو اسم لا يمر على شفتي قريب من اقربائه إلا مشفوعاً بالدعاء ، والتمتمة ، والتعويذ بالله ، وانما الذي يقلق البال وتخفق له القلوب فزعاً هو موعد الوفاء بالنذر ، إذ لا يكاد الأبوان يتذكران أن مصير ابنهما سيكون للضياع إلا ويذوب فؤادهما ، وترتعش مفاصلهما ، لاسيما وان الوقت الموعود بدأ يقرب سريعاً ، فهـذا بيزي قد بلغ حد الفطام ، وتجاوز السنة الثالثة ،وأصبح على أبواب السنة الخامسة وهي السنة التي تحتم على الابوين البر بوعدهما والتخلص من نذرهما .

لقد لعنا العجوز الف مرة ، ولعنا كل من أيّد لهما اقتراح هذه الحيزبون المشومة ،

ولكن ماذا يجدي اللعن ، وقد سبق السيف العـــذل، وهؤلاء سكان القرية جميعاً يرون في نقض العهد وعدم الوفاء بالنذر الكفر والالحاد والخروج من الحضيرة الاسلامية ؟ واسرة بيزي وأبواه من الطبقات التي لا تعرف من الدين والشرع غير الاسم فقط .

لقد اكمل بيزى السنة الرابعة ، وحل اليوم الذي يجب أن يستصحبه الأب ألى العراق ليسيبه فى احد شوارع مدينة ( النجف ) ويعود . فبكت الجدة ما شاء الله أن تبكي ، وشقت الام ثوبها والقت بنفسها عليه ، وكانت ساعة الفراق ساعةرهيبة محزنة ، مؤثرة ، اين عنها كتاب العواطف ليصوروها فجيعة من أعظم فجائع السذاجة والغباوة . . .

لم يفد الصراخ ، والعويل ، ولم يقف شيء حائلا بين بيزي والسفر ، فقد حمله أبوه والدموع تسيل على خديه الى حيث لا رجعة له ولا أوبة . .

***

هاهو ذا الأب قد بلغ النجف وهو يحمل طفله الصغير ليضعه في وسط احد الشوارع ويفر ! ! وتسوقه رجلاه الى عقد ( السلام ) من محلة العمارة فينزل الصبى من على ظهره ، ويضعه هناك ثم يلوذ بالفرار . ولم يكد ينحرف نحو الشارع الثاني إلا ويسمع صرخات طفله المتوالية « بابا ـ بابا » وهو يبـــكى فزعا فتهيج عاطفته الأبوية ويعود اليه فيحتضنه ويلصقه بصدره ، ويبلل خديه بدموعه ، ثم يسير الى جانبه خطوات وهو ينشج ، ويعود فيتصور نفسه مخطئا ، كافراً ، ملحداً ، فيضع سبابتيه في أذنيه ويصمها صما محكماً ثم يترك الولد ويطلق ساقيه للريح ويفر بعد أن يكون قد وضع فى يد ابنه قطعة من النقود الهندية وشيئاً من الحلوى .

انه لم يعد يسمع صوت ابنه بأذنيه لأنه صار بعيدا عنه ولكن قلبه ظل يسمع صوته وهو يكرر « بابا ـ بابا » الى مسافات شاسعة ، فهم أن يعود فلم يقدر ، وهم ان ينصرف فلم يقدر فجلس يبكي عالياً في الطريق . . .

كان على أبي بيزي أن يبحث عن الشيخ حسين التبتي ، والشيخ حسين التبتي من سكان احدى القرى القريبة من قريته في التيبت، وكان قد هاجر الى النجف متفقهاً ومجاوراً للامام، لقد كان على ابي بيزي ان يبحث عن الشيخ حسين ليوصيه برعاية ابنه واستقصاء اخباره قبل أن يسيبه في الطريق ، ولكنه خشي ان يكون في ذلك نقض للنذر ، واحتيال للتخلص من عهوده التي قطعها على نفسه لله ! ! فترك ابنه وفر ، ثم راح يفتش عن الشيخ حسين التبتي بعد ذلك في زوايا المدارس الدينية ، وبين حلقات طلاب العلم ، حتى علم بأن صاحبه قد قصد مدينة كربلاء قبل بضعة أيام ولن يعود الى النجف قبل مرور اسبوعين أو اسبوع على الأقل ، فغادر النجف الى كربلاء وهو أشد ما يكون حزناً وألماً ، ولقد مرت عليه ليلتان في النجف لم يجف له فيهما دمع ، ولم يستقر بال ، لقد كان يفكر في الليلة الأولى : كان يفكر كيف يستطيع ان يتخلى عن فلذة كبده غداً ؟ وكان يفكر في الليلة الثانية : كيف أطاعه قلبه في تسييب ولده في بلد لم يستطع الأب نفسه ان يفهم لغته ويعرف فيه طريقه ، فما حال طفل غريب ( كبيزي ) العزيز الذي لم تألف قدماه طرق القرية اللاحبة القصيرة ، ولم يتركه الدلال ان يحسن اداء اللفظ باللغة التبتية ؟

وفي مدينة كربلاء لم يطل به البحث كثيراً ، فقد اهتدى الى الشيخ حسين وتم بينهما التعارف في فترة وجيزة من الزمن ، وعرف الشيخ حسين من امر صاحبه كل شيء ولكنه لم يفلح في رده عن رأيه ، ولم يستطع اقناعه بأن مثل هذه النذور قد تكون مدعاة للتأمل عند الفقهاء ، وان القيام بتنفيذها يكاد يكون منافياً للشرع لدى بعض العلماء ، فلقد قضي الأمر ولن يرجع والد بيزي عن رأيه ، ولم يجد الشيخ حسين وسيلة غير ان يطمئن الأب بأنه سيبذل غاية مجهوده عند رجوعه الى النجف في البحث عن بيزي ورعايته على قدر ما يستطيع اكراماً لمواطنه واجابة لداعي الانسانية .

وسافر والد الصبي الى بلاده وهو لايدري بأي وجه سيلتقي أمه وزوجته

واقرباءه ان وجدوه راجعاً وحده ؟ واين منه الصبر ليصف لهم كيف ترك الصبي صارخا بملء شدقيه « بابا ـ بابا ـ بابا » فصمّ اذنيه عن صراخه كأن لم يسمع وكأن لم يع ؟

* * *

لقد يئس الصبي من عودة أبيه ، وهاله ما رأى من اختلاف الأزياء والأشكال فهو لم ير لحية كثّة صوفية كهذه اللحى التي تحملها بعض الذقون هنا ، وهو لم ير من قبل هذا العدد من العمائم المختلفة الالوان ، وهذا النوع من اللباس الذي ترتديه النسوة ممن يمررن عليه في الشارع الذي نبذه أبوه فيه نبذ النواة ، فلاذ بالبكاء خوفاً وتستراً مما اوقعه فيه أبوه القاسي ، وإذا الشارع مزدحم بالناس وهم يتساءلون ويستفهمون عما أصاب هذا الصبي وابكاه ، ولكن من ذا الذي يفهم ما يقول ( بيزي ) ، ومن ذا الذي يستطيع أن يهدئ له روعه ويعيد اليه سكينته؟ وهم لا يسمعون منه غير كلمة ( بابا ) .

لله ما أقسى هذا ( البابا ) وما اعظم جريمته ! ! فلقد أيتم ابنه شر اليتم وحرمه من الحنان الابوي في سن هي احوج ما تكون الى هذا الحنان والعطف والرعاية ،

واخيراً ، وبعد أن طال على بيزي وقوف الناس ، تقدمت اليه امرأة تحمل قفة من الرطب وهي في طريقها الى البيت فوضعت بضع رطبات في يد الصبي المليئة بالحلوى وتناولت يده اليمنى وسارت به الى البيت .

* * *

مرت على الشيخ حسين التبتي بضعة شهور وهو يبحث عن بيزي ، ويتسقط اخباره بين زوايا الخانات ، وأروقة المساجد ، وفي كل مكان يلجأ اليه المشردون والعجزة وأبناء السبيل ، وكان قد تلقى خلال هذه المدة كتابين من ابي بيزي يتوسل فيهما اليه بأن لا يأخذه في البحث عن الصبي بطء أو تهويد ، ويرجو أن لا يمر بعض زمن إلا وقد عرف كما يجب أن يعرفه الأب عن ابنه ، كما تلقى كتاباً من أبيه نفسه

بالمضمون التالي : « ان أم بيزي لم يقر لها قرار للآن ، ولم يهدأ لها حال منذ أن رأتني أعود اليها وحدي وقد تعتريها في بعض الأحيان حالة أشبه بما تعتري المجانين عادة منها بأي حالة اخرى ، فهي صامتة آناً كالشجرة ، على ان للشجرة حفيفاً يمكن أن ينفي عنهـا الخرس والصمت المطاق ، أما أم بيزي فلم يبد منها ـ إذا صمتت ـ غير حركة عينيهـا اللتين إذا ما انتقلتا فلن تتجاوزا حدود حركة رقاص الساعة ، فهما ـ أبداً ـ دائرتان بين اليمين والشمال ، والسر في ذلك هو ان مهد بيزى كان في الجانب الايمن من البيت ، وان الباب الذي خرج منه ولم يعد كان على جهة الشمال من الدار ، لذلك فهي لا تطيق ان تحول عينيها عن هاتين الجهتين عندما تعتريها حالة الصمت والسكون . فهي باكية آناً كالطفل ، على ان للطفل حداً يقف عنده حينما تكل أعصابه ، أما أم بيزي فلم تعرف الكلل ولا التعب ، وهي على الرغم من تغير خلقهـا ، وهزل جسمها ، وغور عينيها ، فهي لا تزال قادرة على البكاء وصب الدموع الساخنة »

بمثل هذا وامثاله كان ابو بيزي ووالد الشيخ حسين نفسه يستحثان الشيخ حسين التبتي في اقتصاص أثر بيزي والوقوف على مصيره ، ولقد قرأ الشيخ حسين هـذه الكتب مرات وفى كل مرة كان يستنفد آخر ما تختزن عيناه من الدموع ثم يعمد الى ملابسه فيرتديها ويروح جائباً ، باحثاً في جميع المحلات حتى ييأس من العثور على بيزي ،

* * *

وفي ذات يوم وهو يحاول الخروج من المدرسة إذا بأحد زملائه يلتقيه على الباب وهو طالب من الهند أمّ النجف كما أمهـا الشيخ حسين التبتى طلباً للعلم فيقفه ويقول :

ـ ترى بماذا تستطيع أن تكافئني ياشيخ حسين إذا اخبرتك بمقرّ بيزي ؟

قال ـ أتظن ان عندي شيئاً غير ( السكنجبين ) ؟ فلله علي نذر ان اشبعك من هذا الشراب ، ولو كلفني شبعك عشرين كأساً ، على شرط ان يكون الخبر صحيحاً

وان يكون الصبي المذكور هو بيزي المنشود ، والآن تعال خبرني كيف عثرت عليه وأين هو الآن ؟

قال ـ لقد دلني عليه الخباز . . . . وقال انه صبي التقطته امرأة قبل تسعة شهور أو اكثر وهي تسكن في جوار بيتهم بمحلة العمارة وقد رأيته أنا بعيني وهو يشتري من الخباز ثلاثة ارغفة من الخبز ويعود الى البيت . اما اسمه ( فكاظم ) على مايقول الخباز ، ولكني واثق بأنه هو هو الصبي الذي بحثت عنه وما زلت تبحث عنه طوال هذه المدة ،

غادر الشيخ حسين وزميله المدرسة مسرعين الى الخباز . وهناك استطاع أن يفهم منه كلما يجب أن يفهم ، وأرسل الخباز أحد عماله ليدل الشيخ حسين على بيت المرأة ، وإذ وصل الشيخ حسين الى الباب صاح ثلاثاً : بيزي ، بيزي ، بيزي فاذا بالصبي ينتحب من الداخل ، واذا به يشرق في عبرته ، ويعدو نحو الباب وهو يصرخ ، بابا ـ بابا ـ بابا ، لقد ظنه أباه ، ولقد خيل اليه انه عائد ليأخذه وإلا فمن هذا الذي يعرف اسمه غير أبيه ؟ ومن ذا الذي يستطيع هنا أن يهتف باسمه باللهجة التبتية كما استطاع ان يفعل هذا الواقف وراء الباب لو لم يكن أباه ؟ وما كاد يصل الى الباب ليفتحه ويسمع اسمه مردداً مرة بعد اخرى حتى انكب على الغلق فاذا به لا يطيق ان يفتح الباب ، ولا يطيق الرجوع ، وكلما استطاع أن يعمل هو أن يملأ ممر البيت عويلا

وهرع صاحب البيت وامرأته فألفيا ( كاظما ) يفحص برجليه الأرض ويصرخ صراخاً يفتت الاكباد وسرعان ما فتحا الباب ، فاذا بهما أمام الشيخ حسين ، واذا بالصبي يقف واجماً كمن يفجع بكل شيء مرة واحدة ، فهذا الشيخ ليس اباه يقيناً ، وهذه العمامة هي احدى مئات العمائم التي يراها كل يوم في السوق وفي الشارع ، وفي كل مكان يرتاده ، اذن فمن هو المنادي واين اختفى ؟

قال الشيخ حسين ـ يكلم صاحب البيت ـ هل لي ان اسألكم عن ترجمة

هذا الصبي فتصدقاني الخبر ؟

أجاب رب البيت ـ انه صبي سائب ، التقطته زوجتي في الطريق فجاءت به الى البيت ونحن لا نعرف من امره شيئاً آخر ولـكن هل أنت أبوه ؟

قال ـ لا . . لست أباه وإنما انا وصى أبيه عليه . .

وهنا تدخلت المرأة وطلبت من زوجها أن يغلق الباب في وجه الرجل ويعود ولـكن الشيخ حسين التفت الى الصبي وباللغة التبتية سأله عن حاله .

لقد انتفض الصبي انتفاضة العصفور ، وارتعشت كل مفاصله حينما سمع الشيخ يكلمه بلغة لم يسمعها منذ ان فارق وجه أبيه فحال بين الباب واغلاقها والقى بنفسه على الشيخ حسين فاحتضنه هذا وصرخ الاثنان باكيين ،

* * *

ألف بيزى الشيخ حسين ، واهتدى الى غرفته في المدرسة ، وغدا يمر به كلما حانت له فرصة أو أرسل الى السوق لجلب حاجة أو قضاء عمل بل صار لا يطيق أن يقضى نهاره دون أن يقضى ساعة أو اكثر الى جانب الشيخ حسين الذى وجد بيزى في وجهه وخطوط سحنته كلما افتقد من تلك الوجوه التي غادرها في التبت ، وأضاعها آخر مرة عندما أضاع أباه ، لاسيما وان لسانه لم يحسن بعد اداء الكلمات العربية ولم يفهمها كما يفهم لغته الاصلية ، وهـذا الشيخ حسين حينما يغرق معه في الحديث بلغته التبتية يذكره بجدته ، وأمه ، وأبيه ، ومن كان يحوطه من الأقرباء والمعارف ، لا بل يذكره بأرجوحته التي طالما استقر فيها عصارى كل يوم وعلى رأسه جدته تهزه برفق وتنشد له بعض الأناشيد التي لا يزال يحفظ منها انشودة « البقرة الحلوب » ويهم ان يبكي فيقفه الشيخ حسين بشتى الأساليب ، منها تقليد القط ، فلا يكاد الشيخ حسين يرى الدمعة حائرة في عيني بيزى حتى يبدأ بالمواء ، ويمد صوته مداً يجعل الطفل غارقا في ضحك متواصل ، مسترسل ، لا انقطاع له إلا

حينما ينقطع الشيخ عن الهواء ، والشيخ حسين ككل التبتبين أو بعضهم لا يحلو له العيش عند الفراغ بغير المداعبة ، ولا يفهم من المداعبة غير ان ينقلب كلباً فيعوى ، أو شاة فيثغي ، أو بقرة فيخور ، وكم من مرة كان يستيقظ بعض المجاورين لاحدى المدارس التي كان يسكنها قسم من التبتبين على اصوات لا ترفع عادة إلا من زريبة الحيوانات فيسأل هؤلاء الجيران ويستفهمون عن هذه الجلبة فاذا بها فصل من الدعابة ، وباب من ابواب الفكاهة ( واللطائف ) التي يتندر بها بعض التبتبين ...!!

! ويظهر ان الذين قد آووا بيزي لم يسرهم ان يحول الشيخ بينهم وبين الافادة من خدمته حتى وان كانت هذه الافادة لا تتجاوز حد ذهاب بيزي للسوق لجلب الخبز من خبازهم ، أو حمل زنبيل اللحم مع صاحب البيت الذى يدعوه بيزى بعمه فيناديه ( يا عمي ) ؛واداء بعض الأشياء الطفيفة التي يمكن ان تطلب من صبي ضعيف في السنة السادسة مثل بيزى .

أجل لم يهن على هؤلاء الاقوياء ان يستأثر الشيخ حسين بميول الصبي الضعيف فيدنيه اليه ليستفيد منه ويبعده عنهم ليحرمهم من خدمته ، فراحوا يضغطون على حرية الصبي ، ويشددون الضغط ليصرفوه عن الشيخ حسين وذكر اسمه ، ولكن الصبي لم يعد ذلك الطفل اليائس المستسلم الصادع بالأمر ، إذ لم يزده المنع عن التردد على الشيخ حسين إلا غلواً في زيارته ، وعناداً فى رأيه لاسيما وان الشيخ حسين قد ضمن له الراحة عنده إذا ما تخلى عنه كافلوه

اشتد الضغط على الصبي حتى أحرج وتمرد والتجأ الى المدرسة ليكون فى كنف الشيخ حسين الذى وعده بأنه سيعيده الى اهله في أول فرصة يستطيع فيهـــا اقناعهم بارجاعه ، ولقد تمكن الصبي أن يفهم بعض الفهم ـ وعلى قدر استطاعته ـ أسباب ترك أبيه اياه وهروبه عنه ، وأصبح مأنوساً بروح الشيخ حسين منتظراً تحقيق وعده واعادته الى حضن امه التي لم ينسها ، والى أبيه الذى لا يزال يذكر ملامحه كأنه واقف امامه ،

ويسعى الشيخ حسين لدى لجنة تقسيم خيريات [ أوده ] فيحصل لبيزي راتباً يدفع له كل ثلاثة أشهر مرة ، ويسعى لدى العلماء فيحملهم على مدّ يد المعونة الى بيزي وتخصيص مقدار من الخبز الذى يوزع على المعوزين والفقراء ، وتجاوز ذلك حتى راح يتخذ من بيزي وسيلة للاستجداء ، فيطرق جميع الأبواب ، ومختلف مظان الرحمة باسم هذا المنكود لينفق عشراً من المحصول على بيزى وتسعة أعشار، على نفسه ـ كما يقول سكان المدرسة وزملاؤه الطلاب ـ حتى لقد قيل ان أهل بيزى قد ارسلوا الى ابنهم هدية اختلف الطلاب في تعيينها ونوعها فلم يفهم عنها بيزي شيئاً ولم يلحقه حتى ولا جزء يسير منها ! !

مكث بيزي سنة وبعض السنة تحت ظـــلال الشيخ حسين وقد بدأ يشاهد ، ويحس بأن الشيخ حسين قد اتخذه جسراً لمآربه المادية ، وصير منه كشكولا لرزقه وكان يهون الامر لو أن الشيخ حسين كان صادقاً في وعده باعادة بيزي الى أهله وكان يهون الامر أيضاً لو أن الشيخ حسين كان يخصه بجزء مما يحصل عليه من العلماء ومن الناس باسمه ، ولـكن الشيخ حسين لم يعد الشخص الأول الذى عرفه بيزي ، ولم يبق ذلك الرجل الذي يبر لأجل البر ، ويعطف من أجل العطف ، فها هوذا يفحص جيوب بيزي في كل ليلة خشية ان يكون فيها شيء مما يمن به عليه عارفوه خلسة عنه وعلى غير دراية منه ، ليفرغها في جيبه ، فاذا ما تململ بيزي أو تضجر ، عوى له الشيخ حسين ثلاثاً أو اربعاً كما يعوي الكلب ، أو ماء كما يمـــوء القط فيضحك بيزي وتحل المشكلة ، أجل لقد مرت سنة وبعض السنة ساء فيهـا معتقد بيزي بكافله ، فراح يخفي بعض ما يحصل عليه وراء حباب الماء ، وتحت بلاطة السلم وغدا لا يضحكه العواء ، والمواء ، وما شاكل ، وتحولت نظرته الى الشيخ حسين الى نظرة أخرى فيها شيء من المقت ، وفيها شيء من الزراية ، ثم هو لم يعد يخاف الجوع بعد أن علمه الشيخ حسين طرق الاستجداء وعرفه ببعض الناس لاسيما وقد استقد لسانه ، واصبح يؤدي الغرض بالعربية اكثر من السابق ، حتى إذا رأى

نفسه ذات يوم واقعـــاً تحت تعنيف الشيخ حسين وهو يقرص اذنه قرصاً لاذعاً صمم على الفرار ففر .

* * *

خرج بيزي من المدرسة وقد أزمع النية على أن لا يعود اليها وأن لا يرى وجه الشيخ حسين بعد ذلك اليوم ، وقضى نهاره واقفاً عند بائع الخضر مرة وهو يرتب له باقات الخس، وعند الخبـــاز مرة وهو يتبرع له بصف الخبز ويعينه في تلقف الأرغفة من التنور ، وكان قد عرف بعض الناس لكثرة تردده عليهم ، ومنهم كان هذا الخباز وبائع الخضر ، لذلك كان لا بد له أن يقصدهما قبل أي أحد آخر وقد قضى طول يومه هذا جذلا فرحاً مأنوساً بمـــا هو فيه حتى إذا مالت الشمس نحو الغروب بدأت سحنة بيزى تنكمش رويداً رويداً وبدأ جذله يغيب مع الشمس شيئاً فشيئاً فلقد شعر ان الليل آت ، وانه لم يعرف أو لم يعين بعد المكان الذى يلتجيء اليه ، ولا يدرى هل سيسمح له الخباز بالمبيت في حانوته كما سمح له بما تبقى من كسر الرغفان ، أم هل سيقبله اولئك الذين آووه لأول مرة يوم تركه أبوه وحيداً وانهزم ؟ وأخيراً قر رأيه على العودة اليهم لمـــا رأى نفسه أمام الامر الواقع .

وقف بيزى على الباب نحو ساعة واكثر لا يطيق أن يطرق الباب ولا يستطيع أن يتخلى عنه ، وإذا بصاحب الدار والذى طالما كان يناديه بيزى ( بعمه ) يعود من السوق ليدخل البيت فيلقى بيزى واقفاً على الباب ولم يكن قد رآه منذ أن غادرهم في صحبة الشيخ حسين ، فما كان بيزى يدع مجالا لعمه أن يراه ولو مرة في السوق أو في الشارع أو في أى مكان آخر ، فهو لم يكد يلمحه عن بعد حتى ينزوى عنه خجلا ، ويلوذ وراء الجدران أو يندس بين المارة حياء من عمه ، ومع ذلك فما غابت ملامح بيزى عن عين ( عمه ) ، وما كاد يتأمله حتى قال :

ــ أكاظم هذا ؟

ـ قال : بلى يا عمي ( وترقرقت الدموع في عينيه )

قال ـ وماذا تريد ؟

لم يحر بيزي جواباً ، ولم ينطق بكلمة، بل وقف جامداً كالصخر لولا تساقط دموعه

قال الرجل ـ لم تعد لنا بك حاجة يا كاظم فارجع من حيث أتيت .

قال هذا وفتح الباب ودخل ، ثم أغلقه في وجه بيزي حانقاً ، ومر من هناك طفل ، وبعض الأطفال والعون بالعبث لحد الاذى فهذا حجر يرميه في الهواء بدون مبالاة ، وهذه كوة مطلة على الشارع لا يمنعه أن يقذف فيها دجاجة ميتة أو قطاً ميتاً وهو ماض في طريقه ، لذلك ما كاد هذا الصبي يمر ويرى بيزي واقفاً بانكسار أمام هذا البيت حتى دنا الى الباب وطرقه طرقاً عنيفاً تطفلا منه ، وارضاء لفضوله وعبثه ، ثم اطلق ساقيه للريح وولى هارباً ،

كانت الطرقات مزعجة جداً اهتز على اثرها الباب اهتزازاً عنيفاً استفز غضب صاحب البيت فخرج حانقاً وهو يحسب ان ذلك من عمل بيزي الذي ربما ساقه الانتقام الى التشفي بطرق الباب على هذه الصورة المزعجه ، وفتح الباب فاذا ببيزي لا يزال واقفاً حيث تركه قبل ساعة ، فاقترب منه قارصاً أذنه وبخشونة لا تعرف الرحمة قال :

ـ لم عملت هذا ؟

قال بيزي والدموع تتساقط من عينيه :

ـ بل الذى عمله صبي غيرى

فالتفت الرجل يمنة ويسرة ولما لم ير أحداً امسك بتلابيب بيزي وهزه هزاً عنيفاً ثم قال :

ـ ألم أقل لك اننا لم تعد لنا بك جاجة ؟ فلم لا تذهب ؟

قال بيزي والدموع تتساقط على خديه : ـ خل سبيلي يا عمي وسأذهب . . .

فلم يكن من صاحب البيت إلا أن وضع يده في ظهر الصبي وبدفعة واحدة

دفع به بعيداً عن الباب صارخاً به :ـ إذهب الى حيث لا أراك ،

وكان الأمر كما تمنى الرجل ، فلقد ذهب بيزى ، وانقطعت اخباره منذ تلك الليلة ، ولم يعد أحد يعرف عن مصيره شيئاً ، وكان ضرباً من ضروب النذور غير الشرعية ، وأثراً من جنايات الجهلاء الكثيرة التي ذهب ضحيتها المئات قبل بيزي وستذهب المئات بعد بيزي دون أن يعرف الناس عنها شيئاً ، وكان آخر كلمة سمعها الرجل من بيزى وكانت ممزوجة بحشرجة العبرة هي :

« سأذهب يا عمي الى حيث لا تراني »

ثم ذهب . . . ؟



ولم يكد ينحرف نحو الشارع الثاني إلا ويسمع صرخات طفله المتوالية بابا ـ بابا

قصة ـ المنذور

من ـ أولاد الخليلي

# دمعة المظلوم

# دمعة المظلوم

---

كتب لي مرة طلاب بعض المدارس يطلبون مني قصة لصحيفتهم الخطية التي يكتبونها بأقلامهم ويوزعونها على الطلاب بأيديهم – ولقد حيرني هذا الطلب أيما حيرة ، فأنا لا أريد أن أرفض لمثل هؤلاء الطلاب مثل هذه الرغبة ففي رفض هذا هذا الطلب شيء كثير من الاستهانة بالطلاب ورغباتهم، وشيء كثير من الكبرياء والتعالي على جماعة يلذهم أن يصدروا صحيفة خطية ، ويلذهم أن يساهم في تحريرها بعض الذين يحلم الطلاب بأن يترسموا خطاهم في عالم الصحافة والادب ، وإذا صح أن أكون أنا من هؤلاء الذين ينظر اليهم الطلاب أو القراء مثل هذه النظرة أو ينتظرون منهم المساهمة في صحفهم اشباعاً لتلك اللذة ، وتحقيقاً لتلك الغاية ،فما هو وجه الاعتذار ؟ وكيف يسوغ ان يرفض طلب لمثل هؤلاء ولغرض كهذا ؟ ولكن الحيرة هي فيما ينبغي أن يكتبه قصاص لهؤلاء وفيما يجب أن يختار من القصص ليصلح أن يكون موضوعا للصغار وحدهم أو للصغار والكبار معا

ولكني ذكرت – لقد ذكرت وأنا افكر – انني كنت طالباً مثل هؤلاء وانني شهدت زميلا لي كانت تتملكه نفس الرغبة وانه كان يتدفق حماساً ويفيض نشاطاً لتحقيق رغبته وتقليد ارباب الصحف فيما يفعلون ليخرج صحيفة خطية يملؤها بانتاجه من شعر، ونثر، وأفكار وصور – إذا لم يجد من يتعاون وإياه – ثم يخطها بقلمه

ويقوم بدور الموزع كما قام بدور المحرر والمخبر ، فينشرها على الطلاب نموذجاً من انتاجه الفكري وهوايته الصحافية ، وانتاج زملائه وهواياتهم الصحافية ، كما أراد أن يفعل طلاب هذه المدرسة الذين كتبوا لي تماماً .

وما اسرع ما اخرج الزميل الطالب فكرته الى حيز العمـــل ، وما أسرع ما رتب عدداً واحداً حوى الشيء الكثير مما أعده بنفسه حين عزَّ وجود من يساهم معه في تحرير صحيفته الخطية مساهمـــة فعالة ذات أثر إذا استثنينا بعض الطلاب الذين كتبوا له شيئاً مما يستظهرون من شعر، وأمثال ، حفظوها في صفوف الدرس .

وعرض المحرر العدد الأول من صحيفته على بعض الزملاء من الطلاب فتلاقفته الايدي ، وطافوا به بين ضاحك ، وساخر ، ومتفكه . وعبثاً راح يسعى لاستعادة العدد من الأيدي ، فقد تناقلته التلاميذ بين ايديهم حتى بلغ الصفوف العالية من المدرسة ، وحتى أصبح العدد موضوع تعليقات فكاهية كثيرة ، وكان بين الصور التي خطها المحرر بقلمه صـــورة قبيحة لقزم قميء كل ما فيه يشير الى السماجة والقبح والدمامة ، ولا اذكر الآن موضوع الصورة الذي حمل الزميل المحرر على وضعها بذلك الشكل الدميم ، فاستغلها أحد الطلاب ، وان شئت فقل عدد من القراء وكتب تحت تلك الصورة القبيحة أسم أحد المدرسين المكروهين من لدن أغلب طلاب المدرسة كما لو كان المحرر قد فعل ذلك عامداً ليثير السخرية في نفس الطلاب من المعلم المذكور ، في حين ان السبب الاكبر في قبح تلك الصورة وعدم تناسقها وتناسب أوضاعها انما كان نتيجة ضعف المحرر في التصوير ، وعدم استطاعته اخراج تلك الصورة اخراجا يتفق وما استهدف من الموضوع الذي اراد والذى لم تكن له أية علاقة ولا شبه علاقة بالمعلم المذكور .

وبلغ هذا العدد ـ لقد بلغ العدد ـ المعلم المشار اليه ورأى بعينه تلك الصورة القبيحة النابية الدميمة ، وقد كتب تحتها اسمه الكريم ، لقد رأى المعلم تلك الصورة

وقيل له انها صورت خصيصاً من لدن المحرر لاثارة الضحك منه ، والسخرية به ، تشفيا وانتقاما ، وكان المعلم المذكور هو الذى يقوم بتدريس الرياضة البدنية فى المدرسة ، وتدريس الرياضة يومذاك عبارة عن تعليم عسكرى محوّر يتعلم الطالب بمقتضاه كيف يجب أن يمتثل الاوامر ، وكيف يتلقاها طائعاً ؟ فيقف جامداً كالجدار حين يقال له : « قف » ، وكيف يدور على نفسه بحركة سريعة وبدون أية جلبة حين يقال له : « در » وكيف يضـــع البندقية ( وكانت بنادق هوائية تمتلىء بطريق الـكسر بالهواء ثم تعتدل بعد أن تحشى بحبوب الماش أو الحصوات الصغيرة استعداداً لاطلاقها ) أقول لقد كان تدريس الرياضة يوم ذاك ضربا من التعاليم العسكرية يتعلم بها الطالب كيف يجب ان يقف ، وأن يدور ، وان يضع البندقية على كتفه ، ويمسك بها من قاعدتها امساكا خاصاً لاينبغي أن يفرط فيه ، وفى سائر التعليمات قيدشعرة ، فيقف، ويجلس ، ويتجه حيث يراد ، والويل ثم الويل لمن تتلصص عيناه أو تتحرك فى محيط الحدقة ، والويل كل الويل لمن تتزحزح قدماه ولو لمليمتر، واحد والويل لمن تصدر منه نأمة أو ما يشبهها في ساحة التمرين ، وكلما يجب أن يكون هو أن يخرس الطالب ويعمى بل ويموت فلا صوت ، ولا حركة ، ولا ما يشبه الصوت والحركة ! !

وحان يوم الرياضة ،وحضر المعلم المذكور،واصطف الطلاب،وبدأت الايعازات الرياضية ، ثم دوّى صوت المعلم بغتة من بعيد صائحاً :

ــ « لا تلعب أيهذا الحيوان بزناد البندقية » ولـكن من منا يستطيع أن يلتفت ليرى من هو هذا الحيوان ؟ ان عيوننا جميعا كانت مسمرة في نقطة معينة أمامنا كما تقتضيه التعليمات ، وبعد لحظة عاد المعلم يصيح بحدّة ممزوجة بالتهديد :

ــ « ألم انهك ايها الحمار بأن لا تلعب بزناد البندقية » ؟

لقد دوى صوت المعلم بالتهديد ثم خطا المعلم الى صف الطلاب وما كاد يصل

الى زميلنا محرر الصحيفه حتى انزل البندقية من على كتفه ثم إذا بها لطمة على الخد ، وثانية ، وثالثة .

وبصوت خنقته العبرات قال الطالب :- ولكن لماذا ياسيدى ؟ لماذا ؟

قال - لأنى صرخت بك الف مرة وأنت لم تزل تلعب

قال - ولكني لم العب ؟ لم العب أبداً

قال - أفتكذب عيني ولطمة أخرى ، وثانية ، وثالثة .

وبكى الطالب ماشاء الله ان يبكي ، وراحت جهود الطلاب في تخفيف دمعته وتخفيف ألمه سدى ، وانتهى درس الرياضة وهو لا يزال يبكي ويبكي ، وشرعنا بدخول الصف لتكملة منهج الدروس لذلك اليوم ودموع الطالب تنهمر ، فلا يكاد يقف عن البكاء دقائق حتى تروح دموعه تتتابع قطرة أثر قطرة وفي أول ملتقى لي به بعد انصرافنا من الدرس دنوت منه وانا احاول تهدئته مذكراً اياه بالمئات من الذين تولاهم المعامون بالضرب والتأديب ممن يعرفهم هو في مدرسته، وممن لهم مقام اسمى من مقامه من حيث الذكاء والاجتهاد ومن حيث البيت والوجاهة ، فما منهم من عمل كما يعمل، وما منهم من بكى كما يبكي ، فكأنما لم ير بعينه تلميذاً مضروبا، وكأنه لم يكن هو نفسه الذى قد تلقى بعض هذا الضرب في عدد من المناسبات .

كل هذا قلته واكثر ، وكنت اخالس وجهه النظرات وهو مطرق لأرى وقع كلامي في نفسه ، وبانكسار لاازال أتمثله ، وبحشرجة لا عهد لي بها إلا في صدور المظلومين المكلومين الذين فشلوا في حياتهم ، وأسقط في ايديهم وبذلة تحكي ذلّة الاعزاء حين يهوون مرة واحدة من عليائهم الى الحضيض قال لي وهو لم يزل مطرقا والدموع تنهمر من عينيه قال لى :

- ولكني لم العب بزناد البندقية ، لم العب به ولا بغيره .

- قلت : وهب انك لم تلعب أفتظل تسح الدمع الى الليل ؟

ثم ضحكت من اندفاعه في البكاء كل هذا الاندفاع كما ضحك التلاميذ من قبل .

* * *

انني لم افهم يومها سر هذا البكاء الذى تجاوز الحد عند هـذا الطالب ، ولم افهم لم لم يقو زميلي هذا على تجفيف دموعه ؟ حتى كبرت ، وحتى صرت استطيع أن أعزو بعض الامور الى أسبابها ، وحينذاك فقط ، علمت ان دمعة المظلوم تختلف عن سائر الدموع وحينذاك فقط ، علمت ان من البـكاء ماهو مر كالحنظل ، إذا جاز ان يكون للبكاء طعم .

ذلك هو بكاء المظلومين ؟



وبلغت ( الصحيفة ) المعلم المشار اليه ورأى بعينه تلك الصورة القبيحة الدميمة

قصة ـ دمعة المظلوم

من ـ أولاد الخليلي

# إِنسَانٌ مِنَ العِرَاق

# انسان من العراق

قلت لصديقي ، وقد اجهدنا الصعود والهبوط بين أطلال بابل وتلولها قلت له : لِنَدْنُ من هذا السائح والسائحة والطفلين ، ولنر ما الذي يعمل الرجل في هـذه المحوطة التي اكثر فيها الذهاب ، والمجيء ، والانحناء ، والتخطيط على الأرض ، والاشارة فيها الى بعض الجهات ، وحين قربنا منهم سمعنا الرجل يتكلم الانكليزية بلهجة لا تدع الشك في انه اميركي ، وان السيدة الجميلة الأنيقة زوجتــه ، وان الطفلين الجميلين اللذين لم يزد عمر اكبرهما على بضع سنوات ، انما هما طفلاها ، وقد وقفا يصغيان بكل حواسهما الى كلام أبيهما الذى القاه في شبه محاضرة عن هـذه المحوّطة التي قال عنها انها بناية مدرسة قديمة منذ عهد حمورابي أى منذ الفين ومائة سنة قبل الميـلاد ، وقد بدأ يعلّم على بعض المواضيع من تلك المحوطة بالحروف الابجدية وفق ما ذكره الدكتور جيمس برستد فى كتابه « تاريخ المصور القديمة »

ثم نادى الامريكي ابنه الكبير قائلا :

ـ اقرب يا ( دبيس ) . . . . ثم حدق اليه جيداً وقال : ـ

« انني كنت فى سنك تماماً يوم كنت أجوب هذه الاطلال وأصعد هـذه التلول وأهبط منها في رفقة السواح الاجانب ، كما يفعـل المرشدون مقابل اجور زهيدة تدفع لهم كما تدفع الصدقات ، وهنا وفى هذا المحل التقيت لأول مرة بالمستر كلارك ولقد طفت حول هذه المدرسة القديمة وحول المعبد ، وهـذه الممرات التي

تراها والاسوار البابلية مئات المرات شارحاً للسواح بعض ما كنت تلقيته عن هذه الآثار عن طريق التلقف والاقتطاف »فقال ( دبيس ) :ـ إذن فهذا هو بلدك الذي طالما كنت تحدثنا عنه ونحن في ( شيكاغو ) ؟

قال الاميركي : ـ (وهو يبتسم) لا بل هذا هو محل عملي إذا جاز أن يكون مثل هذا محلا للعمل ، أما بلدى فهو على بعد كيلو مترين أو أقل من ذلك ، وسأريكم اياه بعد قليل ( إن شاء الله ) وقد نطق بكلمة ( إن شاء الله ) بالعربية !! نطق بها بلهجة فصيحة تدل على أن الرجل عربي ومن صميم العراق ، وانه من أهل الحلة كما يقول ، وقد كان يعمل في صغره هنا فى اطلال بابل في خدمة السواح ، والآن فان المظهر والهندام ، والزوجة والطفلين ، وسيارة الأجرة الفخمة التي تنتظره لتدل على أن الرجل ذو جاه ، وربما كان كبيراً ، ودنوت أنا وصديقي منه وقد أدهشنا ما سمعنا ،وعلى أنه ليس فيما سمعناه من شيء غير طبيعي ، فقد أفغرت الدهشة فاهينا ولبثنا نحو لحظات ونحن نحدق الى الرجل وزوجه وطفليه ،وأخيراً قطعت أنا الصمت بالسؤال التالي :

ـ أمن حقي أن اسأل عن اسم الأخ الكريم ؟

فأجاب بالعربية الفصيحة :

ـ ان اسمي الكامل كما عرفت به في شيكاغو هو ( هاسون شالاتاك الهوللي ) وفي الواقع ان ( هاسون شالاتاك الهوللي ) ليس إلا ( حسون شلتاغ الحلي )

فأضاف صاحبي الى سؤالي قائلا : ـ وهل من حقي أنا في عرف الأدب أن استحث السيد حسون على الاستمرار في سرد قصته التى بدأ يرويها لولده ( دبيس ) ؟

و كيف كان يعمل هنا في بابل دليلا للسواح ؟

قال :ـ لم لا . . ولكن القصة لا تحلو وهي مقتضبة مجملة ونحن (على الرجل) كما يقولون ، لا سيما وأنا على موعد يقتضيني أن اكون في بيت رئيس بلدية الحلة في مثل هذه الساعة لتناول الغداء .

يا لله ما أغرب هذه المصادفات!! وما أعجب ما يفاجأ به المرء في دنياه ، فلقد كنا أنا وصاحبي الآخران من ضيوف رئيس البلدية ، وكان علينا ان نكون على مائدة الغداء ظهر هذا اليوم!

فقلنا للسيد حسون : - نعمت المصادفة . . . فستجمعنا اليوم مائدة واحدة ، وستؤلف بيننا هذه المائدة صداقة نرجو أن تكون اكيدة وممتعة .

قال :- ربما ولكني للآن لم أعرف رئيس البلدية بعد ؟

قلنا :- فكيف إذن دعاك لتناول الغداء .

قال :- بل أنا الذى دعوت نفسى عنده ، فلقد ( تلفنت ) له أمس من بغداد وعرفته بنفسي وقد كان الرجل يعرف اسمى لمروره عليه في اثناء تدقيق حسابات البلدية وميزانيتها أو مصادقة الصرف والانفاق ، وقد قلت له انني سأتناول الغداء فى بيته اليوم إذا لم يجد في ذلك بأساً ، والآن فأهلا بالصديقين الكريمين تفضلا لأقدمكما لقرينتي ولطفلي .

قال ذلك وبدأ يقدم بعضنا بعضاً في جو مشبع بالبهجة ، واستقللنا نحن سيارتنا وتبعنا هو بسيارته الى بيت رئيس البلدية .

* * *

وقلنا له وقد ضمنا بيت رئيس البلدية :

- أترى انه قد حان الوقت الذى تعقب فيه على ما بدأت؟

قال :- لكم ما شئتم وليسمع الرئيس وليسمع الآخرون الذين تشرفنا هنا بلقياهم الحكاية ، فهي لا تخلو من عظة وعبرة ، قال :

- لم اعرف من اين انحدرنا بالضبط وكلما اذكر هو اننا كنا نسكن في بيت من سعف النخيل في احد البساتين القريبة من ( بابل ) يتصل باكواخ لعدد من فلاحي تلك البساتين ، اما نحن فليس لنا من تلك البساتين شيء ، فقد كنا غرباء نزحنا اليها من مكان لا اعرفه ، وقد جاء بنا ابي شلتاغ ليعمل هنا في حظائر

التمر ثم مات في اثناء الموسم على اثر سقوطه من اعلا النخلة ، وبقي جدى وجدتي لأمي، وكان أبي يعولها لا لأنهما أبوا امى فحسب وانما لأن جدي كان عمه ، ولأن جدتي كانت خالته ، وهما شيخان كبيران لا ازال اتذكر الجد يكرر بعيد موت أبي قوله :

« رادِ تَكْ يا ربي رادِ تَكْ ، رادِ تَك يا ربي رادِ تَك » أي انها إرادتك يا ربي ولتكن كما اردت .

لقد كان جدي شيخاً كبيرا لا يقوى على القيام والقعود ، وقد عمى قبل وفاة أبي بسنة ، وكانت جدتي هي الأخرى عجوزا لا تكاد تستطيع القيام بسد حاجاتها اليومية الخاصة ، وكانا يسكنان احد الكوخين اللذين يتألف منه بيتنا ، أما الثاني فنسكنه أنا ـ وقد كنت لما مات أبي في السابعة من العمر او اكثر قليلا ـ وأخت لي تكبرني بسنتين وأم كانت ساعد ابي في العمل بحظائر التمور وحياكة الخصاف من سعف النخيل واعداده للبيع ، فألفينا انفسنا بين عشية وضحاها وليس لنا من يعولنا غير أمي التي راحت تضاعف جهدها في حياكة الخصاف ثم جمع (السرجين ) من مراح الجاموس والبقر وجمع الروث والبعرور بمعونة اختي وعمل المطال منه وبيعه في سوق المدينة ، والجأتها الحاجة الى ان تقطع في اليوم نحو كيلومترين ذهاباً واياباً لتتولى القيام بخبز الخبز ، لبعض القرويين هناك لقاء اربعة ارغفة من خبز الشعير كأجرة لها ، ولست انسى ذات يوم وقد عادت امي والشوك قد ادمى رجليها وجلست تطلب معونتي ومعونة اختي في انتزاع الشوك من قدميها ذلك لأن الطريق الذي كانت تقطعه لتقوم بخبز الخبز كان كثير الشوك والعاقول ولكنها كانت امرأة عاملة نشيطة ، وعلى انها ليس من الحق أن تتعهد بكفالة ابويها العاجزين وانما ذلك من حق الجمعيات ودور العجزة لو كانت هناك دور عجزة وقد حملتني الحاجة انا الطفل الصغير على الحركة ، وساقتنى هذه الحركة الى ان اتبين لي طريقاً أو بعض طريق في اطلال بابل التي لم تبعد عن اكواخنا إلا قليلا فقد

كان بعض السواح والزوار يؤمون بابل فيلتقيهم بعض الاطفال وبعض الشبان ويبالغون في خدمتهم ، واصطحابهم والطواف بهم ، حول البقية الباقية من الآثار والاطلال ، وكان قد جاء يومذاك رجل لاأدري من اين ، ولكنه كان يتكلم الانكليزية ، وقد أقام هناك شهورا استخدم فيها بعض العمال في التنقيب والتصوير ولا ازال اذكر اول غنيمة غنمتها منه فكان لها الفضل الاكبر في ملازمتي لهذا المنقب وتعلمي منه بالممارسة بعض الكلمات الانكليزية ، فلقد رأيت صبياً يدخل خيمة هذا الرجل ويختطف منها شيئاً ، احسب اليوم انه جهاز التصوير ويفر به ، ولم يكن مني الا أن قصدت المنقب واعلمته بالامر ، فبعث من جاء له بالجهاز واكرمني من أجل ذلك بربية واحدة وسترة ألبسنيها ، ثم ربت على كتفي وقال هذه الكلمة التي لم تزل ترن في اذني لليوم (كلش زين) قالها مرتين ، وكان للربية شأن كبير ، فقد اشترت أمي ببعضها تبغاً لجدي الذي اضطر الى ترك التدخين اياماً لعدم استطاعته الحصول عليه ، وابتاعت بالباقي ثوباً لاختي فقد كان ثوبها الممزق لا يكاد يستر جسدها .

ومع كل ذلك فقد كانت امي نشطة توصل الليل بالنهار لتسد حاجاتنا ، ومرت سنة أو بعض السنة ، فاذا بنا نملك بضع قبب من المطال كانت قيمتها تضمن لجدي مواصلة التدخين ، وسد كل الحاجة ومقدار من التمر مقابل ما كانت تقوم به امي من العمل في الحظائر ، ومقدار من الشعير الذي كانت تشتريه أمي بثمن ما تبيع من الخصاف ، فتطحن شيئاً منه وتعجنه وتأخذ معها العجين لتخبزه مع ما كانت تخبز للناس بين كل يوم ويوم .

وذات ليلة كان المطر ينزل بغزارة كأفواه القرب خر علينا المطر من كوخنا البالي ، فلم ندر كيف نتقي المطر ، وكان البرد شديدا ولم يكد يطلع علينا النهار حتى وجدنا انفسنا في شبه بحيرة من المياه الراكدة فتولت امي سحب المياه من كوخ جدي وجدتي ، وتوليت انا واختي سحب المياه من كوخنا ، وكان نصيب اختي

اكبر من نصيبي في العمل ، باعتبارها بنتاً تكون اعرف من الصبي بمثل هذه الاعمال البيتية ، وحين اقبل الليل احست اختي بنحول ـ ما لبث ان استحال الى حرارة عمت كل جسدها ووخز وآلام في صدرها لا شك انها قد اصيبت بذات الرئة كما يبدو لي اليوم ، وباختصار فلا اريد ان اطيل عليكم الحديث لقد بقيت اختي مدة اسبوع تعاني أشد الآلام حتى قضت نحبها ،

وعاد جدي الشيخ مرة اخرى يملأ سمعي بتأويدته المعهودة وتكراره اياها مرة بعد اخرى ( رادِ تكْ ياربي راد تَكْ ، رادِ تكْ ياربي رادِ تَكْ )

* * *

والآن صار على الام ان تنهض وحدها بتكاليف هذين الشيخين العاجزين ، وقد كف بصر احدها ، وحال الضعف والشيخوخة بينهما وبين القيام بواجباتهما اليومية من غسل ونظافة وقضاء الحوائج البسيطة ، واصبحت امي تنوء بحمل ثقيل لا يخفف ما كنت اجيء به اليها بين آونة واخرى مما يدفع به الي المرتادون والجوابون من المواطنين وغير المواطنين ، لاسيما وقد سافر البحاثة الانكليزي من بابل وقد منحني بعشر ربيات وبدلة قديمة ، اعطيت البنطلون لجدي فعمل منه كوفية يلف بها رأسه .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل داهمتنا مصيبة اهتز لهولها وجودنا ولأول مرة رأيت جدي فيها ينحب كما تنحب المرأة الثكلى ، انه لم يعد يقول ( رادتك يارب رادتك ) ذلك لأن هول المصيبة قد هدَّ منه اركان الصبر فاذا به ينفجر بالبكاء ، فقد جيء بأمي على حمار يسوقه صبي وهي تتمايل ذات اليمين وذات الشمال فتسندها امرأة من اليمين واخرى من الشمال ، وقد كانت في حال لا يشبهها حال فقد قيل ان النار قد شبت في وجهها وهي تخبز فاحرقت منها خمارها ثم شعرها ولم تصل النجدة حتى اصابت النار اهم جانب من وجهها وهو عيناها .

ومرة اخرى لا اريد ان اطيل عليكم الحديث فاهيج اشجانكم واوقظ عواطفكم

الانسانية ، ويكفي ان اقول لكم ان امي قد ظلت تعاني آلام الحريق واهواله مدة اربعة شهور قامت بعدها عمياء كأبيها مشوهة الوجه وقد التوت اعصاب احدى يديها بسبب الحريق فانكمشت منها الاصابع ، وقد كان الذين احترقت امي بنارهم يذكروننا في أول الامر ببعض الارغفة واللبن ثم سئموا بعد ذلك من تكرار هذا العطف وملّوا وانقطعت عنا معونتهم .

والفيتنى وحدى مع الايام ، ولم اكن وحدى حقيقة فأنا مسؤول عن معيشة ثلاثه من العجزة أقعدت الشيخوخة اثنين منهم وهما جدى وجدتي ، واقعدت الكوارث التى لا يجوز ان يتجاهلها النظام الاجتماعي امى العزيزة التي كانت تعمل الأعاجيب لتعول ولدين يتيمين وابوين عاجزين فوجدتنى اندفع وراء الجائين لبابل والغادين منها بحرارة لم آلفها من قبل فأحصل على اكثر مايحصل عليه امثالي لما ابديه من نشاط مع المواطنين ،وما احسنه من بعض الكلمات الانكليزية التي كانت تفتح لي ثغرة في قلوب الاجانب الذين يرتادون تلك الجهـــات ، وقد يمر اسبوع واسبوعان فلا يصل احد من الزوار فتضيق الدنيا في نفوس اولئك العجزة الثلاثة وفي عيني انا ، ويعود الجد الى ذريعته وعكازه الذى الفه في الملمات تلك الذريعة التى تملأ لليوم ذهني :

( رادتك يا ربى رادتك )

نعم ، لقد كان البعض يذكرنا بشيء من الصدقات ولكن ذلك كان قليلا وغير مجد، وكان على سبيل المصادفة والاتفاق الذى تستدعيه مناسبة غير معينة ولامعلومة

* * *

وكنت قد تجاوزت السنة العاشرة وكدت ان اكمل الحادية عشرة واحسب ان ذلك كان في سنة ١٩٢٧ حين وقفت سيارة في الطريق العام وعنـــد مدخل تلول بابل،فنزل منها رجل وامرأة وولدان كما هبطت انا اليوم بابل لو لم يزيدونى برجل عرفت انه ترجمانهم ، وكنت انا اول من التقاهم من الصبية فرحبت بهم بما

اعرف من الكلمات الانكليزية ودعوتهم الى أن يتبعونى الى فوق ، فاذا بالسيدة تدهش، وكان كلامي فى نظر السيدة وزوجها ، حتى الترجمان ، أشبه بالمعجزة إذ لم يكن يترقب أحد أن يسمع طفلا قرويا يتمتم ببعض الكلمات الانكليزية ويؤدي مهمته وإن كان على هذا النحو من الركة والاغلاط المضحكة ، وسألني الرجل عن عملي وعن صفتي في هذا المكان ، ولكي استدر شفقته ، وأثير عطفه ، واستلفت انظاره الي حدثته بما يثقل كاهلي من القيام باعاشة ثلاثة من العجزة ذكرت له عن كل واحد منهم نبذة قام بنقلها الترجمان في وصف خلاب ، كنت افهم بعضه فيكاد قلبي يثب من الفرح لما كنت اقرأ على وجوه القوم ومعهم الترجمان من التأثر والكآبة والاهتمام.

وقال الرجل : ـ أأنت مستعد لأخذنا الى كوخك حين الفراغ من جولتنا بين الآثار ؟

قلت :ـ بكل سرور ( وكدت أطير من الفرح لما كنت اترقب من الخير في هذه الزيارة )

وتمت لهم زيارة كوخنا ، ورأوا هؤلاء العجزة الثلاثة ، وتحدثوا اليهم بواسطة الترجمان وسمعوا منهم الشيء الكثير حتى الكلمة التي كان يلوذ بها جدى عند الملمات فيكررها .

( رادتك ياربى رادتك )

هذه الكلمة لقد قام لهم المترجم بترجمتها فاذا بالدموع تنهمر من عيني السيدة وطفليها انهماراً ، وقالت السيدة ان رؤية هؤلاء العجزة والتفكير فى امرهم أهم للبشرية والانسانية من رؤية الف مدينة اثرية كبابل .

* * *

قال السيد حسون : ـ وعرض الرجل على اهلي معونته ، وقال انه سيترك لهم مرتباً لا يقل عن خمسة عشر دولاراً فى الشهر يتسلمونها بواسطة بلدية الحلة مدى

العمر ، وهو مبلغ يكفي يومذاك لأن يستخدموا به من يعنى بهم ويتكفل بمعيشتهم كذلك عرض عليهم استعداده لشموله اياي بعطفه وتكفله بتربيتي واهتمامه بتنشئتي إذا سمحوا له باصطحابى معه الى شيكاغو ، وكثر اللغط بين الجد والجدة والأم عن شيكاغو ، وهل هى قرية من قرى الحلة أو أبعد من ذلك ، ووافق بعضهم، وخالف آخرون ، حتي اتفقت كلمتهم أخيراً على الرضا ، وقال الجد انه يذكر ان قرية خصبة ، ذات بساتين ومزارع وخيرات بمثل هذا الاسم من ( شيغاغو أو غيشابو ) وهي فى اطراف عگرگوف على ما يظن . . . . ! !

وكيفما كان فقد تمت الموافقة وأقلتني السيارة معهم الى الحلة لمقابلة رئيس البلدية والتحدث معه لاتخاذ ما يلزم من المقتضيات لاصطحابى معهم الى اميركا ، وهناك قام الترجمان بتقديم الرجل الى رئيس البلدية وقال :

ـ انه المستر كلارك وزوجته المسز كلارك وطفلاها وهو من سراة القـــوم بشيكاغو ، وعضو فعال فى عدد من الجمعيات الخيرية وانشاء دور العجزة .

فقال الرئيس :ـ تشرفنا . . . . ورحب بهم كثيراً وتقبل معونتهم وتعهـد للمستر كلارك بأن يتولى تنظيم أمر جدّي وأمي بما وضعه المستر كلارك مقدماً من المبالغ تحت تصرف البلدية ، كما تعهد الرئيس بأن يلحقني بالمستر كلارك بعد يومين ببغداد ، حيث يقيم في فندق بابل ـ وكان يقع الفندق يومذاك فى جانب الكرخ وعند مدخل الصالحية ـ واحسن الرئيس صياغة الشكر على هـذه المبرة وأثنى على المستر كلارك وزوجته كثيراً ، فقالت المسز كلارك :ـ

ـ اننا نعمل يا سيدي الرئيس ليثبت كل واحد انه انسان ، فلم بعد هـــذا الشكر ؟ وما هو وجه الثناء ؟

* * *

قال السيد حسون كان ذلك قبل نيف وعشرين سنة ، ولم اكن حين سافرت الى شيكاغو اعرف القراءة والكتابة، فادخلت المدرسة على نفقة احدى المؤسسات

الخيرية ، واجتزت مراحل الدراسة الابتدائية والثانويه ومالت نفسى لدراسة الري وهندستها ، فالتحقت بجامعة مشيغن وتفوقت على عدد كبير من المهندسين ودخلت مسابقات هندسية لأقامة تصميم مشاريع الري الكبرى وربحت فى احدى المسابقات مبلغاً كبيراً وتزوجت ، من طالبة زميلة متعلمة هي هذه التي تعرفتم اليها ، وفي مشيغن وآن آربور تعرفت بعدد من الجالية العربية ، ويعود لهؤلاء الفضل في اتقاني القراءة والكتابة العربيه ، وكان جدي وجدتى قد ماتا ولحقت بهما أمي وانقطعت بى الأسباب ، ولكني لم اقطع الراتب الذي كان يدفعه المستر كلارك لبلدية الحلة في كل شهر ، بل واظبت أنا على ارساله بزيادة ، ولا تزال بلدية الحلة تتلق مني فى كل سنة هذه المبالغ عن طريق أحد البنوك لانفاقها على بعض العجزة ، كما قد خصصت مبالغ أخرى لتصرف على عدد من دور العجزة وايواء المشردين ، وكنت كلما انفقت مبلغاً في اميركا سجلته باسم « انسان من العراق » حتى صار هذا التوقيع شعاراً لي وحتى لقد عرفت بين البعض باسم « انسان من العراق » اكثر مما عرفت باسم المستر شالاتاك ، وكلما عدت بذاكرتى اليوم الى الماضي ثم استعرضت ما اصبحت فيه ، ادركت قيمة هذا المغزى من عناية المؤسسات بالعجزة والاهتمام بشؤونهم ، ترى ما الذي كان يكون مصيرى لو كنت بقيت وأنا أنوء وحدي تحت عبء تلك المسؤولية الكبيرة ؟

* * *

وهنا أشار رئيس البلدية قائلا :ـ ان الخوان جاهز وان الطعام حاضر ، وفي طريقنا الى غرفة الطعام وجّه صديق للسيد حسون السؤال التالي :

ـ وهل هناك ما يذكرك بوطنك العراق بعد كل تلك المرارة ؟

فجفل الرجل كمن لسعته حية وقال :

ـ هل هناك ما يذكرني ؟ . . . تعال يادبيس ، . . . وتعال يا فيصل ، واومأ لولديه وقال :

ـ وأية ذكرى أشد وقعاً في النفس من هذين الاسمين ؟ هذا سمي أمير الحلة القديم ، وهذا سمي جلالة مليكنا الحديث ، وبين هذين الاسمين سفر لا ينتهي من الذكريات الطيبة عن العراق ؟



قلت لصديقي : لندن من هذا السائح والسائحة والطفلين

قصة ـ انسان من العراق

من ـ أولاد الخليلي

# الحجية

# الحجيــة

---

قالت السيدة لميعة ـ وهي تعلّق على كلام زائراتهـا حول موضوع الخـــدم في البيوت ـ قالت :ـ

ـ ليست الأمانة والاستقامة والاخلاص وحـــده ، الذي تنشده ربّة البيت في خادمها ، وانما هنالك شيء آخر لعله أهم من هذا كله ، وهو السلوك الذى يبعث الاطمئنان وراحة البال فى نفوس سكان البيت والمخدومين ، وما الأمانــة والاستقامة ، والاخلاص ، إلا أمور ثانوية بالنسبة لسلوك الخدم مع مخدوميهم ، ولعلكن تذكرن خادمتي ( الحجيّة ) . . . تغمدها الله برحماته الواسعة ، فقـــد كانت مثلا اعلى للمرأة الصالحة ، الطيبة التي تملاء البيت كله سروراً ورضا بنهجها في الخدمة ، وسيرتهـا في اداء الواجب . وكيفية سلوكها مع الكبير والصغير ، وحتى الرضيع من الاطفال ، انها كانت مبعث الحسد ، ومثار الغبطة ، فقلما تعرف اليها واحد من الأقرباء ، والأصدقاء في بيتنا دون أن يحسدنا على وجودها عندنا ، وقلما تحدّث اليها أحد دون أن يؤخذ بروعة أحاديثها ، وأدبها ، والحجية امرأة أمية لا تقرأ ولا تكتب ، وقد تجاوزت الخمسين من عمرها منذ سنين ، وكادت تبلغ الستين ، ومع ذلك فهي فى نشاط عجيب ، وحيوية كبيرة ، وذهنية واسعة ، تذكر كل شيء ، وتحفظ الشيء الكثير من قصص الف ليلة وليلة ، والشيء الكثير من قصص الأنبياء ، وطائفة لا بأس بها من قصص الحيوانات التي يلذ سماعها

كثيراً للأطفال ، والتي كثيراً ما حملت اولادنا واولاد الجيران واولاد معارفنا وزوارنا على أن يلتفوا حولها في ساعة الفراغ أو حين يتسنى لها أن تعمل وتتكلم في آن واحد ، لتقص عليهم قصة من تلك القصص الجميلة الخلابة التي ربما اشتاق الى سماعها الكبار قبل الصغار ، والرجال قبل النساء ، فهي محبوبة الجميع وعلى الأخص الصغار الذين تهفو افئدتهم الى سماع الأقاصيص ونقل الحكايات .

والحجيّة دخلت في خدمتنا مدة اثنتى عشرة سنة ، وكنا حين عرفناها جد برمين بالخدم وجد حذرين منهم ومن سرقات اكثرهم ولكننا ما كدنا نتحدث اليها حتى عرفنا فيها المرأة الصالحة الطيبة ، والخادم الأمين الذي يغار على مصلحة مخدومه بأقصى حدود الغيرة .

ولم نحمد الله وحدنا على ما انعم علينا ، وانما شاركنا في حمدنا القريب، والجار والغريب ، فقد كانت الحجيّة نعمة حقاً ، وكانت آية من آيات البشرية ، في سعة صدرها وحلمها ، وانطلاق أساريرها ، وكل ما ينطبق عليه تعريف السلوك .

* * *

هذه هي ( الحجية ) تستيقظ عند الفجر لتصلي ، وبعد اداء الصلاة على وجهها الكامل تشرع باعداد الشاي والفطور للاولاد وتهيء لهم كل المقدمات التي يلزمهم بها الخروج الى المدرسة ، ثم اذا استيقظ الكبار ألفوا هم الآخرون كل شيء جاهزاً ، فيتناولون الافطار في شيء كثير من الاطمئنان والراحة ، وحين يتم كل هذا ، وحين لم يبق من لم ينل نصيبه من الطعام ، وحين ينصرف كل الى عمله تجلس ( الحجية ) حينذاك لتتناول كسيرة خبز قد تؤدمها بقطعة صغيرة من الجبن ، أو تأكلها مغموسة بقدح صغير من الشاي ، ثم تعمد الى الاواني فتجمعها والى المطبخ لتعد طعام الغداء ، وهكذا تعمل في جميع الاوقات ، وليس لها من الطعام إلا

النزر القليل والتافه الذي لا يغني من جوع ، وعبثاً يذهب معها الالحاح ، والحث على تناول أجود الطعام ، فهي قليلة الأكل ، كثيرة الشغل ، متقنة العمل ،

* * *

وليس للحجية إلا ولد واحد يعمل بعيداً عنها ، وبنت متزوجة تعيش في احدى المدن البعيدة ، ولم نر ابنها خلال هذه السنوات التى عملت فيها ( الحجية ) عندنا خادماً ؛ أما البنت فقد رأيناها مرتين أو ثلاث مرات فى اثناء زيارتها لأمها.

وفى كل سنة تسافر الحجية في اجازة لمدة اسبوعين أو اكثر ، لزيارة ابنها وابنتها ، فاذا بالجميع حتى الجيران يحسون بفراغها ملء النفس وملء المشاعر ، أما الاطفال ، واطفال المعارف ، واطفال الجيران ، فما اكثر تفقدهم لهـا وما اكثر تساؤلهم عنها :

ألم تجيء الحجية بعد ؟ ومتى تجيء ؟ لقد ابطأت الحجية وكان ينبغى أن تجيء قبل هذا اليوم ؟ وما شاكل هذه الاسئلة .

أما وديع ، وهو ابني الصغير ، فقد ظل مرة يبكي ساعتين واكثر وهو يصيح ( أريد الحجية . . . أريد الحجية . . . هسًا أريد الحجية ) .

والحق اننا وان كنا قد بررنا بها ولم نقصر ازاء خدمتها مما كنا نقدّم من راتب قلّ الذين يستطيعون ان يدفعوه لامثالها من امثالنا ، ولم نهمل واجبنا تجاهها فى الاعياد ، وعند قضاء اجازتهـا عند ابنتها أو ابنها ، وفي أي مناسبة أخرى ، والحق اننا وإن كنا لم نقصّر في كل ذلك ، فقد كنا نشعر بأننا لم نؤد إلا بعض الواجب تجاه هذه الأم الرؤوم ، والمرأة المخلصة المحبة التي لا تشوب محبتها لسكان البيت ومعارفه وزواره اية شائبة .

وكنا نود لو يتاح لنا تمكينها من حج بيت الله الحرام وزيارة مرقد الرسول

مرة اخرى على حسابنا تحقيقاً لأمنيتها ، ولكننا لم نوفق ، فقد تسنى لها أن تحج مرة يوم كانت تعمل في بيت آخر ، وفى مدينة أخرى مع مخدوميها قبل أن تعمل عندنا .

* * *

وذات يوم من ايام الربيع الضاحكة ، استيقظ سكان البيت من نومهم ولكنهم لم يلفوا الشاي معداً ، ولا الفطور جاهزاً ، ولم تجد ( سامى ) وهي ابنتى الصغيرة شيئاً مما يدل على أن الحجية مستعدة لتسريح شعرهـا وتصفيفه كما تفعل الحجية كل يوم قبل انصراف سامى الى المدرسة .

ونوديت ( الحجية ) فاذا بها نائمة على خلاف عادتها ، وطرق الباب عليها ، ولكنها لم تستيقظ ، وكثر الصياح والطرق على الباب الموصد بالقفل فما من مجيب وادركت انا الاطفال ، واشتركت معهم في صياحهم ، فلم اسمع جواباً وقد تملكني الخوف وخشيت أن تكون المرأة قد ماتت ، فما زلت بالباب ادفعه وأضغط عليه ويدفعه معي الأولاد ويضغطون عليه حتى فلت الرتاج وانفتح الباب على مصراعيه وإذا بالحجية جثة هامدة !!

وتحول هذا اليوم المشرق الضاحك الى يوم عابس ناكد في عيوننا جميعاً ، فجلسنا نبكي ولحق بنا الجيران باكين ، وأقبل علينا المعارف والاصدقاء في حالة لا تصدق من الجزع ، وندبها منا من كان يعرف أن يندب ، وغسلت بالدموع ، وكفنت بالقلوب ، ودفنت في جلال دونه جلال كثير من الأسياد والوجوه .

* * *

بعد اسبوع وقفنا مع موظفي المحكمة الشرعية نسجل مخلفات الحجية في غرفتها فاذا بالقلادة الذهبية التي افتقدتها ابنة جارتنا الصغيرة قبل اشهر ، تكشف عنها صرة من الخرق البالية !! واذا بأحد الاقراط الذي يخص ابنة اختي والذي ظن انها

قد أضاعته في الطريق ، كان يلمع في جانب آخر من تلك الصرة ! ! وإذا بعدد من الاساور والدبابيس والقلائد الثمينة التي افتقدها الزوار في بيتنا او التي أضاعها اولادهم في الطريق ـ على ما كانوا يظنون ـ وعشرات من الحاجات الصغيرة الثمينة التي تخص الأطفال من زوارنا ، وجيراننا ، كلها هنا وفي هذه الصرر ، أما التي فقدت قبل زمن طويل ، فليس من شك انها استحالت الى دراهم في اثناء تمتع ( الحجية ) باجازاتها السنوية ! !

* * *

لقد كانت الحجية تحسن سرقة الاطفال الذين يؤمون دارنا ، وتحسن تغطية هذه السرقة ، ولو كان الله قد مدّ في عمرها لظلت تسرق الى ما لا نهاية له ، دون أن يشك بها أحد ، ومع ذلك فقد كانت مرضيّة عندنا ، محبوبة عند الجميع ، ومن يدرينا فلربما كانت ستظل مرضيّة لو عاشت حتى مع اكتشاف السرقة ، ذلك لأن السلوك الطيب طلاء لا نظير له في ستر العيوب ، وفي سرقة القلوب ؟



. . . كثيراً ما حملت أولادنا وأولاد الجيران وأولاد معارفنا على أن يلتفوا حولها ساعة الفراغ .

قصة ـ الحجية

من ـ أولاد الخليلي

# لقمة الحوض

# لقمة الحوض

قبل عدة سنوات كنا نسكن داراً هي في الأصل جزء من عرصة كبيرة في وسط مدينة النجف المقدسة ، تقاسمها ستة أشخاص شراء ، وبنى كل واحد في جزئه بيتاً لسكناه ، وكنا نسكن في الطرف الشمالي من هذه الدور ، وكان يسكن الشيخ احمد البادكوبي في الطرف الجنوبي منها ، وعلى رغم وقوع دار واحدة بين مسكننا ومسكنه ، فقد كنا نسمع كل حركة من حركاته ، وكل كلمة من احاديثه ، لاسيما في فصل الصيف الذي تتناقل فيه الريح كل نأمة ، وكل همسة بين سطوح البيوت لقرب بعضها من بعض في أغلب المدن العراقية ، ولم يكن السبب في سماعنا هو القرب وحده الذي تعود اليه كل هذه المصائب التي نعانيها من نتانة حوض الشيخ احمد وروائحه الكريهة المنبعثة من اختلاط اوساخ الثياب ، ودسم اللحوم ، الحوض الذي يبقى شهوراً ، وشهوراً ، دون أن يتجدد ماؤه ، حتى كاد يضرب لونه الى البياض ويصبح كاللبن الرائب دون أية مبالغة ، أقول لم يكن السبب في انتقال الصوت من بيت الشيخ أحمد وعبوره الدار الفاصلة بيننا وبينه وبلوغه آذاننا هو القرب وحده ، وانما لصوت الشيخ احمد الجهوري ، وصوت زوجه العالي ، كل الأثر في الموضوع ، فالشيخ أحمد رجل قفقاسي تركي ، نزح من باكو الى النجف ليتفرغ لتحصيل الفقه ، ويحشر ضمن طلاب الدين والشريعة ، وقد جاء

من هناك بصوت خشن أجش إذا اطلقه « طنت له الطاس » النحاسية وارتعشت الصحون البرنزية ، فاذا برنينها يملاء الأذن عشرات الثواني ، كما جاء معه من هناك ببسطة في الجسم ، وثقل في الوزن ، إذا مشى خلت ان الأرض تنذر بالزلازل ، واذا نزل السلم خشيت أن ينطبق عالي الدار على سافلها ، والحق ان لطراز البناء في (النجف) وفي اغلب المدن العراقية الذي يجعل سمك الجدار كسمك الرغيف أثره العميق ايضاً فيما يحدث للعمارة من هزة ورجة .

والشيخ أحمد ذو شخصيتين متناقضتين ، يبدو في خارج البيت غير ما يبدو في داخله ، فهو على قدر ما عرف به من الحركة والصياح ، وقراءة الأدعية ، واداء الاذان في الفجر بصوته الخشن الجهوري ، وبالتركية الفخمة الضخمة ، فانه يبدو في الشارع ، وفي السوق ، وفي ندوة البحث والدرس هادئاً ، ساكناً ، تكاد تعد نبرات صوته عدا لا تزانها ، وللحياء الذي تنم عليه كل جارحة من جوارحه ، وهو دائم التمتمة كثير التسبيح ، تعلو ثغره ابتسامة حلوة عذبة ، وعلى أن السمان الضخام الجثة قد خصهم الله بمزاج أقل صفاته الدعة ، والمرح ، والظرف ، فان هذه الدعة والمرح والظرف الذي تطفى به نفس هذا الشيخ وتفيض به ملامحه ، يكاد يكون شيئاً ممتازاً بين تلك الصفات التي تلازم السمان ، وتنم عن امزجتهم ، لأنه من نوع أسمى وأرفع وأدل على الجمال الروحي عند شيخنا هـذا ، أما لم يبدو هذا الشيخ في هاتين الصورتين المتناقضتين ، ولم يكون في البيت غيره في الخارج ؟ أما هـذا فلم يعرفه الجيران بعد ، وكلما نعرف ، هو أن الرجل لا يخلو من شراسة خلق ، وشكاسة طبع في بيته ، وهو في نزاع طويل وعربدة لا تنقطع في بعض الاحيان مع زوجته القفقاسية ، ونحن وإن كنا لا نعرف التركية ، فقد بدا لنا ان زوجه تشق عصا الطاعة بعض الاحيان ، وتكيل له صاعاً بصاع ، وترد عليه هجماته بنفس الوزن والقافية ، ذلك ما نستنتجه ويستنتجه الجيران من قذائف الكلمات الضخمة الفخمة التي يتراشق بها الطرفان ، دون أن ينتظر احدهما الثاني ليتم

حديثه ، فيحملنا التطفل أو حب الاطلاع على الاستفسار من الزوجة والزوج فلا نجاب بأكثر من ابتسامة منبعثة عن حياء طبيعي واعتذار عما يسببانه للجيران من ازعاج من جراء أمور تافهة فنشعر ويشعر الجميع ان هنالك اموراً خاصة غير ذات أهمية بين الزوجين لا يسمح الادب ، ولا يجيز العرف ، التطفل على معرفتها .

وحين التفت الجيران كلهم أو بعضهم ألفوا ان هذا العراك والشجار الناشب بين الزوجين والذي تناقلته الرياح من بيت الى آخر ، ومن سطح الى ثان ، انما يبلغ شدته في أوقات خاصة ، هي على الدوام تأتى بعد الولادة ! ثم أيدت الملامح والمظاهر والكلمات التي كانت تطفر وتفلت من فم الزوجة على غير اختيار في اثناء الاحاديث العامة ، ـ لقد أيدت ان لهذه الشراسة التى تبدو على الرجل في البيت بعض الاحيان فتصل اخبارها الى الجيران ـ ان لها حكاية ، تتلخص في أن الرجل لا يثور هذه الثورة إلا بعد وضع الزوجة حملها ، وبعد أن يرى ان المولود قدجاء انثى ، فهو كثير الكره للبنت ، شديد المقت لها ، وقد رزق خمس بنات عشن ، وثلاث بنات متن بعد مجيئهن الى الدنيا بأيام ، أو بساعات ، وهو واياهن في مزح ودعابة مرة ، وفي ضرب مبرح وركل في اكثر المرات ، لأنه يكره البنات . . .

لقد ظهر ان الرجل لا يطيق مسك نفسه اذا بشّر بالانثى ، وان هذا الوجه البشوش الضاحك سرعان ما يرتد كالحاً مربداً عندما تقع عينه على المولودة فلا الصبر يستطيع أن يصده عن الصياح والصراخ والعربدة ، ولا الايمان بالله يستطيع أن يدخل على نفسه السكينة والاطمينان والخلود الى الراحة ! ! ويظل هذا شأنه حتى يمر وقت يتناسى فيه المولودة الحيّة ، أما الميتة فما اسرع نسيانه اياها ، ويعود الى طبيعته ، فنسمع منه رنات الضحك المتعاقبة المتبادلة بينه وبين زوجه بما اوتي من قدرة على فتح شدقيه واطلاق صوته ! ! وكل هذا التفاوت انما يحس به الجيران في سيرته البيتية ، اما في الخارج فهو هو ، هو الوداعة والرقة ، وهو البسمة الحلوة العذبة ، والتمتمة المقتصرة على ذكر الله والتحية ، وزوجه هي هي تضج

وتصرخ ، وتبكي ، وتستغيث ، وتشتم كما يفعل هو تماماً ... وحين يستفسر منها عن السبب ، أو حين تقبل على الجيران ، تقبل وقد جففت عينيها ، ولطّفت حديثها ، ورققت الفاظها ،واعتذرت ـ وهي تضحك ـ بمعاذير قد تكون واهية ، ولكنها كافية لايقاف الناس عند حدهم من التطفل والسؤال، ثم لا نعود نسمع عنها فيما تنقل الينا الريح من الاصوات إلا الرضا وإلا السلوان .

* * *

ما أدري كم مر من الزمن حتى ألفنا هذا الجار على هدوئه الدائم في الخارج وسكوته الموقت في البيت ولكن ذلك كان طويلا ، ولقد علمنا ـ كما علمنا من قبل ذلك مرات ـ ان الزوجة حامل وأنها على وشك أن تلد ، وان الذين تحققوا من خلق الشيخ وأسباب ثورته حسب استنتاجتهم ، أو الذين كانوا في شك من ذلك ليدعون الله بأن يكحل عيون الزوجين برؤية الصبي ، وان تعود المرة التاسعة بالخير على هذين الابوين فيأتي المولود ذكراً ويسدل الستار على ذلك الماضي المشوب بالنكد والمرارة من جراء وضع الزوجة بناتاً .

وكما استطاع ان يعنى المترقبون والمتتبعون بسيرة الشيخ احمد أيام ثورته وجموحه وتدفق الفاظ الغضب ممزوجة بالزبد من فيه ، اقول وكما استطاع المتصدون ان يعينوا أوقات غضبه وهياجه في البيت ، فقد استطاعوا أن يعينوا زمان ثؤوبه الى رشده ، وعودته الى طبيعة مزاجه ، فهو لا تكاد تحمله ارض لفرط فرحه حينما تكون زوجه حاملاً ، وهو لا يكاد يستقر في مكان لكثرة ما يصعد هذه السلالم فيحدث في البيوت الرجة ، وكثرة ما ينزل فتخال البناء على وشك أن يسقط ، ولقد تحدث غير واحد من الجيران ـ كما تحدث من قبل ـ فتمنى فى حديثه لو ان الطبيعة عاكست الرجل في هـــذه المرة فجاءت له ببنت تاسعة لتسمع زعقاته تهز البيوت وصوت ( كب أوغلي و إشك اوغلي ) الذى كثيراً ما يصبه في آذان بناته بعد الولادة يشق عنان السماء ، ولقد حققت الصـــدف تمني هـــذا البعض من قبل .

وسمعوا ما تاق اليه مرحهم أن يسمعوه من شتائم هذا الرجل وزعقاته بالتركية، فضحكوا ما شاءت لهم نفوسهم ، أما في هذه المرة فالعلم عندالله ، عندالله وحده .

* * *

وذات ليلة انتبه الجيران على صوت الشيخ أحمد يلعلع فى الفضاء ، وقدأضاع رشده واضاع طريق الكلام فهو لا يدري ماذا يقول ، وقد كانت الكلمات مزيجاً من التركية والفارسية والعربية ، أرسلها بكلما أوتى من قوة ليعلن فيها كفره وليلعن من زوجته ابويها . ثم اعقبت صوت الرجل زعقات للزوجة منكرة أشبه بهذه الزعقات التي يشيع بها الموتى فى الارياف وفي بعض المدن ، وهرع الجيران الى بيت الشيخ احمد فألفوا القابلة واحدى صديقات الزوج ذاهلتين واجمتين والبنات يبكين خائفات وجلات ، والأم تهتز كما تهتز الاشجار أمام العواصف ،والرجل أشبه ما يكون بالمجنون يحار ماذا يعمل وماذا يقول .

لقد وضعت المرأة توأماً ، لقد وضعت بنتين مرة واحدة !! ولم يكن الرجل حاضراً في البيت ، وحينما جاء وعلم بالخبر حمل البنتين فألقى بهما في ذلك الحوض العفن الذى طالما شكى الجيران من رائحته النتنة ، وكان الزمن زمن ( فترة ) وهو الزمن الذي حكمت مدينة (النجف ) ثلة من الطوائف ،فلم يعاقب الرجل ، ولم يجر التحقيق معه ومع زوجته !!

أيكون هذان التوأمان أول ضحية للرجل واول لقمة لهذا الحوض ؟ أم أن البنات الثلاث اللاتي متن من قبل قد رحن لقمة سائغة لبطن هذا الحوض دون ان يعلم احد بذلك ؟



وحينما جاء وعلم بالخبر حمل البنتين فألقى بهما فى ذلك الحوض العفن

قصة ـ لقمة الحوض

من ـ أولاد الخليلي

# الحاج حسين البقم

# الحاج حسين البقال

في مفترق أربعة شوارع من احدى المحلات حانوت حوى كلما تحتاج اليه المحلة من لوازم ( البقالة ) وكثيراً من حاجات البيوت اليومية ، يديره رجل بالرغم من تجاوزه الستين فانه لا يزال محتفظاً بنشاط الشباب ، وروعة الكهولة ، ومنذ اربعين سنة وهو يقتعد هذه الدكة من الحانوت يزن ، ويبيع ، ويرتب ، وينظم معروضات الحانوت والمؤون فكان اشهر من نار على علم ، فاذا ما أريد وصف طريق ما لموقع من مواقع المحلة قيل انه : واقع في الطوار الايمن أو الايسر من حانوت الحاج حسين البقال، وفي الجهة الأمامية أو الخلفية من شارع الحاج حسين ، أو الجهة المعاكسة طولا أو عرضاً من دكانه ، فكان اسمه اشهر اسم بين اسماء المحلة، وكان حانوته اظهر موقع من مواقع البيع والشراء ، بل كان المركز المهم لمعظم سكان الحارة .

ولم تجيء شهرة الحاج حسين البقال عفواً وبدون ثمن وكلفة ، وانما كانت نتيجة سلوك خاص لملكة انفرد بها الحاج حسين بين جميع البقالين فكانت مظهراً لفعالية لم يستطع ندّ له ، أو قرين ، أن يجاريه فيها ، تلك الملكة التي جعلت منه شخصية محبوبة احتلت من نفوس سكان المحلة اسمى المواقع ، حتى كان الحاج حسين موضع اشارة الجميع حين يجيء ذكر الفضيلة والمكرمة ، وطهارة الضمير ، والمروءة والسخاء !!

ولم لا يكون الحاج حسين كذلك ؟ وهذه حفلات العرس ، وحفلات الختان، ومجالس الفرح والمآتم، لتشهد جميعها على ما للحاج حسين من أياد بيضاء يذكرها له الجميع بالثناء العاطر والشكر الجزيل ، فهو لا يسمع بعرس أحد من سكان المحلة سواء كان من زبائنه او لم يكن إلا وكان في مقدمة المهنئين وقد سبقته الى بيت العريس أو العروس ببعض الهدايا المناسبة من الشاي أو السكر أو القهوة أو السجاير أو أي شيء مما اعتاد الناس أن يتهادوا به في مثل هذه المناسبة .

وهو لا يكاد يسمع بوفاة أحد من أبناء المحلة إلا ويكون أول الخافين لحضور التشييع ، ولتعزية آل الفقيد ، بل أول المساهمين في معونة مجلس ( الفاتحة) بما يتناسب وأحواله .

بهذا وأمثاله كان يتبوأ الحاج حسين تلك المنزلة من القلوب ، ولهذا السبب ولأمثاله كان يترك سكان المحلة السوق ليقبلوا على الحاج حسين يشترون منه حاجاتهم اليومية من سمن ، ودبس ، وسكر ، وشاي ، وكلما يلزم البيوت من الحاجات .

والحاج حسين لا يكتفي بما يوزع على زبائنه ـ الواقفين على حانوته ،والعابرين من احدى الطرق المتقاطعة،والمشيرين اليه بأيديهم ـ من تحيات التكريم من بعيد ، انه لا يكتفي بما يوزع عليهم من ابتسامات ، وتحيات معسولة ، وكلمات حلوة عذبة ، ولا بما يرسل عبر الشوارع وما يقرط به اذان الملتفين حوله من طيب الكلم حين يرد على هذا قائلا :

ـ اغاتي ، عيوني ، معلاني ، عبدك الزغير . . .

انه لا يكتفي بكل هذا بل يعمد الى ميزانه فيضيف الى السكر الموزون أو السمن او الشاي ، وغير ذلك حفنة أخرى وكيلة ثانية زيادة في اكرام مشتريه، ثم يدفع بقطعة من ( الشكولاتة ) أو شيء من النقل أو العلك ، لهذا الطفل الذي صحب أباه أو أمه لشراء حاجة ، وكثيراً ما صحب الاطفال آباءهم وامهاتهم فذكروا الحاج

حسين بوجودهم إذا ما نسى مرة أو ألهته كثرة المشترين عن الالتفات اليهم ! !
كل ذلك يفعله الحاج حسين مبالغة فى السخاء الذي عرف به ، وغلواً في اللطف الذي اتصف به .

ولقد اخذ عنه السيد ناجي هذا الدرس وأتقنه حتى كان خير من استخدم الحاج حسين كاتباً وعاملا ، وراح هو الآخر يبالغ فى اكرام الزبائن ومسامحتهم ، ويقتفي اثر ( استاده ) فى كيفية معاملة المشترين، فينثرعليهم الالفاظ الجميلة ،والنقل و ( العلوك ) ، والشكولاته كما يفعل الحاج حسين بدون أقل زيادة أو نقصان ! !

وعلى أن هذا ليس بالأمر الهين الذي التزم به الحاج حسين ودرّب عليه عامله السيد ناجي فأن هنالك مزية أخرى لها من الأهمية الشيء الكثير جعلت شهامة الحاج حسين وسخاءه موضع حديث الجميع في كل مناسبة تستدعي ذلك ، فقد عوّد الحاج حسين سكان المحلة على أن يحذف من دينه عليهم بعض المبالغ حين يحين تسديد الحساب ! ! فاذا بلغ حساب زبون خمسة دنانير وستمائة فلس مثلا وحان موعد وفاء الدين مدّ الحاج حسين يده وبخط واحد من القلم اسقط ( الفلوس ) من الحساب واكتفى بأخذ الدنانير الخمسة دون ان ينتظر على ذلك شكراً أو يرجو جزاءً ! !

وقد تتساءل : ترى ما هو ربح الحاج حسين ؟ وكم هو مدخوله ما دامت يده مبسوطة كل هذا البسط ؟ فيقال لك ان الله قد آتاه من حانوته هذا أضعاف ما آتى الآخرين من محلاتهم التجارية الكبرى ، لكثرة ما يبيع ، وكثرة مايستهلك فى اليوم من البضائع ، وقد امتلك مما أفاد عدداً من الدور و ( المسقفات ) ونقوداً غير قليلة في المصارف ، واعتباراً مالياً لا بأس به ! !

قضى الحاج حسين أربعين سنة على هـذا النحو يطلب رضا الناس ، ويسخو حباً بالسخاء ، وقد اعتاد عامله ( السيد ناجي ) هذا النمط من السلوك حتى أصبح اسمه مقروناً باسم استاده المحبوب ، وصار السيد ناجي هو الشخص الذى يسد فراغ الحاج حسين إذا ما أقعده المرض وانشبت فيه المنية اظفارها . . .

ومن الذي لا يذكر الحاج حسين بالخير ؟ وللحاج حسين في كل بيت أثر جميل ، وذكرى طيبة ، ومن الذى ينسى فضل الحاج حسين ؟ وللحاج حسين كرمه المشهود في اسقاط قسم كبير من دينه عليهم ؟

* * *

مات الحاج حسين ولا تسأل عما خلف فى قلوب الناس من أسى ، وقد عز نعيه على جميع سكان البلد ، وأهل المحلة ، ولـكن العزاء كان في بقاء السيد « ناجي » الذي اشترى دكان البقالة هذا من ورثته ، وكان قد ورث السيد ناجي جميع خصال استاذه الحاج حسين واخلاقه، ولقد عاف الناس آل الحاج حسين يوم توفى وراحوا يعزّون السيد ناجي ويخصونه بالتسلية والدعاء بالبقاء ... ولكن لم يمر بعض زمن حتى بدأ السيد ناجي يتغير بعض التغير ؟ فهو لم يعد يرضى بتنزيل مبلغ من الدين لأحد كما كان يفعل استاده ! ! ولم يرض أن يزيد الموزون وهو فى الميزان كما كان يفعل أولا فى اثناء حياة الحاج حسين ؟ ! وبدأ هـذا السخاء الذي عرف به السيد ناجي ، والتساهل الذى طبع عليه فى عهد استاده ، لقد بدأ يتبخر ، ويزول ، ويحل محله بخل لاعهد لسكان المحلة به من قبل !!

* * *

ومرت أيام وأسابيع فاذا بالناس يرفضّون عن السيد ناجي ويشيحون بوجوههم عن دكانه ! ! وقد بدأ ظله يتقلص ، وبدأت شهرته تضمحل ، دون أن يعرف أحد سر هذا التغيير الغريب ، حتى اشرف السيد ناجي على الافلاس ! !

ووقف ذات يوم صديق حميم للسيد ناجي وقف ينصح ناجياً ، ويلومه على تغيير اخلاقه ، ويطلب منه أن يعود فيحسن سيرته ليعيد الثقة الى النفوس ، ويستعيد مكانته من قلوب الناس . ثم أغرق في لومه وتعنيفه ، ولـكن السيد ناجي مطرق ، صامت ، لا ينبس ببنت شفة ولا يحرك ساكناً . . . ! !

* * *

وبعد صمت طويل ... تمتم السيد ناجي ببضع كلمات غير مفهومة ثم حوقل واسترجع وبعد ذلك قال :

« أنا يا أخي كحبّة برّ بين طابقي رحى، من تحتي صخر، ومن فوقي صخر وأنا لا أجهل مصيري ولست بغافل عن صدوف الناس وانصرافهم عني، ولكني لا أطيق أن أعمل ما كنت أعمل فى حياة استادي غفر الله له، لأنى كنت قبل اليوم اشتغل له أما اليوم فأنا اشتغل لنفسي، فهل أنت مصر على أن تعرف ما كان يعمل استادي مما لا أستطيع أن أعمل أنا ؟ أمصر على أن تعرف ذلك ؟ »

قال ـ كل الاصرار

قال ـ انه ليشق علي أن اطلعك على السر، ولكني سأطمئن بأنك لن تبوح به لأحد وستظل تحترم ذكرى ذلك الرجل الطيب كما احترمها أنا »

وحين اطمأن من صديقه قال :

ـ لم يكن الحاج حسين اكثر مني نشاطاً، وليس اكثر مني براً بالناس، ولكنه رجل كان قد انقص الكيل ولعب بالاوزان حتى جعل عيار الاقّة لا يزن إلا ثلاثة أرباعها أو دون ذلك !! وكان كثيراً ما يغش السمن، والشاي، واغلب الحاجات بمهارة فائقة، ومقدرة عجيبة، ثم انه رجل لا يكتب لنفسه على أحد ديناً إلا ويضيف عليه مبلغاً من المبالغ، مستغلا الثقة الكبيرة التي يضعها الناس فيه بناء على حسن سيرته، ولطفه، وكرمه، فيلعب بالديون لعبة يضمن لنفسه الربح الوفير دون أن يتطرق الى حسابه الشك والارتياب !! وهو حين يريد أن يكرم، وان يهب ويغض الطرف عن بعض ديونه، فانما يفعل ذلك على حساب زبائنه وليس على حسابه، وهكذا استطاع أن يملك القلوب، ويتبوأ تلك المنزلة الرفيعة من النفوس، ويمتلك ما يمتلك من المال والعقار.

أما أنا ـ قال ذلك السيد ناجي ـ اما أنا فمنذ أن رجع الي الأمر رأيت أن لا آخذ إلا ما كان لي دون زيادة، واعطي ما للناس دون نقصان، وماذا أعمل إذا كان الناس يأبون إلا سلوك الطريق المعوجة التي يتنكب فيها المرء العدل والحق، وأنا لا أطيق أن اتنكب الطريق المستقيم على ذمتي، فتعسا للناس ... ورحم الله الحاج حسين الذى عرف الناس حق المعرفة، واستطاع أن يكيّف نفسه كما يريد الناس، لا كما تريد الذمّة »



ومن الذي لا يذكر الحاج حسين بالخير ؟ وللحاج حسين في كل بيت أثر جميل

قصة ـ الحاج حسين البقال

**من ـ أولاد الخليلي**

# الذكرى

الذِّكْرىٰ

# الذكرى

---

( خربة سلّم ) قرية من القرى اللبنانية التابعة لمدينة ( صور ) ، حلّت بها ويلات الحرب العامة الاولى كما حلّت بأغلب القرى في تلك الجهات ، فتركتها كالرماد إذ تذروه الرياح ، وقد فتك الجوع باكثر سكانها فتكا ذريعاً ، وحمل طائفة كبيرة على بيع ما تملك من حجر أو مدر والفرار الى حيث لا يدرون ، ولقد كان الحال من اليبوسة والجفاف بحيث لم تبق على غصون الشجر ورقة خضراء وكان من الضيق بحيث لم يبق تحت الشجرة خيال لطائر من الطيور المأكولة أو غير المأكولة ، لا بل لم يبق على الارض أثر لكثير من الحيوانات التي لم يكن يرتضيها المسلم وغير المسلم مأكولا له قبل تلك الحرب الطاحنة اللاهبة ، فمرّت على تلك الاصقاع وعلى هذه القرى ، ومن ضمنها قرية ( خربة سلم ) خاصة أيام سود حالكة وفي غاية الحلكة والشقاء ، عانى منها آل ( الطويل ) وكلبهم الأمرّين...

وآل الطويل هؤلاء أسرة كانت تتألف من زوجين وثلاث بنات وولدين وكلب، باعت كلما تملك ، ومن ضمنه كان بيتها القروي في هذه القرية لتبقي على حياتها ، ولتؤمن لنفسها السلامة ، ولكن ذلك لم ينفعها إلا قليلا وقليلاً جداً ، فلقد مات الكلب أول من مات ، وماتت إحدى البنات ثانى من ماتت ، وأعقبتها أختها الكبيرة ، ثم أخوها الكبير ، ولم يبق غير الزوجين وولد وبنت . . . ! !

أما الزوجان فكانا في غاية الضعف والخور ، وهما يقطعان الطريق الوعرة من

هذه المنطقة متجهين صوب ( الشام ) ، وأما الطفلان فكانا أقوى من أبويهما مجالدة وقوة في ذلك النهار ، لأنهما استطاعا ان يفوزا بكسيرة من الخبز الاسود الصلب فيستأثرا بها دون أبويهما ، ولكن التعب الحاصل من قطع هذه المسافة على الرجل قد جعل هذين الطفلين ، وهما الأخوان ، فى غاية ما يوصف من الضعف والانهيار ، فاذا بهما ممددان في الطريق الى جنب أمهما المغمى عليها ، وأبيهما المنحني عليهما ، وتمر ليلة تنفصم فيها من سلسلة هذه الاسرة الحلقة الماسكة الموحدة ، فتموت الأم كما ماتت ابنتاها ، وكما مات ابنها من قبل ، ولا يمر يومان وقد أشرفت هذه الاسرة على ضواحي ( الشام ) حتى يتوفى الأب ، ولم يبق غير الابن المدعو (محمد) والبنت المسماة ( فاطمة ) ثم لم يبق فى ذهن هذين الأخوين غير انهما افترقا ، أما كيف تم هذا الافتراق ؟ وكيف تباعد الأخوان ، فهذا ما لم يتذكرا منه شيئاً ! ذلك البنت لأن حينذاك لم تتجاوز السنة الثامنة من العمر ، ولأن الولد لم ينه السنة السادسة بعد ، فافترقا وكلما عرفا من امرهما انهما افترقا وكفى ! .

***

لم تع فاطمة إلا وهي ( صبية ) في بيت من بيوت الشام العريقة تحمل لهذا البيت ابنته الوحيدة على كتفها ثم تضعها فى عربتها وتدفعها في ساحة الدار حيناً ، وفي الشارع العام حينا آخر . ثم لم تع فاطمة مرة اخرى إلا وهي خادمة فى هذا البيت ولكنها خادمة إن حسن ثوبها ، ولذ مأكولها ، ونعم فراشها ، فان روحها غير هانية ، وقلبها غير مطمئن ، واحساسها غير محترم ، وهي وإن بولغ فى العناية بملبوسها ، ومأكولها ، وصحتها ، ولكن ذلك كله لا يعادل صفة واحدة من صفات العار التي تلصقها بها سيدتها عند الغضب . إذ كثيراً ما اطلقت عليها اسم (الشريدة) وكثيراً ما سمتها ( بنت المزبلة ) . على أن السيدة كانت تعلم ممن كان يختلف الى الشام من أقرباء البنت ومعارف أهلها بأنها ليست ( شريدة ) حقاً ، وانها ليست

( بنتاً للمزبلة ) وانمـــا هي واحـدة ممن طوحت بها ويـــلات الحرب ، ونقلتها من قرية ( خربة سلم ) الى الشام بعـــد أن باع أبواها مايمتلكان من دار ومواريث دفعاً للجوع ، فأصابا بعض التوفيق وما توفيقهما إلا في بقاء فاطمة ، وبقاء محمد على قيد الحيـــاة ، بينما لم تبق الحرب لأمثالها شيئاً ولم تذر ، ولقد ضاقت الدنيا في عيني فاطمة ، وأحس بعض اقربائها المارين على الشام بهـذا الضيق ، فدبروا أمر خطبتها ، وهيأوا زواجها من فتى ليس بعيداً عنهم في المسكن وفي الخلق ، وفي الرحم . وقد كان من السهل تدبير أمر الزواج في ذلك الحين . فلقد كفّرت الايام عن سيئات الحرب برخاء ما كان يعهده سكان تلك الجهات منذ خمسين عاماً واكثر . وأعقبت الحرب العظمى الاولى سنين غاية في الخصب ، والرخاء ، والرفاه . وزفت فاطمة الى قريبها الساكن في قرية ( شحور ) القريبة من قرية ( خربة سلم ) بأبهى ما تزف به عروس في تلك الانحاء . ونسيت فاطمة كل ما مرّ بها من شقاء ، ونكد ، وذكريات مؤلمة ، ولـكنها لم تنس أخاها ( محمداً ) وظلت تحن الى ذكراه كلما خلت بنفسها أو كلما اتفق لها المرور على (خربة سلم)...

* * *

ويجد ( محمد ) الطفل نفسه عند قبائل ( الرولة ) مكفولا من قبل رئيسها الامير ثم حين تمر السنين والاعوام ، وحين يجب أن يعرف عن نفسه كل شيء لا يجد نفسه عارفاً شيئاً غير أنه أحد أبنـــاء البادية وانه الخادم الخاص للأمير ، وحينما يخلو الى نفسه تتيقظ في ذهنه ذكريات بعيدة جداً جداً ، تؤيد ما كان يسمعه من هذه القبائل التي يعيش في كنفها اليوم ، ولم يكن الذي يسمعه غير : انه منحدر من أبوين ليس لهما بحياة الباديـــة وشيج أو صلة ، او معرفة . وانه التقط في ضواحي الشام صغيراً لم يتجاوز السادسة من العمر فلم يحصل ملتقطه من مفاهيمه

حينذاك على شيء غير اسمه ، او أن ملتقطه كان قد حصل على شيء ولـكنه نسى ذلك لعدم احتياجه اليه . وكلما بقى يصحب اللقيط من ماضيه هو اسم ( محمد ) مجرداً من كل صفة أو لقب او نسب . . .

***

وتبسط له ذاكرته قصة منشئه ، وتصـور له بعض حوادثها في اخيلة إذا كانت مبهمة تـكتنفها سحابة من الاوهام فانها لذيذة جداً تألفها روحه ، وتنقاد اليها افـكاره ، حتى في منامه ، فهو يتصور ، ويؤكد بأن ذلك ليس مجرد تصور وهمي ، وانما هو صورة الذكرى أو صورة الحقيقة المنسية ، أو العقل الباطن ، او ما شئت فسمّ . اجل انه يتذكر بأنه من سكان الجهة الغربية من الشام ، وانه من قرية تبعد عن الشام مسافة يحددها في ذهنه ولا يطيق تحديدهـا في عينيه وفي لسانه . وانه من قرية يذكر شكلها العام وبعض معالمها الخاصة ، ويذكر ان لهذه القرية عين ماء واسعة وهى أشبه بالجب العميق منها بالعين الجـارية ، وان بنات القرية ونساءها يستقين منها الماء كل صباح ، وكل أمسية ، ويتصور اكثر من هذا . والصحيح انه يذكر اكثر من هذا ، انه يذكر البيت الذي ولد فيه ، وحبا في ساحته ودرج ، ويذكر كيف كان ينزل من السلالم الى الايوان ؟ وكيف ينزل من الايوان الى فسحة الشارع ؟ ثم يذكر ان امام هذا المنزل كانت شجرة كبيرة جداً طالما كان يتفيأ ظلالها ، والى جانبه كلب كبير هو كلب العائلة الوحيد لعله كان يحبه كثيراً ، ويمازحه كثيراً . ويذكر ان امرأة كانت تحنو عليه ، وكانت تمطره بقبلاتها كلما بكى ، او طلب شيئاً ، وانهـا على رغم كونها أمّه ، وعلى رغم تذكّره كل حركاتها ، وسكناتها ، فانه لا يتذكر وجهها ولا قسماته ، ولا شيئاً من ملامحه .

كل هذا كان يذكره ، ويلذه ان يذكره ، لا بل انه يقصد الى الخلوة بنفسه قصداً ليتمتع بهذه الذكريات ، وليطيل تمتعه بهـــا . ولعله قضى ليالي طويلة في احلام طويلة ، رأى نفسه في حضن أمه . او رأى نفسه لاعباً مع الكلب ومتفيئاً ظل الشجرة ، او متسلقاً سلالم الدار ، ففرح كثيراً ، حتى إذا استيقظ لم يجد اثراً لذلك الحلم الجميل فبكى كثيراً . وهو بين هذا الفرح الكثير والبكاء الكثير يفكّر ويهمّ ، يفكر في كيفية البحث عن قريته ، واهله ، واخته فاطمة ، التي يذكرها ويذكر اسمها اكثر من امه وسائر اقربائه . ويهمّ . . ويهمّ بأن يركب رجليه باحثاً في الجهة الغربية من الشام بين القرى الصغيرة او الدساكر الكبيرة فيقعد به انه غير مالك زمامه وانه غير حر فيما يفعل ويعمل مادام مقيداً بخدمة الأمير ...

وتقوى هذه الفكرة في نفسه ، ويقوى عزمه على تنفيذها حتى يكون ذات يوم في معية مخدومه بالشام ، فيجد الفرصة مؤاتية على أن يستأذنه ليغيب بضعة أيام . . ويغيب .

* * *

ها هو ذا قد قطع شوطاً بعيداً ، وقد مر على عشرات القرى باحثاً عن مثيل لتلك الصورة المرتسمة على لوحة ذهنه ، وهي صورة لا تزيد عن كونها صورة مجهولة الاطراف ، والخطوط ، والاسماء ، والمكان ، ومع ذلك فهو جد واثق بأنه سيجدها في عالم الحقيقة محسوسة ملموسة ، معروفة واضحة . لذلك ظل يلج قرية ، ويخرج من اخرى . وبينما يشرف ذات امسية على احدى القرى إذ يرى صفاً من الاشجار يمتد بين الهضاب والاودية ، ويرى كأن روحه بدأت ترفرف حول هذا الصف ، وان قلبه بدأ يخفق خفقاناً لم يكن له به عهد من قبل ، وصار كلما اقترب الى القرية وجد نفسه تقترب من محيط مألوف ! ! وبيئة غير غريبة عن روحه وأخيلته ! ! ويظل يمشي بين هذا الصف من الاشجار وينعطف معه ، فيمر على هـــذه البئر

الواسعة فيلقي عليها نظرة من يعرفها معرفة تامة ! ! ويخف في سيره بدون توقف ولا جمود ، فيدخل زقاقاً ويخرج من زقاق ثم يقف على باب دار متأملا ، مصوباً نظره الى أعلى البيت وأسفله . واطرافه ، وما جاوره ، وإذا برجليه مسمرتان لا تطيقان الحركة . واذا بالصورة التى كانت في ذهنه تغيب مرة واحدة . وتنتزع معالمها من فكره فلا يجد لها أثراً ، ذلك لأن هذه الصورة الماثلة لهذه الدار قد اشغلت حيزاً كبيراً من تفكيره ، ومحلا واسعاً من ذهنه . فوقف امام هذه الدار وقفة العابد الخاشع أمام محرابه ! !

* * *

ومر به بعض سكان القرية من رجال وشبان وأطفال وهو واقف لا يحيد عن مكانه قيد شبر ، صامتاً جامداً ، فيقترب واحد نحوه ويسأله :

— ممن الرجل ؟

— من الرولة .

— وهل لك بغية عندنا ؟

— كلا وانما بغيتي هذه الدار ، فهل كانت امام هــــذه الدار شجرة كبيرة من قبل ؟

فالتفت اليه أحد الواقفين وقال :

— نعم . لقد كانت ، ولكنها اجتثت قبل خمس عشرة سنة واكثر .

قال : ـ ومن هم سكان البيت ؟

أجاب أحدهم قائلا : ـ نحن . ولـكننا لسنا سكانه القدماء ، وانما قد انتقل البيت الينا شراء من آل الطويل منذ ثلاث وعشرين سنة .

قال : ـ ومن هم آل الطويل هؤلاء ؟

قال :ـ انهم أسرة مات اكثرهم بسبب مجاعة الحرب ، ونزحوا الى الشام فلم يبق

منهم غير بنت وقد تزوجت أخيراً في قرية ( شحور ) كما أن لهم بعض الاقارب هنا

قال : ــ وهل ان اسم البنت المزوجة فاطمة ؟

قال : ــ بلى

قال : ــ وهل تعرفون لها أخاً ؟

قال البعض : ــ كلا . وصمت البعض الآخر ، وقال آخرون : كان لهـا أخ ومات . . وصاح شيخ كان واقفاً هناك :

ــ لا . . لا . لقد بقي واحد حياً واسمه ( محمد ) ولقد غاب مع أبويه وأخته فاطمة فمات الابوان ووجـدت فاطمة في الشام وهي اليوم في ( شحور ) ، ولم يعثر للصبي على اثر .

هنا دمعت عينا الولد ثم اذا به تخور قدماه فيسقط على الأرض ، ويضرب حوله نطاق من سكان القرية ، وتمتد الايدي الى اسعافه فاذا به ينشج ، والبدوي من اكثر الامم مجالدة على حبس الدمع والبكاء ، ومن اشدهم كبتاً للعواطف ، ولـكن الموقف كان موقفاً لا يطيق البدوي وغير البدوي التغلب عليه .

ورفع ( محمد ) رأسه وهو ينشج وسأل :

ــ وهل كان لآل الطويل كلب ؟

فقيل : ــ بلى .

قال : ــ ولاشك انه مات ؟

فقيل : ــ اجل لقد مات . . . .

قال : ــ اذا بكيت اهلي ، وبكيت مهد طفولتي ، وبكيت الشجرة المجتثة ، فمن الحق ان لا انسى الـكلب من هذا البكاء ، ومن الحق ان لا اجعل ذكراه تمر كذكرى امثاله من الـكلاب المجهولة ، قال هذا وجاس يبكي مرة اخرى



ولكن التعب من قطع المسافة قد جعل هذين الطفلين في غاية الانهيار

قصة ـ النكرى

من ـ أولاد الخليلي

# ماذا أكتب

# ماذا كتب ؟

---

وجرّنا الحديث الى الحب ، فقال احد الرفاق وقد كان يعمل ملحقاً ثقافياً باحدى الممثليات العربية بالهند ، قال ان الحب ككثير من الحيوانات والحشرات وكثير من الأشياء التى تصطبغ بصبغة محيطها ، وتتلوّن بألوان بيئتها ، فكما تكون الجرادة الصحراوية داكنة اللون ، تحكي رمال الصحراء الرقطاء ، وجرادة الحقل خضراء تحكي أوراق الليمون ، فان من الحب ما هو شديد عنيف كالعاصفة الهوجاء، ومستعر محرق كالأتون ، ومنه الشبم البارد كالثلج ، والصامت الساكن كالحجارة أو الوادع الهادئ كالحمامة ، كل ذلك حسب المحيط ومقتضيات البيئة ، فالحب في السودان غيره فى انكلترة ، وفي ايطاليا غيره في الصين .

* * *

واحتدمت المناقشة فى تعليل هذه الظواهر ، فعقّب صاحبنا على حديثه وقال :

« كنت أقيم في جناح من الشقة التي كانت تسكنها عائلة هندية مسلمة ، تتألف من رجل عجوز وامرأة وابنها الوحيد الذي تجاوز الثلاثين من العمر ، وبالرغم من ان سلوك هذه العائلة كان يدل على نفسية شريفة متوارثة ، فان بساطة عيشها ، وقلة مواردها كانتا تدلان على عوز شديد ، وفقر مدقع ، لم تستطع ان تستره مظاهر ولدها اللبق الذكي الجذابه ، ذلك الفقر الذي كان من آثاره بقاء

الابن عزباً طول هذه المدة ، وهو في سن قد لا يسمح العرف الهندي معها بالبقاء بلا زواج ، وطالما سعى الوالدان بكل ما أوتيا من قوة ومعها ابنها لأن يجملا لهذه العزوبة حداً ، حتى وفقا الى العثور على ابنة ريفية جميلة أشبهت حال أهلها حال أهل الخطيب ، حين عوضتهم الطبيعة عن المـــال شرفاً ، ونبلا ، وعفة ، وتم الاتفاق بين العائلتين على مهر زهيد جداً ، وزفت الفتاة من الريف الى المدينة بمظهر رائع أخفى الكثير من عوز العائلتين وفقرها .

***

ومرّت على الزواج ستة شهور اضطر الزوج خلالها الى أن يترك زوجه لدى والديه وينأى ملتحقاً بعمله الجديد في احدى المدن البعيدة ، ولقد حدث خلال هذه المدة بين الوالدة وكنّتها من النفور ما يحدث عادة بين أغلب النساء والكنائن فأحست الزوجة بالضيق فلم تجد ما تنفّس به عن كربها غير أن تكتب لزوجها لتقفه على ما يضيرها في بيت أبويه ، ويقلق راحتها مادامت الى جنبها ، أما اهلها فليس لها اليهم من سبيل ، فهم يقيمون في قرية نائية بينها وبينهم نهر ( الكنج ) العظيم ، وعدة جداول ليس من الهيّن عبورها على امرأة دون أن يصحبها رجل من خواصّها ، ثم هب ان الذهاب الى اهلها ميسور لها ، ومضمون متى شاءت فماذا يجديها الذهاب الى اهلها وهي لا تريد ان تترك بيت زوجها تركاً نهائياً وتغادره الى حيث لا رجعة ولا عودة اليه ثانية ، فتثير غضب زوجها وتهيج حنقه وكلما تبتغيه هو أن تظل زوجة وفية يعنى بها زوجها عناية تقضي على الفوضى السائدة في البيت من جراء تضارب الآراء بينها وبين أمه . لذلك عزمت على أن تكتب الى زوجها وتطلعه على ما يخالجها ويكتنفها دون أن تقف ابويه على الأمر ، فتوجهت الى اقرب ( كتّاب ) في المحلة وهو شيخ كبير يتعاطى كتابة الرسائل وتحبير الطلاسم إضافة الى مزاولة التعليم الذي كان يزاوله منذ زمن بعيد ، وقد استخدم بضعة

انفار من طلابه الكبار لمساعدته في عمله لقاء اجور زهيدة كان يقتطعها لهم من العمل اليومي ، وفى الهند الكثير ممن يعمل مثل هذا ، وما كادت الفتاة تكاشفه بمطلوبها ، حتى أحالها الى أحد اولئك الطلاب المستخدمين ليقوم لهـا بحاجتهـا فيكتب لزوجها الرسالة المطلوبة . . . .

وجلست الى الطالب ورفع هذا رأسه ، والتقت عيناه تلك العينين السوداوين الدعجاوين ، وحاجبيها المزججين ، ومن فوقهما ( نونة ) سوداء مدورة قدارتكزت وسط الحاجبين ، تداعب جبينها وخديها خصل من شعرها الفاحم اللماع كلما هب عليها النسيم رخواً ، فالجبهة ظاهرة مرة ومختفية اخرى ، كما يظهر القمر ويختفي من وراء السحاب الخفيف ، لقد التقت عينا الطالب عيني الفتاة ، فأحس منذ أول نظرة برعشة لم يسبق له نظيرها من قبل ، رعشة اهتز لها قلبه ، واضطربت دقاتـه وفقد معها توازنه ، فلم يدر كيف يمسك القلم ؟ وكيف يصدع بالأمر فيكتب الذي تريد ؟ ولـكنه أمسك القلم ، وكتب باسمها رسالة الزوج لو انيطت اليه قراءتها لما استطاع أن يفهم مما كتب شيئاً .

ووصلت الى الزوج الرسالة ، فاذا بها مفككة الجمل ، مضطربة المعاني ، لم يفهم منها أكثر من أن الزوجة تشكو شيئاً لم يتضح له تماماً ، وان كاتب الرسالة لم يلم بموضوع الرسالة جيداً ، ليوضح الأمر كما يجب ، فأعاد الرسالة الى زوجـه مستوضحاً ومستفهماً عما يعنيها وعما تريد أن تقول ، فحملت رسالة زوجها الى ( الـكتّاب ) فقرأها لها ، وجاءت الى الطالب الذي كتب لهـا ما كتب لائمة ، معنّفة ، مبكّتة ، فاخذ رسالته منها وهو يرتعش ، وسألها قائلا : « إذن ماذا أكتب ؟ »

قالت : ـ ماذا تكتب ؟ اكتب كما قلت لك أولا واقول الآن . . .

فرد عليها مرتين وثلاثاً قائلا : مريني ماذا اكتب ؟ قولي لي ماذا اكتب ؟ لأكتب . . ؟

لقد أحست الفتاة بأن الشاب لايستطيع لأمرما ان يتمالك نفسه ، وانه في شبه أزمة نفسيه يخشى منها عليه . فعادت الى ( الشيخ ) ترجو أن يتولى كتابةرسالتها بنفسه ففعل . . .

***

وما كادت الفتاة تتسلم الرسالة من الشيخ وتتخطى عتبة الباب ، حتى كان الشاب الطالب الذي كتب لها الرسالة المرتبكة يقتفي أثرها حذو النعل بالنعل ويتبعها الى مكتب البريد حيث وضعت الرسالة في الصندوق وعادت الى بيتها ، وحين اوشكت ان تدخل البيت ، اعترض الشاب سبيلها وبيده القلم قائلا : ـ « قولي لي ياسيدتي ما الذي يجب ان اكتبه » ؟ فصوبت نحوه نظرة حادة ، كادت تخرق بها قلبه فترديه ، نظرة تكفي عن كيل الف صاع من الشتائم والتوبيخ والاحتقار ، ثم اندفعت الى داخل البيت وأغلقت الباب في وجهه ! !

***

لم يحرك الشاب قدميه ولم يحد عن مكانه ، بل ظل واقفاً نحو خمس ساعات وعيناه شاخصتان الى الباب ! ! وبعد هذه المدة بعد خمس ساعات فتح باب نافذة من نوافذ البيت واطلت منه الفتاة ، لترمي ببعض الفضلات ، فألفت الشاب لايزال مسمراً في مكانه ! وما كادت توصد باب النافذة إلا ورفع الشاب اليها رأسه صائحاً :

ـ لم ؟ لم لم تقولي ماذا اكتب ياسيدتي ؟ لكي اكتب ؟

***

وطال حديث هذا المسكين وانتشر خبره فى المدينة واتصل أمره بالشرطة ، وبأهله نفسه ، فلم يستطيعوا الحيلولة بينه وبين الوقوف في هـذا الشارع وقضاء اغلب ساعات النهار والليل امام البيت ينتظر خروج الفتاة ، أو مرورها من فوق المعبر الممتد بين جناحي الطابق الاعلى من البيت ، فاذا ما مرت بحكم الضرورة أو

خطفت من هناك ، شهق الشاب و بصوت منكسر وعين عبرى نادى : ـ « ها انذا يا سيدتى فقولي لي ماذا اكتب ؟ »

* * *

وبلغ الخبر زوج الفتاة ، وسرعان ما خف الى أهله ولكنه لم يفلح في صد هذا الشاب وردعه ، على الرغم مما اتخذ من التدابير والوسائل الفعالة ، فالشاب لا يغيب يوماً بحكم هذه التدابير ، إلا ليلازم الشارع أياماً ، فلا التوسل ، ولا الموعظة ، ولا التهديد ، ولا الضرب ، ولا كلما يخطر على البال بقادر على أن يزحزح الشاب عن مكانه نهاراً أو ليلا ! ! فاذا ما غاب لقضاء حاجة أو تناول طعام في بيته ، فان يستغرق غيابه أكثر من ساعة واحدة ، ساعة واحدة فقط يعود بعدها ليقف في مكانه كما يقف الصنم ، فلا يتحرك ولا يقول شيئاً .

* * *

واخيراً وبعد أن اعيت الزوج الحيل . رأى ان يفر بزوجته الى اهلها ليتركها هناك في الريف ، عسى ان يطول انتظار الشاب فيغير هذا الانتظار مجراه وتختم بهذا التغيير هذه الفضيحة التى حاقت بهذه الأسرة النبيلة التي تهيجها الوخزة ، وتثيرها الاشارة ، فكيف إذا لاكت حديثها الألسن وتناقلته الافواه ! ؟

* * *

وأعد الزوج للسفر عدته ، واحضر حمارين امتطى هو احدهما وامتطت الآخر زوجته وبعد ساعة كانا قد اجتازا مسافة شاسعة من الطريق ، والتفت الزوج فجأة فاذا بالشاب يقتص أثرهما من بعيد ، حافي القدمين ، مستقيم الخطوات ، لا يعوقه شوك ، ولا يثنيه وعر . . . ! ! فراح الزوج يحث مطيتهما ، وراح الشاب يجد

في سيره ، حتى إذا قرب منهما التفت الزوج الى زوجته وقال : ـ

ـ ارأيت كيف صدقت فراستي ؟ فها هو ذا المجنون يلحق بنا كما كنت اتوقع !!

والتفتت الزوجة الى الشاب ـ ولم يكن قد رآها منذ اكثر من شهر لاحتجابها عنه في الدار ـ والتقت العيون مرة اخرى فيلتحب الشاب وهو يمسك القلم بين سبابتـه ووسطاه ويقـول : — « ماذا اكتب ؟ قولي لي ماذا اكتب يا سيدتي ؟ » !! .

***

وقبيل الغروب من ذلك النهـار وصل الثلاثة الى نهر الكنج ، الى مكان كان الزوج قد طلب الى أخوي زوجته أن يتلقـاه بقارب فيه ، فاذا بهما حيث تم الاتفاق ، وبنفس الوقت المطلـوب ، فركب الجميع القارب للعبـور ، وهمّ الشاب أن يركب ، فحال أحـد الأخوين بينه وبين الركوب . أما الشاب فبكى ، ولو عرف السباحة لما بكى ولما اهتمّ بمخاطر النهر ، بل للحق بالقارب سابحاً أنى سار وحيث اتجـه ، وأما الزوج فمدّ يده اليه وسحبه الى القارب وهو يقول :

— اذن لم كل هذا الاحتياط والتدبير والعبور من هنا ومن هذه النقطة بالذات ، إذا كنا نريد بقاء هذا الكلب على قيد الحياة ؟

***

وتوسط القـارب النهر ، وبحركة واحدة من قبل الزوج وأخ الزوجة

دفعها بهـــا الشاب الى وسط النهر ، فاذا به يغوص في الاعمـــاق ، وتمر بضع ثوان ينفرج الموج منهـــا عن رأس أسبل الماء شعره فتدلى خصـــلا على جبينه وعينيه ، واذا صوت بحّ بين الشرق بالماء والعبرة الخانقة ، صوت يندفع من بين الأمواج صارخاً : « ماذا اكتب ؟ » ثم يخمد . . . . ؟



... مريني ماذا اكتب ؟ قولي لي ماذا اكتب لأكتب ؟

قصة ـ ماذا اكتب ؟

من ـ أولاد الخليلي

# الشيخ دلبعون

# الشيخ دبعون

---

ما كان يكتب ( لدبعون ) أن يكون شيخاً لو لم يشدّ الرحال من اقصى (أهوار العمارة ) ميمّماً مدينة النجف لطلب العلم ، وقد مرت عليه سنتان وهو يقرأ مقدمة في مبادىء النحو المعروفة ( بالاجرومية ) ولم يكن من الهيّن على اللغويين أن يطلقوا اسم (الشيخ) على مثل هذه النكرات ، ولكن العرف قد تغلب على أرباب اللغة فغدا الناس ينادونه ( بالشيخ ) منذ أول يوم درز فيه العمامة ، وراح يلفها على رأسه . ولماذا لا يكون ( الشيخ دبعون ) شيخاً وقد ترك دنياه ، وطلّق انسه ، وقيّد نفسه بكل ما يتقيد به الشيخ الحقيقي من اقامة الصلوة في اوقاتها ، ومن تتبع مجالس الوعظ في المسجد ، ومن حضور الدرس والمواظبة على المطالعة .؟؟

واذا كان قد مرّت عليه السنتان ولم يفرغ من قراءة ( الأجرومية ) فقد تلافى قصور هـذه الذهنية المحدودة بما حفظ من مأثور الأدعية وما رتّل من الآيات ، فهو شيخ بالرغم من سليقة اللغويين التي تأبى اطلاق اسم الشيخ على اسم كاسم دبعون الثقيل .

ولقد تغير الشيخ دبعون بعض التغير فها هو ذا قد طرح (العقال) جانباً ، وانزل العمامة الى شحمة اذنيه . وها هو ذا قد بدأ يغير لهجته ( الشروقية ) بلهجة نجفية وبدأ يحسن التلفظ بالكلمات فلا يسمي الشيخ جبر الجباري بالشيخ قبر القباري ، ولا يسمي النجاسة ( بالنقاسة ) كما كان يفعل أولا ـ وقد شعر بهـذا التطور في

نفسه منذ أول شهر حلّ في النجف . وعرف ان العلم والمعرفة ولاسيما اللغة الفصحى لا تجيز له مثل هذا القلب وهذا التحوير ، فليس كل ( جيم ) ينقلب ( قافاً ) إذا ما أريد التلفظ به ـ كما تقتضيه الفصحى ـ أجل لقد تغير الشيخ دبعون بعض التغير ، وأذا قلنا بعض التغير فلأن خشونته ، وصلابته ، وسذاجته القروية كانت كلها لا تزال على حالها دون أن تستطيع النجف ان تلطف منها شيئاً في مثل هذا الزمن القصير، ولأن الرقة والطبع الجميل الذي طبع عليه بعض الشيوخ ليس من السهل على الشيخ دبعون أن يجاريهم فيه ،ويقتدى بهم ، وينسج على منوالهم ،فيصبح في مدة قصيرة مرناً ، ظريفاً ، حلو الحديث ، سريع النكتة كالشيوخ تماماً .

وليس للشيخ دبعون مورد يرتزق منه غير ما تجود عليه به أكف العلماء من حقوق ومبرّات تدفع للمعوزين والمحتاجين من طلاب العلم الغرباء . وكان كثيراً ما يلتفت المرجع من هؤلاء العلماء الى الشيخ دبعون فيخصه بعناية منه تخفف عنه شيئاً من كابوس الفاقة .

ويسمع الشيخ دبعون بسفر بعض الشيوخ الى بعض معارفهم ، وأصدقائهم من أرباب المقاطعات ،وسكان القرى ،وعودتهم منهم موقرين بالرفد، محفوفين بالتجلة ، فتتحرك فيه الغيرة ، أو قل يحفزه ما هو فيه من العوز والحاجة الى مجاراة هؤلاء وازماع السفر الى احدى الجهات القريبة من النجف ، فقد سمع الشيء الكثير عن احترام القرويين للشيوخ وتقديس الناس لهم ، والاحتفاء بهم ، فكان ذلك كافياً ليكون حافزاً قوياً في حمل الشيخ دبعون على السفر ، هـــذا زيادة على أن السفر طالما هذّب الانسان ، وحنّكه ، وزاده خبرة بشؤون الحيــاة ، فلم لا يسافر كما يسافر الشيوخ ، ولماذا لايعرض هذه الفكرة على المرجع الديني ويطلب منه المساعدة؟ وهكذا كان ، فقد تقدم الشيخ دبعون الى الشيخ الكبير شاكياً ، واماط الستار عن حاله واوقفه على دخيلة نفسه ، وطلب منه شد ازره ، وحاول الشيخ الكبير أن يصرفه عن عزمه فلم يفلح ، وحاول أن يفهمه بأن ليس كل بيضاء درّة ، ولا كل

سوداء فحمة ، وانه ( أى الشيخ دبعون ) لن يطيق السفر ، ولن يقوى على القيام بمقتضياته ، فلم ينجح ، فاضطر الى النزول على رغبته ، وزوّده بكتاب توصية رجا فيها أن لا يبخل المطلمون على الكتاب بمساعدة الشيخ دبعون على قدر الامكان ،

ولا يتناول الشيخ دبعون الكتاب إلا ويكون قد خرج من النجف متوجهاً الى قرية ( غماس ) .

ويسكن ( غماس ) خياط يدعى الملا هاني ، عرف بالصلاح ، والبر ، ومساعدة المنقطعين ، وايواء الغرباء المستطرقين ، فكان لهذا السبب ـ وللظرف الذي عرف به ـ اشهر من نار على علم .

ووصل الشيخ دبعون الى ( غماس ) وقد ملأت شهرة ( الملا هاني ) أذنيه خصوصاً حينما بلغه ان احد زملائه الشيوخ قد مر ( بغماس ) في العام الماضي فأفاد مبلغاً وفى به دينه واصلح به شأنه ، فتوجه الشيخ دبعون الى بيت الملاهاني وأناخ فيه رحله ، ولم يلبث بضع دقائق حتى وافاه الملاهاني فرحب بـه على غير معرفة ترحيباً حاراً ، ومع ذلك فلم يرق هذا الترحيب جناب الشيخ دبعون ، فقد كان ينتظر من الملا هانى الانكباب على قدميه ، والتشرف بتقبيل يديه وإلا فأين تلك الحفاوة المزعومة والاجلال الذي يحيط بالشيوخ من أمثاله ؟ وما هو الفرق بين سكان النجف وسكان القرى إذا بقى الشيخ دبعون كما هو وعلى تلك الصورة التي خرج بها من النجف ؟ ثم ما هي قيمة كتاب التوصية الذي يحمله من مرجعه الديني الكبير ؟

كل هذا مر بسرعة البرق على لوحة ذهن الشيخ دبعون ، واحتمل أن يكون التقصير كله ناشئاً من ضعف شخصيته ، ومن عدم قدرته على تمثيل دور الشيوخ المحترمين ، فأزمع النية على أن يقيم لنفسه وزناً لا يعادله وزن ، وان يري من عظمته شيئاً يبهر الالباب ، ويخلب القلوب ، ورأى أن يأمر وينهى ، ويزبد ويرعد ، ليعلم الملاهانى وغير الملاهانى ان ليس كل سوداء فحمة كما يقول الشيخ الكبير قدس سره

وعلى الفور وبلهجة الآمر المستبد المتعجرف نادى صائحاً :

— هات القهوة يا ملا حمار !

فلم يجب الملا هاني بأكثر من : « أمرك . . محفوظ » ثم شرع يجمع أواني القهوة ، وبدأ يعدّ العدة اللازمة لاشعال النار . . . ! !

وكان سكوت الملا هاني على هذه الاهانة وصدوعه بالأمر وامتثاله السريع ، قد شجع الشيخ دبعون على استغلال الموقف والظهور بمظهر أعلى ، وأسمى ، وأكبر مما يجب ، فراح ينتهز أقل الفرص لتحقير مضيفه الملا هاني ، بل راح يكيل له ضروب الشتائم آمراً ناهياً ، صائحاً ! ! فيتلقى الملا هاني كل ذلك بصدر رحب ولا يسمع الشيخ إلا ما يطيب له أن يسمع ، ولا يريه إلا ما تصبو نفسه أن ترى من المآكل الشهية ، والطعام اللذيذ حاسباً ذلك كله لوجه الله .

أما الشيخ دبعون فلا يرى العظمة إلا بالتحقير ، لذلك كان أقل تحقيره للملا هاني ان يناديه : بالملا حمار ، وان لا يغتفر له التواني فى خدمته ، ويخرج هناك الشيخ دبعون كتاب توصية الشيخ الزعيم به ويقدمه الى الملا هاني وبلهجة نخمة فيها كثير من الاختيال يقول :

« إسمع يا ملا زمال ، هذا كتاب من مولاك الشيخ، وأنا اريد ان تفهم جيداً بأني لن ابرح دارك ( مهجومك ) هذا إلا وتكون قد دبرت لي مبلغاً استطيع أن ادير به شأني لسنة وأكثر ! ! فهل تفهم ما أقول ؟ »

سمع الملا هاني أمر الشيخ ولو كان بامكانه تدبير ما يقول الشيخ دبعون لما توانى ، ولا تمامل ولا تأخر عن تلبيته تخلصاً من هذا الرجل الوقح الذي لا تفيد معه الشهامة ولا تنفع المروءة ، ولقد علم ان الشيخ دبعون لا ينصرف دون أن يجمع له مبلغاً كبيراً من المال ، ومع علمه باستحالة المطلوب ، فقد راح يثير همم القادرين على المعونة من معارفه لعله يطيق جمع المقدار الذي حدده الشيخ دبعون ولكنه لم يفلح ، وبقى عليه أن يفكر كيف يزحزح الشيخ دبعون ؟ وكيف يخرجه

من بيته ، وقدمرت عليه خمسة وعشرون يوماً ذاق فيها الملا هاني من الشيخ دبعون انواع الاهانات ، زيادة على ما تكبد من خسائر مادية اضطرته اليها ضيافة هذا الشيخ الوقح .

وبعد تفكير عميق ، تذكر ان له صديقاً ، ظريفاً ، ذكياً ، اسمه عباس الچبان يسكن ناحية ( الشنافية ) التي تبعد نحو اربعين كيلو متراً من ( غماس ) ورأى ان لا مناص له من تحويل الشيخ دبعون على عباس الچبان لعله يجد عنده وسيلة للخلاص من بلية هذا الضيف الثقيل .

وتقدم الملا هاني الى الشيخ دبعون معتذراً عما اصابه من الفشل في جمع المبلغ المطلوب ، وعما مني به من الخيبة في القيام بواجبه كلاً أو جزءاً منه وافهمه ان ليس له من وسيلة غير ارساله الى ( الشنافية ) مزوداً بكتاب منه الى صديقه عباس الچبان ، وقال له : ان هذا الصديق قادر كل القدرة على جمع ما تطلبه من معارفه واصدقائه الكثيرين في ساعة واحدة وفي بعض الساعة بدون اية مشقة ، ولم يزل يشوّق الشيخ دبعون حتى اقتنع الشيخ بصواب الرأى ، على شرط أن يطلعه علي مايكتب الى صديقه الچبان ، وعن نوع وصيته له ، وفي تلك الليلة كتب الملا هاني الى عباس الجبان الكتاب التالي :

من غماس ــ الى الشنافية

أخانا عباس الچبان

يصل اليك الشيخ دبعون وهو من الفضلاء ، الظرفاء ، وقد أقام عندنا خمسة وعشرين يوماً حسبناها خمساً وعشرين دقيقة لكثرة ما اسمعنا من نوادر ، وملح ، وطرائف ، واني لأرجو عند وصوله اليك أن تجمع اصدقاءك ، ومن تعرف في ( الشنافيه ) فتجمع له منهم مبلغاً يعينه على شراء دار تليق بعالم جليل مثله ثم ترسله من هناك على وجه العجلة الى النجف محفوفاً بالتجلة والاكرام خدمة لفضله وظرفه ، وكماله ، ودم للمخلص ؟ الملا هاني

ويتسلم الشيخ الكتاب ، وفى الصباح يستأجر له الملا هانى حماراً ويركبه الى ( الشنافية )، ويتنفس الصعداء ويلقي بنفسه على الفراش كما لو كان قد القى من على ظهره حملا هو كالجبل ثقلا وأكثر .

يصل الشيخ دبعون الى الشنافية ظهراً فيسأل عن عباس الجبان حتى يهتدي الى دكانه وهو يعمل فيه سرّاجاً ، وبدون تحية وبلا سلام ومقدّمة ، يقف على رأسه سائلا :

— أأنت ( عباس الحيوان ) ؟ فيرفع عباس الجبان رأسه وهو يضحك فيرحب به وينزله من على ظهر الدابة ، ويدفع عنه الأجرة ، ثم يعود فيرحب به ثانية كما يفعل البدوي الذي يعيد التهليل بالضيف والترحيب به بين كل فترة واخرى ويستدرجه الى الكلام فيمد الشيخ دبعون يده الى جيبه ويخرج كتاب الملا هانى ويقذفه في وجه عباس قائلا :

اسمع يا ملا عباس ، بل الأصح اسمع يا ملا ( مداس ) ، أنا لا اعرف التعليل والتسويف ، لا اريد الكذب والاحتيال ، أنا لا اصبر على المماطلة والمواربة ، أنا أريد منك أن تجمع لي الآن وفي نفس هذا اليوم مبلغاً يضمن لي شراء بيت في النجف ومعيشة سنة ان لم تكن اكثر . . . فهل انت فاهم ؟

بهت عباس الجبان ، فاذا كان صاحبه الخياط قد عجز عن تدبير هذا المبلغ وهو يعيش فى (غماس) ، في بحبوحة نسبية من النعمة فكيف بسرّاج مثله وهو يعيش في مثل هذه القرية الجرداء ! ! ؟ كيف يدبر للشيخ هذا الأمر ؟ وكيف يستطيع أن يجمع له مثل هذا المبلغ ؟ ثم أين الظرف والأدب الذي اتصف بهما هذا الشيخ ، والذي يحدثه عنهما الملا هانى فى كتابه ؟ ولكن ربما . . . . ولقد غرق عباس الجبان فى بحر من التأمل والتفكير ثم قال : ـ لا يبعد أن يكون الملا هاني قد أراد التملص من هذا الشيخ فأرسله إلي . . . ولكن هل من الانصاف أن يزيح الرجل الحمل الثقيل عن ظهره ليضعه على ظهر صديقه ...؟ ويسمع عباس الجبان من الشيخ دبعون صنوف

الاهانات فيتحملها، ولكنه لا يطيق أن يتحمل شروط هذا الشيخ ، فالشيخ يريد من عباس أن يذبح له دجاجة كل ليلة ! ! ؟ والشيخ لا يرضى أن يتناول طعام الفطور صباحاً قبل أن يشرب مقداراً من الحليب ويزدرد عدداً من البيض ، وقرية الشنافية ليس فيها ما يشبع نهم الشيخ من الحليب والبيض والدجاج . ولقد هان على عباس الجبان لو كان كل هذا يجري لزمن معين . ولمدة محدودة ولكنه يخشى أن يطول الأمد ويتجاوز الشهرين فلا يطيق ان يعمل للشيخ شيئاً ، ومرة اخرى غاص في بحر من التفكير وبعد أن اعمل فكره اهتدى الى الفكرة التالية :

لقد جلس عباس فكتب كتاباً مصدره ( غماس ) وبتوقيع من الملا هانى يستدعي فيه الشيخ دبعون من الشنافية ومضمون الكتاب انه قد توفي في (غماس) رجل بلغ مجموع ثلثه الذي يجب أن يدفع الى المستحقين من رجال الدين مبلغاً كبيراً جداً وهو يرجو أن يحضر الشيخ دبعون حالا وعلى جناح السرعة الى غماس لقبض المبلغ باعتباره الرجل الديني الذي ينبغي أن يدفع اليه ( ثلث ) المتوفى باستحقاق . وختم الكتاب وسلمه الى احد أهالي ( الشنافية ) قائلا :

في الساعة التاسعة من صباح غد وفي الوقت الذي اعتاد الشيخ دبعون أن يجلس الى جانبي فى السوق أرجو أن تجيء الي فتدفع لي هذا الكتاب بحضر من الشيخ ، وتقول لي ان الملا هانى يقرؤك السلام ويطلب منك ارسال الشيخ دبعون الى غماس بدون أي توان وتأخير فان المسألة تستدعي العجلة .

وهكذا كان ، فقد نجحت الفكرة ، واطلع الشيخ دبعون على الكتاب فأمر أن تسرج له الدابة التي تقله الى « غماس » سعياً وراء المبلغ الذى ذكره الملا هاني ، وكان الذي اراد

ولم يحس الملا هانى إلا والشيخ دبعون ينادى : ـ خذ بيدي يا ملا زمال . . فقد قتلني الحر ، ألم تكن لك وسيلة اخرى لارسال المبلغ دون أن تضطرني الى المجيء في مثل هذا الوقت من الحر ؟

فالتفت الملا هاني مبهوتاً وقال :

— وأي مبلغ تعني ؟

— ثلث تركة الميت الذي كتبت تستدعيني من أجله ! !

لقد عرف الملا هاني القصة ، وفهم ان ( عباساً ) هذا قد قابل منه فعله بمثله . حتى أعاد الشيخ دبعون من حيث جاء ، وان لا خلاص له إلا بأن يحتال هو باعادة الشيخ دبعون الى ( الچبان ) من جديد . . فحك رأسه قليلا ، وابتسم ابتسامة لا يعرف مغزاها أمثال الشيخ دبعون وقال :

— عبثاً كلفت نفسك بالمجيء يا سيدي ، فقد استبطأتك وأرسلت المبلغ بيد المكاري الى ( الشنافية ) خوفاً من بقائه عندي ، وخشية من ندامة ورثة المتوفى وليس عليك إلا أن تعود من حيث أتيت سريعاً وبمنتهى العجلة . . .

وهنا هاج الشيخ دبعون وأرعد وأزبد ، وشتم وعربد ، ولكن كان لا بد له من العودة في نفس اليوم الى الشنافية ، فعاد يستقل بغلا قوياً وراح يلهبه بالعصا .

وقبيل المغرب من ذلك اليوم نفسه ، وبينما كان عباس الچبان يتمشى بين جمع من رفاقه على شاطيء النهر إذا بالشيخ ينزل من على ظهر بغله

— ها . ها . ها . ( صاح عباس الچبان مبهوتاً ) ثم تمالك نفسه ودنا من الشيخ ففهم منه كل شيء ، ولا تسل عن مبلغ غضب عباس وتألمه من صديقه الملا هاني ، ولكن ماذا يفيد الغضب وماذا يجدي التألم ؟ وان الواجب عليه ـ اذا كان ذكياً ـ أن يتخلص من الشيخ دبعون بكل صورة وعلى أي وجه من الوجوه .

وهنا التفت الى الشيخ بعد أن وقف على جلية الأمر واطلع على الكيفية التي ارسله بها الملا هاني وقال :

— انه لما يؤسفني ياسيدي أن لا أتوقع مجيئك فأعيد المبلغ ثانية مع نفس الرسول الى غماس ، ليلحق بك هناك ، ولقد عذبت نفسك بتجشم هذه الصعوبة ، وأهنت مقامك ، وأنت رجل عالم جليل لا يجوز لك أن تتحمل كل هذه المشقات

من أجل هذا المبلغ الزهيد ، فهيا الآن واقض هذه الليلة عندنا وعد في الصباح الى ( غماس ) واذا تعاقب واياك الرسول فيجب ان تبق عند الملا هانى فسأعيد لك المبلغ معه بدون أي تماهل وانا الخادم و ( الممنون )

لعن الشيخ دبعون الملا هانى ، وعباس الجبان ولعن الساعة التي عرف فيها هذين الخبيثين ، وفي الصباح الباكر كنت تجد الشيخ دبعون يسير في طريق غماس عائداً الى الملا هانى

ويفكر الملا هاني فلا يجد مخلصاً من هذا الشيخ غير أن يطلب منه أن يصحبه الى النجف ليدفع المبلغ له بحضر الشيخ الكبير

ويقبل الشيخ دبعون بهذا الرأي ويسافر معه الملا هاني ، وهناك يسرد الملا هاني قصة الشيخ دبعون بحذافيرها ، وبدل أن يضحك الشيخ الكبير يطأطيء رأسه صامتاً فيسأله الملا هاني :ـ ما الذي أذهل مولاي الشيخ ؟

فيرفع الشيخ رأسه ويقول :

ـ من يدريني ان لا يكون كل هؤلاء الشيوخ ( دباعنة ) كالشيخ دبعون من حيث لا ندري. . . . ؟ ؟



وفي الصباح الباكر كنت تجد الشيخ دبعون يسير في طريق غماس عائداً

قصة ـ الشيخ دبعون

من ـ أولاد الخليلي

# سرو القهواني

# سرور القهواتي

ما أروع هذه الصورة التي يطالعك بها (سرور) القهواتي كل يوم ! ! وما أجمل هذه الطلعة التي يصبحك بها وبيده (دلّة) القهوة والفناجين وهو يحركها فنجاناً فنجاناً فتحدث أصواتاً رتيبة تعلنك بان سروراً على مقربة منك ، وتحرك منك الشهية لارتشاف القهوة المرّة ، التي يجيد سرور تحضيرها كأحسن من عرف من القهواتيين ،

وكثيرون اولئك الذين يحملون اباريق القهوة ، فيطوفون بها في الأسواق ، والشوارع العامة ، والمخازن والمحلات التجارية ، ولكنهم لم يبلغوا شأو هذا الزنجي الأسود ، ليس في جودة قهوته فحسب ، وانما في كيفية صبّها في تلك الفناجين الخزفية ، ذوات الخطوط الذهبية المتلألئة ، والمنقوشة بالألوان الزاهية التي تعملها المعامل التشيكوسلوفاكية خصيصاً للعراق ... وفي ذلك الرنين الخاص المنبعث منها بين يديه

وليس هذا وحده الذي يجعل الآذان مملوءة باسم (سرور القهواتي) والأفواه مشتاقة لارتشاف هذه القهوة المعطرة من يدي سرور ، وانما لهذه الطينة المرحة التي جبل منها (سرور) ولهذه القدرة على تكييف نفسه وفق مزاج زبائنه كل الأثر في تحبيب هذا الزنجي القهواتي الى جميع سامعيه من مختلف الطبقات ، لذلك

فان سروراً فى السوق غيره في الشارع العام ، وفي الشارع غيره في المحلات التجارية الكبيرة ، وفي المجالس الخصوصية ، وان كانت ( الدلّة ) نفسها تلك « الدلّة » ، والفناجين تلك الفناجين ، والرنين الذي يحدثه فى تحريكها هو هو فى كل مكان، فان سروراً عند هواة الغناء موسيقار ( فنان ) يجيد الغناء الريفى لحدلا يجاريه فيه أحد، وقد تكفيك إيماءة خفيفة تومىء بهـا اليه ليضع ابريق القهوة والفناجين جانباً ، مطلقاً لصوته العذب الرخيم العنان ، مذيباً روحه فى غنائه ، فكأنه هو المغرم وهو الولهان وهو الشاعر الذي قال ما قال في حبيبه ، فى نبرات ترغمك على أن تسمر عينيك في شفتيه ، وتشد أذنيك الى صوته .

وهو عند هواة الدعابة عي فى شبه خرس لا يطيق أن يلفظ الكلمة إلا بمشقة وكلفة كبيرتين ، ومتباله بليد لايكاد يفهم ما يقال له ، وعنـد قالة الشعر ، راوية يروي أعذب الشعر وابلغه من روائع الشعر العامي وغزله ، ونسيبه ! !

وهو بعد ذلك قد جاب مدناً كثيرة وشاهد أمصاراً متعددة ، وزاول اعمالا مختلفة نخبر الحياة على قدر ، وذاق حلوها ومرها على قدر ما يذوق رجل في مثل سن (سرور) وقابليته الفطرية والعقلية ، فجاء يصور لك عن كل بقعة لوحة ، ومن كل قطر جانبا ، ومن كل صوب ما فيه من بهجة ، ومرور ، ولذة ، اما الكآبة ، واما الحزن، وأما الاكدار فقد خط عليها سرور بالقلم العريض وانتزعها من قاموسه ، منذ أن عرف ان مصير الحياة العدم ، وان ليس هنالك شيء يستحق ان يشغل بال الانسان من اجزاء الحياة مالا كان أم عقاراً . . . ومملكة كانت أم اقطاراً . . . فيجب أن يضحك الانسان على قدر ما يتسع فمه وعلى قدر ما تسمح شفتاه بالانفراج .

لذلك كله لم ير أحد ( سرور القهواتى ) إلا والمرح طافح على وجهه والبهجة تنم عليها سحنته ، ويدل عليها بريق عينيه ، ويفسرها كلامه ، ودعابته ، وأخيراً تغابيه العذب الجميل .

ولقد سأله مرة سائل :

— وهل تموت يا سرور ؟

فقال — من الحرام ان تذكر الموت وانت حي ، اضحك ، وغن ، وامرح ..

وسئل : — وهل عرفت الاحزان للآن ؟

قال — هي التي علمتني ان لا احزن مهما كان الأمر ، وعلى قدر الطاقة ! !

وكثيرون اولئك الذين تمنوا أن يكونوا ( كسرور ) هذا بل كثيرون اولئك الذين حسدوه على مثل هذه الملكة ، بل هذه النعمة التي انعم الله بها على سرور فجعل منه زنجيا من نور ، يشع بما لا يستطيع أن يشع به الكهرباء ، واين شعاع الكهرباء ؟ من شعاع الروح ؟

* * *

ويلتفت السوق ، وتلتفت الشوارع والمحلات العامة ، وتلتفت ( دار الهاتف ) فتحس بأن فناجين سرور لم تعد تحمل تلك النغمة العذبة الجذابة ، حين يداعبها سرور متداخلة بعضها فوق بعض ، وان المسامع لم تعد تشنفها تلك الاغاني التى كان سرور يغنيها فرحا ، مرحا ، مبتهجا ! ! .

ويلتفت الذين يعرفون سروراً فاذا بالابتسامات غائضة من ذلك الثغر المطبوع عليها ، واذا بالوجه الجميل المشرق يربّد فتزداد سخامته ويسودّ حتى يصبح فيما يشبه الفحم والقير ! ! وتتحول العينان منه الى جمرتين متقـــدتين ، يتطاير منهما الشرر اينما اتجهتا . . . ! !

عينان متقدتان . . . وتجاعيد كثيفة جعلت كل جبينه يستحيل الى حواجب ، وشفتان غليظتان جمدت الحروف عليها فلا تسمع من بينهما شيئا اكثر من الكلمة الواجبة ، وقطوب غاية في الجهامة ، وعبوس غاية فى الشراسة ، يخرج من السوق كما دخل ، ويدخل كما خرج فاتراً في طوافه على زبائنه ، وفي صبه القهوة ، وفي الاجابة على الأسئلة ! !

ترى ما هو هذا الطارىء الذي غيّر من ( سرور القهواتي ) ما غير خلال هذين اليومين ! ؟ وما هي هذه العلة التي جعلت من سرور رجلا آخر ما كان يظن هو ، ويظن غيره ، انه كائنه ذات يوم ؟ . . .

لقد مرت على ( سرور ) قبل هذا اليوم ايام حالكة سوداء ، دون أن تنال من مزاجه وخلقه ، فما باله اليوم يحرق الارم ، ويكاد يثب من الغيظ والألم ، ويعاني مايعاني من مرارة ؟ ألم يفقد اعزاء ماتوا بأفجع موتة ؟ ألم تفلت من بين يديه آمال عزيزة طالما كانت تهدهد روحه وتنعش نفسه ؟ ألم يفاجأ بما لم يجر على باله من الصدمات ؟

انه ما كان يكترث لذلك من قبل ، أو انه ما كان يكترث بمثل ما هو فاعل اليوم على الأصح . . . فما بال هذا الرجل ؟ وما الذي دهاه ؟

ولست أدري كم كان الذين أحسوا بهذا الانقلاب وراحوا يسألونه عن خطبه ؟ وماذا كان جوابه لهم ؟ ولكني ادري أن العدد الذي كان يهمه أمر سرور ـ الضاحك ، المرح ، ذي الصوت الرخيم العذب ، وقد تجهم وجهه ، وشكس خلقه ، وشرس طبعه ـ كان كبيراً ، وكبيراً جداً .

***

وجاءني سرور ذات يوم وهو هو ، تعلو وجهه سحابة داكنة سوداء من الغضب ، وقد مدّ يده بالفنجان الي ، فتناولت الفنجان بيدي والتفت اليه وسألت:

— منذ أيام وأنت على حال لم يرك عليها أحد من قبل . . . فهل هناك ما يزعجك ؟

لقد وضع سرور ( الدلة ) على المنضدة ووضع الفناجين ، واطلقها آهة ذات صوت ينبيء عن ألم دفين ، وكبد حرّى ، ونفس مؤلمة مكلومة وهو يغالب عبرته وقال :

— ألم تعرف ؟

قلت — كلا . . .

قال — بالله عليك ! ؟

قلت — به وبجميع المقدسات . . . .

قال — وأي خطب أعظم من سقوط ( أديس آبابا ) بيد الطليان ؟

( وكان الطليان يومذاك قد دخلوا عاصمة الحبشة منذ ايام قليلة ) م ؟



. . . وما اجمل هذه الطلعة التي يصبحك بها وبيده دلّة القهوة والفناجين

قصة ـ سرور القهواتي

من ـ أولاد الخليلي

# إغفري

١٤

# إغفر لي

كان الأخ الصغير ينال من عطف أبويه أكثر مما ينال أخوه الكبير ، ولعل هذا العطف الذي يتمتع به الأخ الصغير من لدن أمه وأبيه كان السبب أو بعض السبب في ابتعاد الشقة بين الأخوين ، او لعل شيئاً آخر ، لا هذا ولا ذاك يعود له وحده هذا الاختلاف وهذا التباين ، أما البيئة التي نشأ فيها الأخ الكبير فهي على الغالب نفس البيئة التي عاش فيها الأخ الصغير بدون زيادة ونقصان ، ومع ذلك فقلما شوهد الأخوان متقاربين متدانيين في الشعور ، والذوق ، والسليقة ، لا بل لم يكن الصغير يدنو من أخيه الكبير حتى يرى منه ازوراراً وتجهماً لا يلبث أن يتقهقر على أثرهما الى الوراء ! !

وترى الأم ذلك من ولدها الكبير فتبالغ فى حنوها على ابنها الصغير وتحوطه من رقتها ولطفها بسياج يحفظه من خشونة أخيه وشدته وينسيه تجهمه وتقطيبه .

* * *

وها الآن طفلان يلعبان مع الأطفال في الشارع ، فلا يقرب الصغير الى الملعب حتى يطرده أخوه . ولا يتكلم بين الأطفال إلا ويقطع عليه كلامه بصرخة تكفي لتجعله راجعاً الى البيت ليشكو ذلّه عند أمه وأبيه ، وربما حمله الغضب على تلفيق الافتراء وتنميق الاكاذيب ليوغر صدر أبويه على أخيه .

وافتقد الأب مرة قطعة من النقود ، فشهد الصغير بأنه رأى أخاه الكبير

يمد يـــده الى جيب أبيه مختلساً ، فيثور الأب في وجه ابنه الحرامي ويكاد يهلكه تحت الضرب لو لم تتدخل أمه وتخلصه من بين يديه ! ? ثم لا يلبث الأب أن يتذكر بأنه قد صرف هذا المبلغ الذي افتقده بنفسه في سبيل بعض المقاصد ، فيلعن ابنه الصغير على كذبه وافترائه ،ومبلغ حقده على أخيه ، ويدنى منه الابن الكبير لترضيته واكرامه ، ويرى هذا من أبيه الحنان الذي ينسيه بطشه به قبل ساعة ، ويرى العطف الذي يشجعه على التمادي في معاكسة أخيه الصغير وكرهه له، بينما تكون حفيظة الأخ الصغير قد غلت في صدره غليان المرجل من جراء فشله في ائتماره بأخيه ومن عطف أبيه عليه ، وكلما تقدم بهما الزمن ازدادا تباعداً واختلافاً وهذان الأبوان لم يذكرا في تاريخ طفولة ولديهما ساعة لا تكون مشوبة بالكدر والنزاع . . . ولعلهما بذلا كلما يستطيعان من جهود للتوفيق بين ولديهما فلم ينجحا فالكبير لا يطيق أن يغتفر زلة الصغير ، والصغير لا يستطيع أن يحترم أخاه الكبير بعد أن يراه ظافراً بثقة أبويه ، وبعد أن يرى مؤاخذة أخيه له على كل شيء وان كان حقيراً مؤاخذة من لا يعرف الرحمة والهوادة ، فيستفحل الشقاق حتى ليخاف الصغير على نفسه من ضرب أخيه الكبير المبرح اذا ما خلا البيت وغاب الأبوان .

***

وذات يوم وقف الكبير على اثر اختلاف بسيط يتوعد أخاه ويهدده فانبرت الأم تدافع عن صغيرها دفاع من صبر حتى جزع ، وحلم حتى مل ، فلم يزد ذلك ابنها إلا شدة في هجومه ، وجرأة في وعيده ، وسمع كل هذا ولدها الصغير الواقف وراءها ، وشهد من أمه هذا الموقف الذي حفظ له عزة نفسه وكرامته ، فرأى أن يكيل لأخيه الصاع صاعين ، ويرد عليه السباب بمثله واكثر ، ومم يخاف ؟ ولماذا يخاف ؟ وهذه أمه ستدفع عنه شر أخيه وتحميه . . . ؟

لقد غره دفاع أمه ، وشجعه على التمادي فى غيه حين وجد فيها سوراً حصيناً لن تستطيع أية قوة ان تخترقه لتنفذ منه اليه . وما كاد يقابل اخاه ببعض الكلم حتى كان كالكرة بين يدي لاعب ماهر لا يتناولها من يده إلا ليقذفها الى رجله دون ان يتركها تصل الى الارض ! ! وعبثاً راحت الأم تولول وتصرخ ، إذ لم يترك الأخ اخاه إلا بعد ان اراه الموت بعينيه . وبعد ان ترك في كل جانب منه عضواً يئن ويتألم . . .

وهما الآن شابان لا يبدي الصغير رأياً إلا وينبري له الكبير مفنداً ، ومستهزءاً وساخراً ، ولا يتكلم الأخ الكبير إلا ويشيح الصغير عنه ببصره ويغلق دون كلامه اذنيه . نعم ان هذا الصغير لم يعد يخشى أخاه الكبير ويخاف منه كما كان يخشاه ويخافه ايام الطفولة ، ولكن النفور الآن قد تحول الى شكل آخر ذي صبغة منطقية ولون معقول ، واصبح نفوراً خالياً من الصيـــاح والصراخ والعربدة ، مقتصراً على عصبية مزاج الكبير الظاهرة في نقده لكل حركة من حركات أخيه الصغير . ومتمثلا فى هزة رأس الصغير المستخف بأخيه الكبير .

وعلى ان الأب والأم قد كلاّ وعجزا عن ازالة عقبات سوء التفاهم بين ولديهما فانهما لم يعجزا عن كسر حدة الاخوين وتلطيف مزاجهما الى الحد الذي يخفض صوت النزاع فلا يجعله يبلغ اقرب آذان اسرتهما اليهما . حتى ماتت الأم ، ولحق بها الأب بعد قليل ، فاذا بالأخوين اليوم غيرهما بالأمس ، واذا بهما كشخصين أجنبيين لا يختلفان إلا ويبتعدان ! .

* * *

وذات ليلة من الليالي ، وعلى اثر نزاع خفيف ، يبلـــغ الغضب بالأخ الكبير الى أن يطلب من أخيه الصغير مغادرة البيت والخروج منه حالا ! ! فتتدخل زوجة الكبير فى الامر ، وتتوسط لتسوية الحال بينهما فلا تنجح ، ولا يزداد

الأخ إلا عناداً واصراراً على رأيه . . . .

وكان الأخ الصغير الى هنا ساكتاً ، مطرقاً ، ينتظر نتيجة هذه الفورة التي وقفت بأخيه هذا الموقف العجيب الغريب ، ولما طال عليه الانتظار رفع رأسه ، وبحلم عجيب لم يعهده فى نفسه من قبل . وبنغمة من الصوت الهادىء الرزين توجه الى أخيه وقال :

— والناس ماذا يقولون إن خرجت من البيت مطروداً ؟

قال — الناس ؟ مالي وللناس ؟ انني لا أريد بقاءك هنا وكفى ؟ !

قال — انى لا أمانع أبداً . ولكني إن خرجت منك فلن تراني بعدها ، ذلك لأن الأم التي كانت تربط بين قلبينا قد ماتت يا أخي ، ولأن الأب الذي كان يظللنا بعطفه ويسدل على اختلافاتنا الستار ليحفظ كرامتنا قد مات هو الآخر ولأن ختام رواية بيتنا المحزنة ستبقى ماثلة أمام عيني الى الأبد فلا أطيق أن أنساها . . . . أفهمت ما أنا قائل ؟

قال — ليكن ما يكون ، ولقد طلبت منك ان تخرج من هنا فيجب أن تخرج

* * *

لقد كان يخيل للأخ الكبير ساعة أقدم على طرد أخيه بأنه سينسى سريعاً أخاه المعاكس المشاكس . حتى إذا مر عليه شهر أو بعض شهر اذا بتلك الروح التي رافقته منذ أن عرف أخاه ـ الروح التي كانت سبب كل ذلك الخصام وعدم الامتزاج ـ تستحيل الى روح رقيقة تثيرها الذكريات . وتهيجها الخواطر ، وإذا بذاكرته تعود به الى الماضي البعيد ولكن لا لتذكره بالنزاع ، والجدال ، وانما لتصور له روحي أبويه وقد تقمصتا جسد أخيه الطريد ... الطريد الذي لم يعرف عنه شيئاً ، فيطرق حينذاك اطراقة عميقة ثم يهيج كمن به مس من الجنون ...!!

ها هو ذا يبحث عن أخيه منذ زمن طويل ولم يعثر عليه . هو يبحث عنه اليوم لا ليعيد تمثيل الدور الطويل من النزاع والمشاكسة والشحناء . وإنما كل أمنيته ان يجد أخاه ليقول له : « إغفرلي . . . » ؟




وكل أمنيته أن يجد أخاه ليقول له : إغفرلي

قصة - اغفرلي

من - أولاد الخليلي

# متى تحبّ أن تظلم

# متى تحب أن تظلم

لم تكن أنابيب مياه الشرب متصلة بمدن ( الفرات ) قبل سنوات قليلة ، بل كان الماء ينقل على ظهور الحمير بواسطة القرب ، وكانت المناداة في الطرق بالماء والاعلان عن بيعه مألوفة في اغلب مدن الفرات الكبيرة والصغيرة ، لا بل ان نجاح ( السقّاء ) ـ وهو الذي يبيع الماء ـ متوقف لحد كبير على علو صوته ، وحسن ادائه صيغة النداء ، وكيفية ترديده الاعلان لبيع الماء وتوجيه الاسماع اليه

وقد كان الاعلان مقتصراً على كلمة واحدة هي ( الفرات ) ، يطلقها السقّاء بفصاحة وبنغمة جميلة ، ولهجة خاصة كثيراً ما تعرف البيوت سقاءها منها فتستدعيه اليها ، ثم صحّف السقاؤون كلمة ( الفرات ) فنادوا بها ألواناً وأشكالا : « فروت » و « فروع » و «فروي » و« فروو » ، وقد تصرف بعض السقّائين في ندائه واعلانه فصاح : ( ماي دهله فروت ) ، والمقصود بماء ( الدهله ) هو الماء الممزوج بالغرين الدال على انه منقول من بطن النهر ، ومن قلب المجرى ، وليس من المبازل ، والحياض الراكدة ، ومتفرعات النهر ومجاريه الضعيفه .

أما محسن السقّاء فعلى رغم كونه يتمتع بملكات تدل على انه من أقدر السقّائين ، من حيث خشونة الصوت ، ودرجة ارتفاعه ، وحلو تقطيعه لو أراد أن يقطعه وينادي بكلمة ( الفرات ) صحيحة أو مصحّفة ، انه على رغم ذلك كله

فهو السقّاء الوحيد الذي يسوق حماره هادئاً بدون جلبة وضوضاء ينقل قدميه كما لو يريد أن يختلس الخطوات اختلاساً ، وهو ساكت لا ينبس ببنت شفة ، ويظهر ان الحمار الوحيد الذي يمالكه محسن السقاء ، هو الحمار الوحيد الذي يحسن تقليد مشية صاحبه ، حتى لقد يصعب عليك وأنت تماشيه ـ ان تسمع له خفقة حافر ، أو عطسة من عطاس الحمير التي تحكى الانتفاضة والنفور أو ما يشبه ذلك واضحاً أم خافتاً . . . .

ولا يبعد أن يكون محسن السقاء الذي يتعمد أن يمشي هادئاً كمشية اللصوص والذي يطبّع حماره على الاقتداء بالثعابين في انسيابها بدون صوت،لا يبعد أن يكون قد حرّم على حماره احتذاء النعل، وحرمه حتى من الاختلاط بالحمر المنتعلة لكي يأمن تماماً من حدوث الاصوات ومن تعلق نفس حماره بالنعل .

ان محسناً ليغالي في المحافظة على السكينة والهدوء لئلا يسمع الناس صوته ، وقرقعة حوافر حماره فيسرعوا الى سد ابوابهم فى وجهه ، ويحولوا بينه وبين بغيته وفى ذلك ما فيه من خسارة لا تعوض لمحسن السقاء الذي يعرفه جميع سكان المحلة، ويتحاشون شراء الماء منه لسببين: أولهما ـ وهو المهم ـ ان الماء عند محسن السقاء ليس من ( الدهلة ) فهو لا يكلف نفسه تعباً في أغلب الاحيان على رغم ما وهبه الله من قوة جسدية تجعله يؤدي مهمته ـ لو أراد ـ على أفضل وجه ، ولا يعنى بالناس وصحتهم عناية الآخرين من السقائين . بل كثيراً ما حمل الماء من اقرب شريعة ولو كان المورد رنقاً كدراً .

وثانى السببين هو ان محسناً سليط اللسان وطالما استغل لطف الناس وضعفهم فأفرغ لهم الماء وان لم يحتاجوا اليه ، وان لم يطلبوه ! ! ثم وقف يطالب بالثمن ؟ ومن الذى يجرؤ على أن يؤخر لمحسن فلساً واحداً لليوم الثاني فضلا عن مناقشته اياه في أصل البيع ؟

ويمشي محسن وحماره فى الشارع ساكتين هادئين كأن على رأسيهما الطير ،

فاذا أمن محسن من افتتاح باب الدار، واطمأن الى ان ليس بينه وبين الولوج الى ساحة البيت غير أن يجر الخيط من الأبواب التي تفتح بالخيوط، أو أن يدفع بقدمه الابواب التي تفتح بالدفع، أسرع بخفة منقطعة النظير الى حماره فانزل القربتين من على ظهره، وحمل احداهما الى جنبه وما هي إلا قفزة واحدة، وبصوت تنبيه لا يزيد على كلمة: «يا الله ...» يرسلها ممدودة مرتلة بالمدّ (الطبيعي) أو المد (العارض) أو المد (اللازم) من علم (التجويد) ثم اذا به في وسط الدار، ولا يفيدك حينذاك شيء ما دمت لم تتخذ لبابك الاحتياط، وليس بمانع أن يجد (محسن) كوزك مليئاً بالماء، وليس بمانع أن يجد القماقم والجرار مليئة حتى شفاهها، ليس بمانع ذلك عن أن يفرغ هاتين القربتين في القدور، وفي الظروف، وفي الأواني، وفيما يعثر عليه في البيت، وان اقتضى ان يفرغها في التنّور لفعل، فليس في ذلك بأس أو شبه بأس عند محسن ما دام يشعر بأن الدنيا كلها تمشي على هذه السنّة، سنّة القوة التي ينهار الضعيف امامها فيذهب اباديد تباديد، فالماء يجب أن يفرغ ولو في (البالوعة) ما دام محسن السقاء قد دخل البيت به، والثمن يجب أن يؤخذ ما دامت القربتان قد افرغتا، ومن الجائز أن يستمهل محسن في دفع الثمن يوماً أو يومين، ولكن من غير الجائز أن يستطيع واحد ان يفلت من يد محسن فيفرط في ثمن الماء بحجة عدم حاجته الى الماء ما دام من تلك الفصيلة الضعيفة المستكينة التي عرفها محسن وخبر قوتها.

وافتقدت المحلة (محسناً) ذات يوم فلم تره عابراً من تلك الطرق، ولا واقفاً عند باب يحاول حل حبال القرب، كما لم تر لحماره موضع حافر في تلك الاوحال التي تمتلىء بها الازقة من تلك الحارة!! فكثرت الاحاديث والاقاويل، واختلفت العلل والاسباب التي عزى اليها تغيب هذا السقاء عن المحلة، ورويت عنه روايات متضاربة، متعارضة، حتى وقع سكان الحارة على خبره، وعلموا أن محسناً قد قرر الانتقال الى محلة أخرى، وانه لن يرجع عن قراره هذا بعد اليوم!! أما كيف قد جرى ذلك؟ وما هي الاسباب التي أدت الى مثل هذا القرار فتتلخص فيما يلي:

شاءت ارادة محسن ذات يوم ، أو قل شاءت الصدف أن تكون أبواب جميع البيوت في تلك الساعة من ذلك اليوم موصدة محكمة الايصاد في وجه محسن عدا بيت واحد ، لقد شاءت ارادة هذه الصدف أن يكر محسن على هذا البيت المغفل فيفرغ لأهله الماء دفعتين متواليتين في ظرف أقل من ساعة ونصف ساعة !! ، وقد اضطر أن يرش الماء من الحمل الثاني في البيت حين لم ير ظرفاً فارغاً ، زاعماً ان القذارة من ساحة هذا البيت وصحنه قد بلغت مبلغاً لا ينبغي اهمالها ، وان من الخير لسكان هذا البيت أن يرشوا دارهم بقربتين من الماء او اكثر ، وان لمحسن كل الفضل عليهم حين نبههم الى هذا الواجب ، وحين يقوم هو عنهم بمثل هذا العمل ...!!

لقد شاءت ارادة محسن ان يفرغ حملين من الماء ـ لبيت لم يكن يحتاج القطرة الواحدة ـ اكراهاً ، وارغاماً ، ثم وقف يطالب بثمن الماء بما عرف به من وقاحة ، وصلف ، وشدة ! !

ولم يتحمل صاحب البيت كل هذا الاعتداء ، ولعله قد لاقى من محسن الشيء الكثير من هذا التعنت من قبل ، فثار . . . وكانت ثورة عمياء مصحوبة بصياح وصراخ... وكانت حملة اتهام ضد محسن تتلخص بأنه اي محسن قد سرق من بيته قطعة من السجاد النفيس ، واتصل الصياح والصراخ من صاحب الدار واهله بالجيران فهرعوا برجالهم ونسائهم واطفالهم ومن كان في تلك الساعة حاضراً ، ورأى الكثير من هؤلاء الذين كانوا لقمة سائغة لمحسن السقاء طوال الايام الماضية، لقد رأى هؤلاء انها فرصة من خيرة الفرص للانتقام ، فهاجموه هم الآخرون بالنعال ، واللكمات ، والركلات ، والاتهامات العجيبة الغريبة ، فمن قائل ان محسناً قد سرق من بيته ( سماور ) من نوع النيكل الفاخر، ومن قائل ان محسناً ، قد حمل قدر عشائهم ذات ليلة من فوق الاثافي وفرّ به الى بيته ، وغير ذلك من الاقاويل ، والاتهامات ..!!

وهكذا ختمت رواية محسن السقاء في هـــذه المحلة بضرب مبرح ،

واتهامات عبرت عن ظلم محبوب كان يتمنى كل غائب من سكان تلك الحارة أن يكون فيها حاضراً ليساهم في هذه الظليمة !!

وهكذا لم يعد أحد يرى لمحسن موضع قدم ، ولا لحماره موطء حافر فى تلك الشوارع بعد ذلك اليوم ؟



## ملحوظة

بين هؤلاء ( الأولاد ) بضعة أفراد كانوا أشقاء لتوائم نساتهم عدة أمهات في ( الفرات ) ظهروا على مسرح الحياة قبل هذا بعدة سنين ، فاذا ما رآم القارىء منساين اليوم من بين اشقائهم الخاص ( اولاد الخليلي ) المتقدمين ومنضمين الى هذا الرهط من اخوانهم ( أولاد الخليلي ) الجدد ، فانما جرى ذلك على قاعدة : ( رب أخ لم تلده أمك ) فهم أقرب الى هؤلاء الجدد منهم الى اولئك المتقدمين بل انهم أحق بالتنويه اذا كان ( الفضل المتقدمين ) كما يقولون ، ولهذا السبب وحده سبب المناسبة ، ألحقت بضع قصص محكية سابقة بهذه المجموعة الجديدة .



... أسرع مخنفة الى حماره فأنزل القربتين من علا ظهره . .

قصة ـ متى نحب أن نظلم
من ـ أولاد الحلبي

# الفهرست

## — اعتذار —

على الرغم مما بذل من عناية في تصحيح الكتاب وتنسيقه فانه لم يخل من أغلاط ربما كان بعضها مخلا من حيث اللغة والاملاء والفن فاقتضى الاعتذار من القراء